ريجي دوبريه

ثورة في الثورة

ريجي دوبريه

ثورة في الثورة!

الصراع المسلح والصراع السياسي في اميركا اللاتينية

ترجمة

الياس سحاب

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة السادسة
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣

مقدمة

عشرات العمليات السياسية قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية وما يقارب من عشر روايات وأفلام ، أطلقتها في جميع أنحاء العالم ، لتكرّس شخصية رجل المخابرات الاميركية « ٠٠٧ » وتدمغ العصر بطابعه ... ولكن شيئاً ما ، كان ينطلق من التحرك الشعبي البسيط ، ليفسد كل هذه المخططات ، بالرغم مما يدعمها من طاقات مالية وتكنولوجية خارقة ...

فمقابل الشعار السحري « ٠٠٧ » الذي أنفقت اميركا مئات الملايين من الدولارات لفرض سلطانه على العالم ، أطلقت جمهرة البوليفيين الفقراء ، وبمنتهى العفوية ، شعار « ٠٠١ » ، مشيرة به إلى شخص المفكر الفرنسي ريجي دوبريه ، فكانت تغني له وهو في سجنه ينتظر مصيره :

« في سجن مظلم حقير
صفر صفر واحد ينتظر ... ينتظر
أن يموت في محاكمة
أو يموت بلا محاكمة » .

هذه التسمية « ٠٠١ » ، كان يقصد بها في البداية وصم دوبريه ، من قبل السلطات البوليفية ، بأنه جاسوس ، شأنه شأن جيمز بوند ، ولكنه يعمل لحساب كوبا ...

فما هي المهمة الحقيقية التي ذهب دوبريه ينجزها في بوليفيا ، بعد أن سبقته

إلى هناك نسخ من كتابه « ثورة في الثورة » ؟ وما هي التهم التي وجهت اليه ليحكم عليه في شهر نوفمبر ١٩٦٧ بالسجن لمدة ثلاثين عاماً ، رغم رسالة خاصة من ديغول لبرينتوس حاكم بوليفيا المطلق ؟

يقول الصحفي الانكليزي بيري اندرسون ، رئيس تحرير مجلة نيو لفت ريفيو » (مجلة اليسار الجديد) الذي أمضى ثلاثة أسابيع في بوليفيا يبحث عن حقيقة قضية ريجي دوبريه ، يقول :

« بدأ كل شيء في ٢١ ديسمبر ١٩٥١ . ففي ذلك اليوم تلقى ريجي دوبريه الذي يدرّس الفلسفة في جامعة هافانا بكوبا ، منتدباً من الحكومة الفرنسية ، رسالة سرية ، في غرفته بالطابق الحادي والعشرين في فندق « هافانا الحرة » . كانت تلك الرسالة من « ارنستو شي غيفارا » يقترح فيها عليه أن يكون أول صحفي يأخذ منه حديثاً بعد عودته إلى العمل السري. وقد كان هذا الطلب منطقياً من جهة غيفارا حتى قبل سنتين، إذ كان دوبريه قد كسب ثقة المسئولين الكوبيين عن طريق بحثين طويلين أعدهما عن استراتيجية الثورة في أميركا اللاتينية : « الكاستروية ، المسيرة العظمى لأميركا اللاتينية » [1] (ظهر في مجلة « الأزمنة الحديثة ») و « مشاكل الأستراتيجية الثورية »(ويرى القارىء ترجمة له ملحقة بهذا الكتاب) . كذلك كان دوبريه في ذلك الوقت يضع اللمسات الأخيرة في كتابه « ثورة في الثورة » الذي كتبه كحصيلة لمحادثات طويلة بينه وبين كاسترو.

وحسب تعليمات الرسالة كان على دوبريه أن يتوجه إلى باريس، وإلى مكتبة « لاجوادولير » التي يملكها الناشر المعروف فرنسوا ما سبيرو (ناشر كتاب « ثورة في الثورة » وكتب أخرى لغيفارا وكاسترو) .

بعد شهرين من ذلك ، وبعد أن أنهى عمله في كوبا ، سافر دوبريه إلى باريس . وفي الخامس عشر من فبراير ، ذهب الى المكتبة فتلقى رسالة ان عليه السفر إلى « لاباز » عاصمة بوليفيا المعلقة على ارتفاع ٣٧٠٠ متر . وهناك ،

١ ـ إقرأ ترجمة له في كتاب « تجارب اشتراكية » ـ منشورات دار الآداب ، بيروت .

سينتظره في الساعة السادسة من مساء كل ثلاثاء رجل اسمه اندريه ، امام فندق «سوكر» .

وسافر دوبريه إلى «لاباز» التي أقام فيها مرة حين كان يجمع المعلومات لبحثيه الأولين . وكان دوبريه يحمل بطاقة صحفي يعمل لحساب دار ماسبيرو للنشر ، والمجلة المكسيكية الكبيرة «سوسيسرس». ولم تعرقل الدوائر الصحفية الرسمية في بوليفيا مسألة الاعتراف بأوراقه الصحفية . وكان دوبريه بالطبع يستعمل جواز سفره الفرنسي الذي شهد قنصل فرنسا في لاباز بأنه كان متمماً جميع الاجراءات القانونية المطلوبة بعد دخول دوبريه الى بوليفيا .

وبعد أن التقى دوبريه بأندريه سلمه هذا الأخير إلى دليلة اسمها «تانيا» ، غادر معها لاباز باتجاه الجنوب في سيارة كبيرة من النوع الذي يطلق عليه البوليفيون اسم «غوندولا» .

في الثالث من مارس ، وصل دوبريه ودليلته تانيا الى «سوكر» على مسافة ٣٥٠ كيلو متراً من العاصمة ، وهناك نزلا في فندق «غراندي» في الوقت الذي كان قد سجل فيه رجل ارجنتيني اسمه في سجل الفندق تحت اسم«تروكتووزو» ولم يكن هذا الرجل غير الرسام الارجنتيني المعروف «سيرو روبرتو بوسنوس».

وبقي الرجلان في «سوكر» حتى السادس من مارس ، ثم توغلا أكثر فأكثر نحوالجنوب. وبعد ذلك بأيام قليلة توجها إلى كاميري، في منطقة البترول. وهناك ، صعدا بتعليمات من تانيا الى الشمال قليلاً ، إلى منطقة تلال مزروعة بالأشجار ، وشبه مهجورة . ولم يكن دوبريه حتى ذلك الوقت يعرف الى أين تقوده الدليلة .

في بداية مارس كانت بوليفيا تبدو بلداً هادئاً . كانت دكتاتورية الجنرال بارتينوس العسكرية التي جاءت إلى الحكم قبل سنتين عقب انقلاب عسكري، لا تتمتع بأي تأييد شعبي،ولكن حتى ذلك الوقت لم تكن قد ظهرت أي علامة تمرد ، بعد أن سحق تمرد عمال مناجم القصدير – اعداء النظام الأساسيين – في عام ١٩٦٥ .

كانت تانيا تقود دوبريه الى مزرعة « لا كازا كارمارينا » حيث وجد نفسه فجأة في وسط معسكر للثوار ، وكان هذا المعسكر في الحقيقة هو المركز الذي انطلق منه العصيان بعد فترة قصيرة . وكان الاخوان كوكو ولوني بيريدو قد اشتريا المزرعة قبل ثمانية اشهر ؛ وكان الاخوان شيوعيين ، عرف فيما بعد انهما قائدا الثوار البوليفيين. وكان الاخوان بيريدو قد جمعا في المزرعة كميات ضخمة من السلاح ، والمؤن واجهزة الإرسال ، وأخذا يدربان رجال العصابات سراً . وكانا في نهاية كل اسبوع ينزلان الى مدينة « لاغوتيلاس » و « كاليري » لىعطيا الانطباع بأنهما من أصحاب المزارع المسالمين ، وكان أحد لا يشك فيهما .

لم يكن دوبريه حتى ذلك الوقت قد رأى غيفارا ، ولكن قيل له ان ذلك لن يتأخر . وكان دوبريه قد صمم على أن لا تتجاوز إقامته مع الثوار أكثر من أربعة أيام او خمسة . ثم يسافر بعد ذلك لنشر تحقيقاته . ولكن الأحداث تسارعت. فقد نبه أحد مهندسي البترول السلطات الى حركة مشبوهة في منطقة « نانكاهوازوا » ، بينما كان دوبريه ينتظر في « كازا كارامينا » فأرسل قطاع عسكري كبير لتحري الوضع ، فعجل وصول الجيش في اندلاع الثورة جنوبي بوليفيا ، حيث وقعت الكتيبة التي كان يقودها الكابتن سيلفا ، في ٢٣ مارس ، في كمين نصبه الثوار ، على ضفاف النهر ، فقتل ثلاثة ضباط وأسر خمسة عشر رجلا .

وباندلاع الثورة،ترك الثوار مركز «كازا كارامينا» وشكلوا وحدات متنقلة تجوب الغابات .

في هذه الظروف ، تمكن دوبريه اخيراً من مقابلة غيفارا ، في نهاية شهر مارس . وقد ذكر دوبريه فيما بعد ان هذا اللقاء لم يوفر له ظروف المقابلة الصحفية ، حيث كان غيفارا يقود الثوار في تلك الفترة العصيبة من العصيان مكبداً الجيش النظامي خسائر فادحة .

وفي أوائل ابريل ، كان دوبريه قد أنهى مهمته ، فقرر هو وبستوس أن يغادرا منطقة الثوار ، فحاولا التوجه لمدينة غوليتارز الصغيرة شرقي كاميري؛

ولكن الجيش النظامي كان قد احتلها فاضطرا لتغيير الخطة. وبعد اسبوعين من المرافقة الاضطرارية لرجال العصابات ، قررا تجريب حظهما في مويوبامبا ، في الطرف الآخر من منطقة العمليات. وفي التاريخ نفسه ، كان مصور انغلو — شيلي ، جورج روث ، قد ركب فرساً ، محاولاً ان يبلغ منطقة الثوار . وكان روث ، الذي يعمل لحسابه ، قد رافق الجيش حيث التقط عـــدداً كبيراً من الصور ، وتمنى لو يستطيع اتمام المهمة والتقاط بعض الصور في منطقة الثوار . وفي ١٦ ابريل ، ودع جورج روث قائـــد الجيش النظامي في لاغوتبلاس ، الذي كان يعرف نواياه .

وبعـد يومين ، كان روث بقيادة أحـد الفلاحين قد وصل الى منطقة الثوار حيث التقى بدوبريه وبوستوس. وكان الثوار الذين أثقل تحركهم وجود المدنيين الثلاثة معهم ، يسعون للتخلص منهم بأسرع ما يمكن . وبعـــد وصول روث بعشرة أيام، أبعد الثوار المراسلين الثلاثة عن معسكرهم ، فبدأ الثلاثة مسيرتهم مشياً على الاقدام نحو مويو بامبا .

وفي السادسة من صباح العشرين من ابريل ، كان الرجال الثلاثة يخترقون المدينة الصغيرة ، باللباس المدني ، ومن غير سلاح ، يحملون آلات التصوير ، ويحاولون استئجار سيارة « جيب » تقلهم إلى « سوكر » ومنها إلى « لاباز » ، عندما أوقفهم رجال المباحث (الشرطة السياسية في بوليفيا). ولم يبدِ دوبريه في أول فترات اعتقاله أي قلق ، فقد قال مثلاً : انني أشهد بأنهم ، في بوليفيا ، كثيراً ما يوقفون الصحفيين للتأكد من هوياتهم. وعندما قابل الكاهن الدومينيكي الفرنسي « الأب شوارتز » دوبريه ، وسأله عن ضرورة الاتصال بالسفارة في لاباز ، أجاب دوبريه : لا داعي لذلك ، فسيطلقون سراحنا بعـد ساعات ، مسألة تحقق من هوياتنا فقط » .

وبينما هم موقوفون ، رآهم محرر جريدة « برسنسيا » الذي كان قادماً من كاميري ومتوجهاً إلى « سوكر » ، فثرثر معهم قليلاً ، كزملاء أجانب ، ثم

صورهم . كل شيء كان يبـدو وكأنه يسير في مجراه الطبيعي ، إلى أن تعرّف سالوسنو شوكي – وهو أحد عمال المناجم الذين تخلوا عن الثورة – إلى دوبريه وبوسنوس ، فنبّه البوليس ، وتولى البوليس ابلاغ المركز الرئيسي في لاغوتيلاس وبعد ساعة كانت طائرة الهليكوبتر الوحيدة لدى الفرقة الرابعة تهبط في مويو بامبا، لتأخذ السجناء الى ثكنة شوريني . ويقول دوبريه : « اعتقلوني في الثامنة صباحاً ، وفي الثامنة مساء كانوا يعذبونني » .

وكان الذين تولوا تعـذيب دوبريه من الضباط ، من رفاق الضباط الذين قتلهم الثوار – كما كانوا يُـدعون – وبعـد يومين وليلتين من التعذيب ، فقد دوبريه وعيه ، وفي الوقت الذي كان فيه رفيقاه الآخران يعذبان أيضاً . ولم تتوقف عمليـة التعذيب إلا عنـد وصول الميجر سانشيز ، فحلّت الأسئلة محل التعذيب ، ثم جاء دور الخداع والمناورات . فقد عرضوا على دوبريه خبر وفاته في إحدى الصحف الأجنبية ، وقالوا له : « إن أسهل شيء بالنسبة لنا الآن هو أن نطلق عليك الرصاص فوراً ، فلماذا نقيم لك محاكمة علنية ، طالما أن الجميع يعتقدونك ميتاً ؟ »

ويضيف دوبريه في رسالته الشهيرة من السجن ، إلى هـذه التفاصيل كما رواها بيري اندرسون، انهم لم يمتنعوا عن قتله رأفة به ، بل لأنهم كانوا يعتقدون انه يملك معلومات خطيرة عن ثوار بوليفيا ، وشي غيفارا ؛ فقد سمعهم يقولون إنهم يستطيعون الافادة منه وهو حي اكثر مما يفعلون وهو ميت ؛ ويضيف دوبريه : أما سبب امتناعهم عن قتلي بعد أن يئسوا من أن أفشي بأية معلومات، فقد كان لدافع آخر ، هو أن العالم قد عرف بعد ذلك انني ما زلت حياً ، فلم تعد تصفيتي الجسدية أمراً سهلاً ..

ولنعد إلى رواية بيري اندرسون :

بعـد ذلك عرضوا على دوبريه إخلاء سبيله مقابل توقيعه على وثيقة يهاجم فيها الثوار ويتخلى عن كل معتقداته . كما حاولوا ، تحت التعذيب. أن يأخـذوا

من بوسنوس شهادة ضد دوبريه . أما روث المسكين ، فقد كان لا يفقه شيئاً مما يجري حوله ، نظراً لجهله بأهمية رفيقيه اللذين شاء له سوء حظه أن يرافقهما .

وبعد أربعة أيام من التحقيقات المتواصلة ، تلقى ضباط المخابرات البوليفية المساعدة من الولايات المتحدة الاميركية ، ففي ٢٤ ابريل حضر عدد من عملاء المخابرات الاميركية ، والمنفيين الكوبيين . وبالفعل ، فإن سجلات اوتيل « بيرت » بكاميري قد أدرج فيها اسما ضابطين اميركيين : الميجور ثيودور كيرش وجوزف كيلر (من غير اشارة الى رتبته) ، وليس صعباً استنتاج مهمتها . وفي مايو ، وكان أي شيء عن مصير دوبريه ما زال مجهولاً ، وصل نفر آخر من الضباط الاميركيين : العميد جوزف برايس والميجور كيرش (مرة ثانية) وجيمز ايفنس « من غير اشارة الى رتبته » .

ولنترك رواية اندرسون عند هذا الحد وننتقل الى الرسالة التي بعث بها ريجي دوبريه من سجنه الى فرنسا بعنوان « ما أطلبه من رفاقي » لنجيب على أكثر من سؤال محيّر : هل اشترك دوبريه فعلاً في حرب العصابات ، في الأيام القليلة التي قضاها في بوليفيا ، وهل كان بالفعل يحمل رسالة من كاسترو الى غيفارا أو العكس بالعكس ؟ .

يقول دوبريه :

« لقد ذهبوا حتى فنزويلا وغواتيمالا ، يستحضرون من السجناء السياسيين شهادات ضدّي ولكنهم لم يعودوا بأي دليل ، فقد كانت جميع الأسئلة ، من الصفع حتى المناورة ، هي اعادة ميكانيكية لتاريخ حياتي العادية ، ولوظيفتي كصحفي مبعوث من ماسبيرو . وسقطت بذلك الدعوى التي حاولوا رفعها على كوبا ، فتحولوا لإقامة الدعوى عليّ .

كانت كوبا شيئاً هاماً بالنسبة لهم ، ففيها تسلمت الرسالة التي طلب فيها غيفارا مني التوجه الى باريس . يتحدث المستنطق في استجوابه عن « الفرنسي – الكوبي » وعن « تعليمات سيده كاسترو » ، ولكن لا بد انه (هو أو كاتب

الاستجواب) قد استعار هذه الألفاظ من مجلة « ريدرز دايجست » وليس من ملف التحقيق نفسه ، الذي لا يوجد فيه إلا الوقائع الشرعية . لذلك ، فقد لجأ بارتينوس إلى أساليب أخرى لجر كوبا إلى القضية ؛ فقد كان يشيع مثلاً أن شخصي المتواضع سيتم استبداله بخمسين من السجناء عند كاسترو ، متابعاً بذلك المناورة السياسية؛ وهذا ما كان يجعلني أشدد على كوني مواطناً فرنسياً،وأطلب حماية السفير الفرنسي . وكان تعلق قضيّتي بالحكومة الفرنسية ـ لا الكوبية ـ هو أكثر ما يغيظ بارتينوس .

وبعد أن فشلوا ، طوال شهرين ، في اثبات مهمة العمالة عليّ ، أرادوا أن يثبتوا للرأي العام انني من رجال العصابات ، بل انني مسؤول وزعيم . وفي بداية الأمر ، كانت القضية تتعلق بمناورة مؤقتة للالهاء . وكانوا يعلمون ان ذلك ليس صحيحاً، ولكنهم كانوا ينتظرون المزيد.فأجهزة الاستخبارات التي أجرت التحقيقات ، تعرف تماماً أن هذه القصة ليست جدية ، وأنه لو صح انني بالفعل قد التحقت برجال العصابات كمقاتل ، لبقيت مع العصابات ، ولما خرجت منها إلا وأنا مقتول . بعد فشل اللعبة حاولوا إقناعي بالاعتراف بانتسابي الى رجال العصابات .

ولما فشلت اللعبة مرة أخرى ، حاولوا اختراع قصة « المجرم » للاستهلاك الشعبي ...

واستمرت الأحوال على هذا المنوال حتى شهر يوليو ، حين خرجت من زنزانتي ، لأكتشف ان هناك شيئاً اسمه « قضية دوبريه » ، وأن الصحفيين يهتمون بها ، وانهم لم يجعلوا مني رجل عصابات فقط ، بل « المهندس الفكري لحرب العصابات » والمنفذ أيضاً . وهذا كثير بالنسبة لرجل واحد . وأكثر دليل على استحالة هذا الأمر ، هو انني لم أتعرض طوال شهرين ، لسؤال من هذا القبيل ، من قبل المحققين .

كنت ، بعفوية وبغير تصديق لهذا النوع من التهم ، أنفي كوني رجل

عصابات . وكان هـذا مزعجاً ، خاصة بالنسبة لي . فالانتساب العميق لحرب العصابات كان يتفق مع نواياي وخططي منذ وقت طويل . وحتى الآن ، وطالما ان العالم هـو ما هو عليه ، فإني لا أتمنى أن أموت في فراشي . ولكن « شي » قرّر ان الوقت لم يحن لذلك ، وأن من الأفضل الاعلام عن حرب العصابات في الخارج . ونتيجة لذلك فقد شاركت في الحياة اليومية للمعسكر ، لأن الوضع العسكري تطور بسرعة ومنعني من الخروج في الوقت الذي كنت أتوقعه ، ولكني لم اشترك في أية معركة ، حتى لا أجعل خروجي معرضاً للشبهات ، اذا ما رآني سجناء او ضباط . ومن جهة ثانية فإن جيش الثوار كان له مفوضوه السياسيون الخاصون به (أحـدهم لقي حتفه ، كوكو بيريدو — وهـو أحد اصحاب المزرعة التي بـدأ فيها تدريب الثوار) ، والمعينون قبل مجيئي بمدة طويلة. أما كتابي « ثورة في الثورة » فقد قرىء في أحد معسكرات الانتظار ، في اثناء غياب المفوضين السياسيين وغيابي ،وذلك بناء على مبادرة قادم جديد كان يحمل الكتاب في جرابه ، وقد استمع الى هـذه القراءة الهاربان من حرب العصابات وشوكيه — شوكيه « الذين وشوا بدوبريه بعد ذلك » . ولكن اذا كان الكتاب يعبر بالفعل عن افكار « شي » فإنه لم يساهم ابـداً في تنظيم حرب العصابات ، ولم يطلع عليه « شي » في طبعته النهائية إلا في ابريل .

اني اذن أنفي كوني رجل عصابات ، لأني لم أكنه بالفعل ، حتى ولـو اصبحته بسبب بقائي فترة قليلة أطول . يقول تقرير عن اجتماع للجماعة القائدة، عثر عليه في مخازن الارشيف ، وهـو الآن بين أيـدي الجيش : ان دوبريه وبوسنوس ، اذا لم يتمكنا من الخروج سيصبحان من رجال العصابات ، ولا ادري إذا كانت هذه الوثيقة ستستعمل ضدي .

كما أني أنكر أيضاً أني كنت مفوضاً سياسياً ، لأنني لم اكنه ، كما لم أكن مسؤولاً عسكرياً ، والجيش يعرف تماماً كل هذا .

وأنا أعرف أن هذا النفي قد يؤدي إلى التباسات . فالصحافة البورجوازية، التي تغـذيها التصريحات المزعجة لوالدي تطرح هـذا النفي لتأكيد حق او

استحالة طبيعية لرجل القلم في أن يحمل بندقية ، والقول بأن المثقف الثوري معفى من الخدمة الثورية ، واستحالة قيام « كاتب » بتلطيخ يديه بالسلاح . مما يعطي تقريباً : « ابني ليس مجرماً ، من تعتقدونه ؟ إنه ولد شريف ، الخ ...) ان هذا لشيء سخيف ، فعندما يكتب المرء ما كتبت ، فيجب عليه بالضرورة الضرورة النظرية والخلقية ، أن يتحول يوماً إلى مجرد مقاتل من غير بندقية ، قلم سيء ؛ ومن غير قلم ، بندقية سيئة ، لا يمكن إذن أن تجعلوا مني روحاً طيبة هائمة بالطبيعة ، هائمة في الجبال بفضل « كرمها» ، ليس قراراً من عندي ، ولكنها ضرورات الكفاح ، وتقسيم العمل مؤقتاً ، هي التي منعتني من القتال ، ومن الانخراط نهائياً في جيش التحرير الشعبي . وانا حين انفي انتسابي الى جيش التحرير ، إنما اقرّ واقعاً ، وليس حقاً غير موجود بالاعفاء .

وإني اطرح هذا السؤال احتراماً لرجال العصابات أنفسهم : منذ متى كان رجل العصابات ، والقتال ما زال في اوله ، يهجر منطقة القتال ، حاملاً حقيبة سفر ، في يـده ، وجواز سفر في جيبه ، حتى من غير مسدس يـدافع به عن نفسه ؟ إن رجل العصابات يسقط وسلاحه في يـده (كو كو بيريدو) . او يسجن بعد ان يصاب بجرح فلا يستطيع الدفاع عن نفسه (فاسكوبتر) .. حتى الذين يطردون من جيش التحرير ، لا يمكنهم النزول إلى المـدينة بثيابهم المـدنية . ولو أنني استطيع التحدث باسم جيش التحرير ، كايتحدث المقاتل المأسور في معركة ، لكان ذلك مدعاة سرور لي . ففي النظرية التي اخترتها ، فإن الانتساب الوحيد الشريف ، هو انتساب المقاتل انتساباً كاملاً . إن من سؤ حظي أنني لم أكن كذلك .لذلك فإنني لا أستطيع ان أهدي القضاة العسكريين اكذوبة لمجرد تسهيل مهمتهم .

«ومع ذلك فإنني لا ادعي أبداً حالة البراءة ، وحصانة المثقف ، ولا اسعى لغسل يدي من الدم الذي سال . فإذا كانت الكتابة عملاً والتزاماً ، فإني مسؤول عن تبرير وتمجيد حرب العصابات ، وأقبل هـذه المسؤولية كامتياز .. ولكني اطلب محاكمتي على ذلك ، على التحليـل الذي كتبته للكفاح المسلح في اميركا

اللاتينية – وحبذا لو كان هذا التحليل مفيداً لرجال العصابات .

«ولكن لما كانت هـــذه المسؤولية ذات الطابع الخلقي، التي امثلها راضياً، لا تقع تحت طائلة القانون الجزائي، فقـــد نحتوا لي تمثال « لص» و «مجرم » ، فهـــذه الأسماء هي التي يطلقها على رجال العصابات اولئك السادة الذين تحمل ضمائرهم وزر قتل أكثر من عامل منجم، وأكثر من طالب . يـــدعون ،من غير اعتبار للسخف ، أن كتابي «ثورة في الثورة » هو الذي اوقف ثورة بوليفيا على قـــدميها، حتى يحاكموني حسب القوانين . عندما أقول انني لم ارتكب أية جنحة توقعني تحت طائلة القوانين الجزائية القائمة ، وعنـــدما ارفض كل التهم التي حيكت ضـــدي حتى الآن ، فإني لا اسعى الى التحلل من مسؤولياتي او الاستشهاد بأي ميثاق يستنكر حمل السلاح ، مما يناقض النظرية التي أنتسب إليها ، ويناقض حياتي منذ عدة سنوات . إنني فقط اعبر عن واقع ، لا يسبب لي أي رضى خاص .

« إني أتمسك أكثر من أي وقت مضى بالكاسترويه كاستراتيجية وحيدة ، واقعية وصائبة ، نابعة من الظروف الحقيقية ، في معظم بلاد اميركا اللاتينية . قد أعدّل كتاب «ثورة في الثورة» في بعض نقاطه الهامة التي لا اتفق فيها تماماً مع غيفارا ، وذلك على ضوء تجربة الرفاق البوليفيين ومحادثاتي الأخيرة مع «شي» وقد اشدد على نقاط أخرى (التنديد بالأحزاب الشيوعية مثلاً ، الذي يجده غيفارا في كتابي تنديداً شـــديد التردد) . ولكن يجب ، في الصعاب التي يجتازها الكفاح المسلح في بوليفيا ، أن نحتاط للتقلبات، وخيانات الرجال (غير المتوقعة) والحزب (المتوقع ، ولكن ليس الى هذا الحد ، وبكل هذه الحيل)، ولنظرية الكفاح الثوري التي وضعت موضع التنفيذ دون تردد .

انتحليل هذا التاريخ هو من حق الذين عاشوه بكل تفاصيله .

وأصل إلى النقطة الأليمة : الدعاية الباكية الكريهة التي احاطت بها وصفي المجلات البورجوازية والواسعة الانتشار ، بتحريفه واخفاء معناه الحقيقي ، الذي يشير إلى وضع تاريخي وليس إلى وضع شخصي . عندما كنت في الخباء

لمدة شهرين ، لم أعرف بالطبع شيئاً .

وبعد ذلك امضيت وقتاً طويلا ، وطويلاً جداً حتى اكتشف في أي سيرك نصبوني مهرجاً ، وكنت اكتشف ذلـك كلما سمح لي بمطالعة الصحف البوليفية اولاً ، ثم باستلام انباء عن والديّ ، عن تصريحاتها ومؤتمراتها الصحفية ، واستلام مقتطفات من الصحافة الفرنسية .

وأود هنا ان اذكر بأن باب زنزانتي يفتح من الخارج ، وأن الحراس لا يطلبون رأيي عندما يسمحون لمجموعة من المصورين بالدخول – سراً – او كذلك عندما اذهب إلى المرحاض ، وعندما امشي المئة خطوة في الساحة ، او عندما اقابل امي ، علناً لأول مرة ، إن هذا كله لأكثر من مشين .

ولم أكن اكتشف ان أية عبارة اطلقها من غير حذر امام صحفي ستُطحن وتعجن ويكون لها هذه الأصداء » .

وبعد ان يحمل دوبريه في رسالته بعنف على الاستغلال التجاري الرخيص ، والاستغلال العاطفي لمشاعر ابويه اللذين احيطت بهما قضيته ، يخاطب اصدقاءه قائلا :

«لذلك فإني اطلب إلى اصدقائي أن يصححوا الأمور ، فبدلاً من أن تكون «قضية دوبريه » مرآة للضمائر الطيبة الخجولة، او مورد رزق لتجار العواطف الاسبوعيين ، يجب استخدامها لتوعية الرأي العام قليلاً حول مشاكل اميركا العامة ، مشاكل الكفاح المسلح ، والفاشية الاميركية الجديدة .

فليتوقف الحديث عن دوبريه ، الذي ما زال حياً حتى الآن ومعرضاً للاتهامات ، وهو جالس على كرسي الاتهام ، أكثر من عاهرة من سينيسينا ، وليكن الحديث عن ثوار بوليفيا وغيرهم ، عن اولئك الذين ماتوا في القتال ، او الذين ما زالوا على قيد الحياة يقاتلون على أرض فظيعة الصعوبة .

فليرو تاريخ عمال المناجم ، عن تعرضهم لأمراض الرئة وللذبح . إن وضع أفكار فيديل « وشي » موضع التنفيذ في خلق أكثر من فيتنام لإنقاذ الفيتنام

أو القضاء نهائياً على صناع الفيتنام ، لا يحتاج إلى رجال خارقين ، بل يحتاج من كل منـّا كثيراً من نكران الذات ، والكفر بكل شيء وربما بالحياة ، والصمود والعناد ، ومعدة تتحمل البقاء خاوية لعدة اسابيع .

عن هذا ، وعن هؤلاء يجب الكلام ، وليس عن محكوم بين ألف محكوم ، مؤمن له النوم والأكل على راحته ، ولعدة سنوات . ان قضيتي وسط اليونان وكولونيلاتها ، واميركا اللاتينية وجنرالاتها ، وفيتنام وستمورلاند ، يجب أن تكون تافهة وضائعة كما تضيع الإبرة وسط كومة من التبن . وإذا ما بقيت هناك « لجنة من أجل دوبريه » ، فيحسن ان تخفف مجالات نشاطها لتبديل طابعها وتحويلها إلى «لجنة من أجل الثورة الأميركية»، أو شيء مشابه ، إن الواجبات العملية موجودة ، وسأحاول أن اكتبها مرة ثانية .

إني آسف لعدم تمكني من تولي الدفاع عن نفسي بنفسي ، ولدي كل اسباب الخوف من عدم سماح المحكمة لي بالخوض في النقاش الأساسي ، أو افساح المجال امامي للكلام، باستثناء الاعلان النهائي التقليدي . إن هذا الدفاع لا يمكن بالطبع أن يكون شخصياً وحسب اصول المرافعات ، ولكنه دفاع عن حرب العصابات بمجملها ، عن اعمالها الشرعية والضرورية ، شرعية لأنها ضرورية . يجب الغوص في التفاصيل ، وليس هذا سهلاً ، مقابل تهم القتل ، والسرقة ، ونصب الكمائن ، ليس في « قتال شرعي » بل في حادث اغتيال وخيانة — وهذه تهمة ملتوية وسخيفة ، ولكن لا بد من اخذها بحرفيتها لتنفيذ سخفها — يجب عرض خلفية الحرب الثورية ، اليوم ، في اميركا اللاتينية .

« هذا الدفاع الذي لا أستطيع المرافعة به ، لا بد من أن اصوغه مكتوباً ، ثم أنشره بعد ذلك في الخارج . فإذا كان بالإمكان ربح المعركة الدعاوية ، فسيكون ذلك على الأقل متأخراً . »

وهكذا كان ، لم يسمح لدوبريه بالكلام طويلاً ، وبحرية ، وحكم عليه بالسجن ثلاثين سنة ، ولكن ها هو كتابه يترجم إلى اللغة العربية ، ولن تتمكن حكومة بوليفيا من منع ترجمته إلى سائر لغات العالم ، كما لن تتمكن من انتشار

أي فكر ثوري يتسرب من سجن دوبريه إلى جميع انحاء العالم .

* * *

وفي خضم الأحداث الكبيرة التي تجتازها منطقتنا العربية ، تتردد يومياً على سمع المواطن العربي كلمات « الحرب الشعبية » و « الكفاح المسلح » و « العمل الفدائي » ... هذه الشعارات لم تصل إلينا إلا بعد أن تبنتها شعوب اخرى ، ليس بأحرف كلماتها ، بل بجبال التضحيات والدماء ، والأخطار والأرواح التي ذهبت سدى في المراحل الأولى ، إلى أن اهتدى كل شعب إلى الشكل الذي يلائمه من هذه الشعارات .

كذلك لا بد هنا من الاشارة إلى ظاهرة تفشّت عندنا مع انتشار هذه الشعارات ، وهي انصراف عدد كبير منا إلى مطالعة تواريخ ثورات الحرب الشعبية المسلحة بقلم صانعيها ... وقد أدى هذا في معظم الأحيان إلى انقسام اعجابنا بالتجارب ، فأصبح هناك من ينادي بأفضلية التجربة الكوبية ، أو التجربة الصينية ، أو الفيتنامية ... ومطابقة كل واحدة من هذه الثورات على ظروف واقعنا العربي .

ليس كتاب ريجي دوبريه في هذا المجال حكماً بين هذه النظرات المختلفة . إنه كاستروي متعصب يعتقد أن التجربة الكاستروية تلائم معظم بلاد اميركا اللاتينية ..

وليست قيمة الكتاب على كل حال محصورة في هذا المجال .

أين تكمن قيمة الكتاب إذن ؟

قبل هذا الكتاب ، كان دوبريه قد التهم قراءة كل ما كتب حول الثورات المسلحة في قارتي آسيا واميركا اللاتينية .

ثم ذهب دوبريه يجوب انحاء اميركا اللاتينية ، يستمع ، ويناقش ويراقب . فوضع حصيلة هذه الجولات بحثين كبيرين احدهما بعنوان « استراتيجية الثورة

في اميركا اللاتينية » والآخر بعنوان « الكاستروية ، المسيرة الكبرى لأميركا اللاتينية » . ثم عاش دوبريه – كما يشرح في مقـــدمته – سنتين في هافانا ، بقرب كاسترو وبقية ابطال ثورة كوبا ، يناقشهم في كل مسائل الثورة المسلحة في اميركا اللاتينية .

وهكذا تأمن لريجي دوبريه اطلاع على تفاصيل حركة الثورة المسلحة في اميركا اللاتينية عن طريق المعايشة ، وصلتها بالثورات الآسيوية ، عن طريق المناقشة والمطالعة ، ولعل هذا لم يتأمن لأي مفكر معاصر آخر .

هـــذه هي نصف قيمة الكتاب . اما النصف الآخر فيكمن في المنهجية الفكرية الشديدة الحيوية التي ناقش فيها دوبريه وعرض ما يعرف من معلومات. فهو يشـــدد منذ مطلع الكتاب ، وحتى صفحاته الأخيرة ، على ان المقياس الأساسي لنجاح أية نظرية ، هو نجاحها في ميدان التطبيق ، ويرفع بذلك شعاراً هاماً متحركاً هو شعار «الفعالية الثورية » .. لذلك نراه يركز كثيراً على شرح المخاطر العملية لنسخ التجارب الثورية نسخاً آلياً ، واستيرادها – كالبضاعة – من بلد الى بلد ... ولذلك نرى دوبريه ، رغم اعجابه الشديـد بنموذج الثورة الكوبية ، فإنه لا يطلقه نموذجاً صالحاً للتطبيق في جميع انحاء العالم ، ولكن اقصى ما يقوله عن هذا النموذج إنه يلائم – في رأيه – ظروف معظم بلدان اميركا اللاتينية .

ورغم القيمة الفكرية الخطيرة للكتاب . الذي ينطلق من أسس ماركسية –لينينية إلى تحليل حركات الكفاح المسلح–، فإن دوبريه في رسالته الشهيرة من سجنه في بوليفيا ، يوصي بأن كتابه ليس نهائياً ، وأنه لو اعاد كتابته لأدخل عليه كثيراً من التعديلات على ضوء تجربة « الرفاق البوليفيين » ، ويضيف أن من حق الذين يعيشون تفاصيل تاريخ معين ، ان يكتبوا تحليلاً لهذا التاريخ ..
إن اعظم ما يحتاجه المواطن العربي في مرحلة تكاثر شعارات الكفاح المسلح ومتفرعاته من حوله ، هو أن يمسك بزمام منهجية فكرية معاصرة ودقيقة ،

تمكنه من إيجاد دربه وسط هذا الطريق الشائك ، فلا يكون الاندفاع العاطفي هو دليله الوحيد في الطريق ..

إن كتاب دوبريه في هذا المجال ، هو احد اخطر الكتب السياسية التي صدرت في القرن العشرين ، يضاف إلى الأدب الماركسي معلماً عصرياً هاماً وشجاعاً من معالمه .

المترجم

تنبيـــه

إن هـذا النص التحليلي القصير ، لكونه يطمـح إلى أن يكون مفيداً ، لم يستطع إلا أن يكون جافاً .

وقد شاءت الظروف لهذا النص أن يكون نتيجة حوار مع رفاقنـــا في اميركا اللاتينية ، حيث كان دورنا الاصغاء ، ودورهم البوح .

وهذا النص موجّه إليهم اولاً . فبعد هذا الدفع الهـائل في تاريخ القـارة الأمريكية الذي انطبعت عليه بصمات الثورة الكوبية ، لا يسعى هذا النص الا الى الاستجابة لضرورات ملحّة معينة :

أولها أن نفهم ما يجري كل يوم تحت بصرنا في اميركا اللاتينية ، وثانيها ان نضع على الورق الوجه الوحيد والمتماسك الذي يعلن عن نفسه وحـده من خلال المعارك والمواجهات المختلفة ، وثالثها محاربة مجموعة من الأفكار التي تحاول ان تعود بطريق متعرج ، حتى لا تنكشف ، ورابعها تنظيم انطلاقة مجموعة الحركات الثورية التي لن تنتصر الا اذا نُظمت . وأضيف الى كل ذلـك ضرورة أخرى ملحة هي ان لا تجف سدى كل هذه الدماء التي هدرت على كل هذه الأراضي ، وان يعترف بمعنى تلك التضحيات... هذا إذا كان لهذه الاسطر ان تدعي امكانيات الرد على كل هذه المسائل .

من هنـا اكتسب هذا النص شكل الرسم البياني أو شكل الملخص : نقلٌ

سهل ، واستهلاك وهضم سريعان . نشرة أو كاتالوج . مثل هذه الأشياء تُلقى في سلة المهملات بعد أن تؤدي مهمتها .

ولكن ما هي هذه المهمة ؟ ان تخرج المناقشات الملتزمة إلى الهواء الطلق ، من خلال أجوبة مستعجلة، أي استفزازية ؛ وأن تحفز رفاقاً آخرين ممن يعرفون هذه القضايا خيراً منا ، إلى أن يردوا على كل الأسئلة المحرقة . مهمة هذا النص باختصار ان تُخدم هذه المناقشة : « الثورة ، نعم ، ولكن كيف ؟ » ... المناقشة التي تخوضها اليوم قارة اميركا اللاتينية بأسرها ، ليس بالأفكار فقط ، بل بحاضرها ومستقبلها ؛ المناقشة التي تبدو وكأنها مخاض ، إذا شئنا ان نحكم على ذلك من خلال الحركة المتسارعة للتقلص والقذف ، والإطلاق والولادة .. وكما أنشد برخت في اذن الجندي « شويك » : « وإذا بدا الليل طويلاً ، فلأن النهار موجود » .

فليتحمل إذن هذا النص مخاطر صناعته التي جاءت غبية في منهجيّتها المنطقية ، منفصلة عن المعركة . ومع ذلك فلم يكن في نية هذا النص ان يضيف شيئاً إلى مجموعة الشعارات المهترئة ، أو إلى إيحاءات واستشهادات اشتراكية أصبحت أشبه بالطقوس الدينية . كذلك لم يكن في نية هذا الكتاب ، بنصه الفرنسي ، ان يزيد نغماً في طنبور المثقفين الثوريين المحترفين ، الذين تروج سوقهم في باريس في هذه الأيام التي تستهلك فيها حروب التحرير الشعبية في « كتب الجيب » المعروضة في واجهات المكتبات ، والتي يخوض فيها كل خريج نجيب من السوربون درَس جيداً كلاوسويتس[1]معركة تحرير منتصرة بشطحة قلم . كلا ، إن ما يحاول هذا الكتاب ان يلتمسه ، يوماً بيوم ، هو حدّ أعلى

١ ـ ضابط وكاتب عسكري الماني (من بروسيا) ـ ١٧٨٠ ـ ١٨٣١ . وقف حياته العسكرية على محاربة نابليون ، فكان أن استسلمت دولته للقائد الفرنسي،ينتقل الى دولة أخرى تريد مجابهته . وضع كتاباً بعنوان « عن الحرب » تتجاوز قيمته التاريخ الى الفلسفة . أهم نظريات الكتاب التي ما زالت قائمة حتى اليوم « ليست الحرب الا استمراراً للسياسة بوسائل أخر » . ـ المترجم ـ .

من الفعالية الثورية .

إن مهمتنا جميعاً ، النضال من أجل الفعالية ... إن البحث عن الفعالية يستقطب كل من كان له ذرة من ضمير ، ويجميع الوسائل الممكنة ، في ميدان ليس للنظرية المجردة فيه – لحسن الحظ – المركز الأول. فالامبريالية الأميركية تلعب في أميركا اللاتينية آخر أوراقها ، الورقة الحاسمة التي ستحدد نهايتها . إن ضرب الامبريالية في أميركا الجنوبية في منجزاتها وقواها الحية ، يوازي بالنسبة لها اصابة في صميم وجودها كامبريالية دولية ، فبعد أن تطرد غداً من آسيا ، لن تجد أرضاً تشهد نهايتها غير أميركا اللاتينية ، والمسؤولون الامبرياليون يعرفون ذلك .

فقد قال أحد أشقاء رئيس أميركي مات اغتيالاً ، وأحد المرشحين البارزين للرئاسة المقبلة : « إن أميركا الجنوبية أهم من فيتنام بالنسبة لنا » .

وبناء على ذلك تُطوِّر الامبراطورية الامبريالية منذ الآن وسائلها الدفاعية ، بجميع الأشكال الممكنة . لهذه الأسباب ، ولأسباب أخرى ، فإن النضال الثوري الذي بدأ يعرف نتيجته في أميركا اللاتينية سيكون ضارياً ، وسيدور – وقد بدأ يدور منذ اليوم – في ظروف بالغة القسوة ، أقسى من ظروف أية قارة أخرى . لقد دخلت آخر امبراطورية في العالم طور الاحتضار ، فمن ذا الذي لا يعنيه ذلك ؟ ومن ذا الذي لا يساعد في قتل القتلة ؟ .

إن الواقع معقد ، ولو لم يكن كذلك ، لو كان يكفي قراءة معناه في كتاب مفتوح ، لكان الدرب مرسوماً ، من غير تعرض للخطأ . وعلى صعيد الادراك ، لا حاجة لشيء شبيه بعلم التاريخ : كان بإمكان ماركس ان يتبع نصائح أمه فيقضي حياته في جمع رأس مال ، بدل ان يكتب كتاباً عن رأس المال ، ولكن القانون ينبغي ان يُبحث عنه دائماً ، ذلك القانون الذي يسمح باستقراء الحدث : هذا النجاح أو هذا الفشل أو هذا الانتحار . ولا بدّ كذلك ، ومن جديد ، ان نفسر في كل مرة أن الفعالية التاريخية لعمل ما ، هي فعلُ ما هو عقلاني في

التاريخ ، حتى ولو سخر الانسان العملي من ذلك : فالمرء لا يستطيع دائماً ان يركض وأن يترصد ظله في وقت واحد . أما أن يستغرق العمل الثوري وقتاً ليتعلم ويعرف دوافعه ، فإنّ هذا لا يحول دون تحققه ولا يشوّهه : اقرأ لينين.

إن النضال من أجل حد أعلى من الفعالية ، هو النضال – في كل ظرف – من أجل تزاوج النظرية والتطبيق ، لا ضد النظرية ، باسم التطبيق وبأي ثمن .

إن الفعالية لا تتعارض مع النظرية ، بل تتعارض مع تعارض النظرية والتطبيق . أي تتعارض مع النظرية المنفصلة عن التطبيق الثوري ، سواء كانت الثورة مسلحة أو غير مسلحة ، مع النظرية التي تتخذ شكلاً ارستقراطياً أو بيروقراطياً ، فتصب الأوامر على الثوار العمليين من فوق .

بعد كل هذه السنين من العبارات الجوفاء ، ومن الوعود الكاذبة ، ومن البرامج التي لا تتحقق ، فإن الحاجة الملحة إلى الفعالية ، باتت تضرب الأبواب بشدة ، غير أن هذه الحاجة إذا لم تتزاوج مع العقل ، فإنها لن تنجب أية ثمرة.

فلنتجنب أن يحدث بشكل نهائي خصام بين النظرية والتطبيق ، ولندعُ الى يقظة متصلة ، وليستلم المقاتلون أنفسهم زمام نظرية معركتهم ، وليحملوا هذه النظرية معهم إلى الجبال ، وإلى طليعة الصفوف إذا لزم الأمر ، وليحرصوا على عدم تركها لغيرهم .

وهكذا ، فإن الخيار غير وارد بين واقع بلا رأس ، ونظرية بلا أرجل ، والنضال من أجل حد أعلى من الفعالية ، هو نضال من أجل العقل ، الذي يوضع على محك التجربة في قلب التجارب .

ولنكرر القول . إذا كان في هذه الملاحظات ما هو مبني على أساس ، فذلك بفضل الرفاق في أميركا الجنوبية الذين رووا لنا تجاربهم ، أو الذين استطعنا أن نقرأ ملاحظاتهم ، وخاصة الرفاق في كوبا ، وفنزويلا وغواتيمالا وغيرها من البلدان .

ويعود الفضل قبل كل هؤلاء إلى قائد البلد الاشتراكي الذي ربط مصيره

واستمراره نهائياً بالحفاظ على المبادىء الثورية ، والأخلاقية الاشتراكية ، والتضامن والكرامة البروليتارية ، إلى القائد الأممي الذي اعلن على بعد مئة وعشرين كيلو متراً من الامبراطورية الاميركية : « ان حقل المعركة ، بالنسبة لثوار كوبا ، هو العالم بأسره » ، هذا المبدأ الذي يضعه حالياً موضع التطبيق الذي سنعرفه غداً ، تلميذه ونائبه الأول ، ارنستوتشي غيفارا : إلى فيديل كاسترو .

« لا يمكن للثـورة الكوبيـة ان تتكرر في اميركـا الجنوبية » .

هذه العبارة على فم مناضلـين من اميركا اللاتينية تحولت إلى شعار خطير . وإذا كانت هـــذه العبارة صحيحـة في بعض النواحي ، فقـد اصبحت مبرراً لعملية نسيان تدفع القـارة الأميركية ثمنها دماً .

فمن فرط ما ترددأن الثورة الكوبية لن يكون لها مثيل في القارة من ناحية التغيير الذي أحدثته في مـيزان القوى ، فقد وصلنا إلى حد ان ننسى حتى هذا الذي لا يمكن أن يتكرر . فحتى ابجدية الثورة الكوبية مجهولة .

لقد بدأنا بتحويل كوبا إلى خرافة مذهّبة ، خرافة الاثني عشر رجلاً الذين نزلوا في البحر وتكاثروا بسحر ساحر،في مثل لمح البصر ، ثم بيّنّا بأنه لم يعـــد للحقيقة علاقة بقصة الجن الجريئة هذه .

هذه اللعبة ، جعلتنا ننسى ما هو أساسي ، جعلتنا ننسى الحقيقة المركبة لأطوار الثورة الكوبية . كم من جولة غــير مفيدة ، كم من تجربة تعيسة ، كم من وقت ضائع لم تَـنْـتَـجْ عن هذه الثورة بالنسبة للحركات الثورية الحالية ؟

لقد حاولنا أن نتبين في دراسات سابقة ضخامة التحولات

التي احدثتها كوبا في القارة ، ولكن علينا أن نلاحظ تلك الحركة المعاكسة التي تنطلق في كل مكان تقريباً عند المقاتلين والمناضلين . انهم يعودون بكل فضول نحو التجربة الكوبية ، ليبحثوا عن كيفية انطلاق الثورة ، أكثر من البحث عن بريقها السطحي الخلاب ... وليبحثوا أيضاً عن التفاصيل العسكرية والسلبية ، وعن بُنيتها الداخلية .

ولماذا؟ لأنهم يكتشفون عبر سنين من التضحيات ومن الجهد المهدور ، حقائق تكنيكية وتكتيكية وحتى استراتيجية ، اكتشفتها الثورة الكوبية ومارستها منذ بدايتها، حتى دون ان تتنبه إلى ذلك .

لقد اكتشف هؤلاء المقاتلون والمناضلون انطريقة التصفيق الضوضائي لأسطورة الثورة الكاسترویة ، قد قضى في صفوفهم على قابلية التعلم من هذه الاسطورة ، وفهم دروسها الأساسية .

من أجل هذا ، يؤسفنا عـــدم وجود تاريخ مفصل بين أيدينا عن أطوار الثورةالكوبية ،ذلكالتاريخ الذي لا يستطيع تدوينه غيرُ صانعيه .

كذلك فإننا نأسفلأن هذا النقصقد اضطرنا إلىالاختصار في مراجعنا واستشهاداتنا ، نظراً لافتقارنا إلى دراسة منهجية عن الثورة الكوبية .

- ١ -

تحرير الحاضر من الماضي

لا يمكن لنا أبداً ان نكون معاصرين مئة بالمئة لزماننا الحاضر . فالتـاريخ يتقدم مقنعاً : يدخل إلى الفصل الجديد بقناع الفصل السابق ، فلا نعود نتعرف على شيء من المسرحية . عند كل رفع ستار ، يجب اعادة ربط الخيوط . وليس الخطأ في هذا الخطأ التاريخ ، بل خطأ نظرتنا المشحونة بالتذكارات والصور التي التقطتها في الماضي . فنحن نرى الحاضر كطبعة ثانية للماضي ، حتى ولو كان هذا الحاضر ثورة .

لقـد تمت معايشة انفجار الثورة الكوبية والتفكير فيه ، خاصة في اميركا اللاتينية ، من خلال اشكال ونماذج لها قوالب تاريخية ، ثم تكريسها ومبايعتها . لذلك فانه رغم كل الاهتزازات التي احدثها هذا الانفجار ، فقد جاءت الضربة مخففة ... والآن وقـد هدأت الجلبة ، بدأ البحث عن المعنى الحقيقي لكوبا ، عن ابعاد درسها الذي فاتنا . إن مفهوماً جديداً لحرب العصابات قد رأى النور.

لقد أعادت كوبا إلى الاذهان عـــدة اشياء بينها ان الثورة الاشتراكية هي نتيجة كفاح مسلح ضد السلطة للدولة البرجوازية . هـــذا القانون التاريخي القديم ذو الطبيعة الستراتيجية ، إذا شئنا ، كان قد مليء في البدء بمحتويات تكنيكية معروفة ، فبديء بالخلط بين حرب العصابات والعصيان ، لأن النموذج الأساسي (ثورة ١٩١٧) كان قد تكون على هذا الشكل ، ولأن لينين – ومن بعده ستالين – قد وضع هذا النموذج في نظرية بعدة صيغ لا علاقة لها أبـــداً بالأوضاع الراهنة ، والتي يجري عبثاً تحريكها دورياً ، كتلك القوانين المتعلقة بشروط البدء بالعصيان المتفق على أنه قفزة مباشرة إلى السلطة المركزية .

ولكن سرعان ما قفز هـــذا الفارق إلى الاذهان . عندئـــذ اختلطت حرب العصابات الاميركية من نفسها تقريباً ، مع حروب العصابات الآسيوية ، بما أن الأمر أيضاً يتعلق بحرب لانظامية تطوق المدن انطلاقاً من الريف . وهذا الخلط أشد خطراً من الخلط الأول .

فالكفاح الثوري المسلح يلاقي شروطاً خاصة في كل قارة ، وفي كل بلد : ولكن هذه الشروط ليست « طبيعية » ولا واضحة ، بل ان هـــذه الشروط بعيـــدة عن الوضوح لدرجة أنه لابد ، في كل مرة ، من سنوات من التضحيات لاكتشاف هذه الشروط ووعيها ..

لقـــد فكر الديمقراطيون الروس ، بالغريزة ، في اعادة تجربة « كومونة باريس »في بتروغراد، وبالغريزة أيضاً فكر الشيوعيون الصينيون في العشرينات بأن يعيدوا في كانتون تجربة اكتوبر الروسية ، كما فكر الرفاق الفيتناميون ، بعـــد سنة من إنشاء الحزب ، في اطلاق مجالس السوفيات الفلاحية في عصيان مسلح شمالي البلاد ، ولكننا ونحن ننظر إلى هذه الأمور اليوم ، نرى أنه ما كان ممكناً للعصيان على الطريقة السوفياتية أن ينجح في المستعمرات الآسيوية فيما قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن من هنا اضطر أشد المناضلين الشيوعيين اصالة ان يبدأوا في تعلم انتصارهم .

ومن المغري القول إنه كان من حسن الحظ أن فيديل كاسترو لم يقرأ كتابات ماوتسي تونغ العسكرية قبل نزوله على سواحل « اورينتي » لأن ذلك اضطره أن يبتكر ، على الطبيعة ، انطلاقاً من تجربته الخاصة ، قوانين عسكرية ملائمة للأرض . لقد اكتشف الثوار كتابات ماو [1] فقط في آخر الحرب ، وبعد أن

١ – المعروف ان فيديل كاسترو قد اخذ عن مارتي أساس وحيه السياسي ، هذا الوحي الذي تقوى وتعدل قبل المونكادا ، بأفكار ماركس ولينين . اما بالنسبة للينين ، فقد كان كاسترو مهتماً بشكل اساسي بالافكار التي تضمنها كتاب « الدولة والثورة » ، حيث تتكرس ، كمسلمة نهائية ، ضرورة تدمير جهاز الدولة العتيق ووسائل القمع عندها.ولكن منابع وحيه العسكري كانت مختلفة : « ريالنغو ١٨ » لبابلو دو لا تورينتي براو ، « مذكرات ريفين » لماكسيمو —

أصبح تكتيكهم محدداً . ولكن ثوار اميركا اللاتينية ، يعودون من جديد إلى قراءة خطب كاسترو وكتابات غيفارا بنفس العيون التي قرأوا بها كتابات ماو عن الحرب ضد اليابان ، وكتابات « غياب » وبعض نصوص لينين ، ويعتقدون انهم قد تعرفوا إلى الكتابات الأولى من خلال كتابات كاسترو وغيفارا . وهذه هي العملية البصرية الكلاسيكية التي تسمى « الطبعة الثانية » ، وهي عملية خطيرة عندما يكون للحرب الثورية في أميركا اللاتينية ظروف تطور خاصة جداً ، ومختلفة لدرجة عميقـــة بحيث لا يمكن اكتشافها إلا من خلال التجربة الخاصة ، وبهذا المعنى فان جميع الكتابات النظريـة حول الحرب الشعبيـة قد أضرت بقدر ما أفادت . لقد أطلق على هذه الكتابات اسم « قواعد الحرب ». ولكن أليس أسهل على الذي يريد تعلم لغة بلد ما ، أن يعيش في ذلك البلد حيث يضطر للتعبير عن نفسه ، من أن يدرس هذه اللغة في كتاب ؟ إن سرعة التعلم في زمن الحرب أمر حيوي ، خاصة في اللحظات الأولى ، عندما تضطر جماعـة بلا سلاح ولا خبرة تقريباً، مواجهة عدو مسلح ومجرب . لقد اتهم كاسترو يوماً الارتبـــاط الفكري المحض بالقتـــال ، بأنه مسؤول عن فشل بعض حروب العصابات .

ويبدو مفهوماً السبب الذي من أجله يميل المثقف إلى فهم الحاضر من خلال تركيبات ايديولوجية جاهزة، وإلى معايشة هذا الحاضر من خلال الكتب ، هذا إلى جانب الضعف الجسدي وعدم الانسجام مع الحياة الريفية . والمثقف نتيجة

← غوميز ، نصوص انفلنر التي تشرح ظروف بروليتاريا باريس الصعبـــة في قتال الشوارع والتي كانت تفرضها عليهم البنادق التي يستعملونها واقتحام الشوارع الكبيرة . « لمن تقرع الأجراس » لهمنغواي ، (حيث يقبع بابلو - بطل الرواية — مع شبه العصابة المسلحة التي كانت معه ، في جبال السيرا وراء الخطوط الخلفية للفاشيين ، بين مدريد وسيغوفيا) وكانت هذه الكتب اكثر من مراجع ، كانت اشياء مناسبة جداً ، لا يجد فيها كاسترو إلا ما يبحث عنه، اما كتاب « المشاكل الستراتيجية لحرب الانتصار ضد اليابان » لماوتسي ـ تونغ ، فقد وقع تحت أيدي كاسترو وغيفارا ، بعد هجوم صيف ١٩٥٨ ، وقد دهشا عندما وجدا في هذا الكتاب القواعد التي كانا قد طبقاها تحت ضغط الحاجة .

لذلك يحسن أقل من غيره الابتكار ، وتدبير أموره بما بين يديه من وسائل ، واتخاذ قرار فوري حول عملية جريئة للخروج من ورطة . وبما أنه يعتقد في نفسه المعرفة ، فانه يتعلم بسرعة أقل وبلا مرونة .

وقد شاءت سخرية التاريخ أن تُسلم الأوضاع الاجتماعية الخاصة في الكثير من بلدان اميركا اللاتينية دور القيادات الرئيسية بالذات لطلاب ومثقفين ثوريين ، اضطروا إلى اطلاق اشارة البدء لأرفع أشكال الصراع الطبقي .

هذه الأخطاء الفادحة إذن ، وهذه الارتباكات والتخبطات ، لم تمر دون دفع الثمن ، ولكنه ثمن معقول إذا قورن بالكوارث التي تكررت في سني حرب التحرير الأولى ضد اسبانيا . ان في قراءة سيرة بوليفار دروساً كثيرة عن الحرب وعن أميركا ، وهي دروس قيمة بالنسبة لحروب التحرير التي تدور اليوم في أميركا اللاتينية . أثمن هذه الدروس على الاطلاق : الصمود . خمس مرات طرد من الأرض الأميركية خلال أربع سنوات ، تعرض للهزيمة والهزء والوحدة ، وخمس مرات عاد اليها ، حتى النصر الأول في بوياكا ، وذلك بتشبث جعل الناس يحسبونه مجنوناً . كان في كل مرة يتعلم شيئاً صغيراً جديداً : الحاجة إلى الحركة وإلى الخيالة لسد العجز في عدد الجنود والأسلحة ، ضرورة شن حرب هجومية بعمليات سريعة ، لا شنّ حرب دفاعية وثابتة ، ضرورة إحراق قوارب العودة وقطع كل امكانية رجوع وهو يعلن : « القتال حتى الموت » ضد الاسبان ، وذلك يتعجل عملية خلق ما نسميه اليوم « الظروف الذاتية » لدى أنصاره ولدى المولدين ؛ الفخ الذي تشكله كاراكاس (العاصمة) طالما أن الاسبان يحتفظون بالسيادة على الريف ، ضرورة محاصرة المدن انطلاقاً من السهول وقواعد الارتكاز القوية ، أهمية بعض الأمكنة (« كورو ، مثلاً ، تمثل بالنسبة لكاراكاس ، ما تمثله كاراكاس بالنسبة لاميركا ») .

لقد ذكّرنا كاسترو مؤخراً ، بدرس الصمود نفسه ، عندما وقف أكثر من مرة على مشارف الكارثة : لامونكادا (١٩٥٣) ، النزول في غرانما (١٩٥٦) ،

وبنسبة أقل فشل الاضراب في نيسان ١٩٥٨ ، وكلها من ضروب الفشل التي كان يمكن أن تدفع أي إنسان إلى العودة إلى بيته ، بانتظار فرص أفضل . كم قاعدة ثورية فشلت في غواتيمالا قبــل تدعيم حرب زكابا وايا ابال ؟ أكثر من أربع قواعد قد أبيدت أو مزقت ... كم هزيمـــة في فنزويلا ، كم خيانة ، كم انقسام ؟ ومع ذلك فقد استمرت حرب العصابات وتجددت على أحسن ما يرام، وربما انطلقت هذه الحرب الآن للمرة النهائية الحاسمة هناك .

إن الهزائم التي منيت بها الحركة الثورية في أميركا الجنوبية لا تذكر ، اذا ما قيست بالفترة الزمنية القصيرة ، تمهيداً للمعارك الكبرى المقبلة : إذا أخـذنا بعين الاعتبار ان هـــذه السنوات الماضية تمثل مرحلة تحديد نقطة الانطلاق هذه ومرحلة التصحيح التي مرت بها كل الثورات الناشئة . أكثر من ذلك ، قد يدهشنا فعلا ان بعض حركات حرب العصابات قد صمدت لكل هذه التجارب والأخطاء القابلة للتجنب احياناً ، والحتمية أحياناً أخرى. وفي رأي كاسترو ، فان هذا هو المدهش ، وهو الذي يثبت كم كانت هـــذه الحركة مدفوعة بقوة التاريخ .

وفي الواقع ، يجب الحديث هنا عن ركود له ما يفسره ، أكثر من الحديث عن الفشل ، الحديث عن نقص في التطور السريـع : مما أدى فيما أدى اليه ، إلى أخطاء فادحة لم يكن من الممكن تجنبها في مرحلة استكشاف مفهوم وأسلوب ثوريين جديدين ، رغم تقاربهما الخادع مع تجارب عالمية أخرى .

كل الخطوات الثورية الحاسمة بدأت – وكان يجب أن تبـدأ – من منطلق خاطىء ، للأسباب التي أشرنا إليها : لأن خطوط الانطلاق الموجودة هي التي تركها لنا أسلافنا ، والتي ننطلق منها ، حتى دون أن نعي ذلك . بل كل هـــذه الخطوط الخاطئة ، تبقى خطوط الانطلاق في أمـيركا اللاتينية أقلهـا خطراً . ففي كل مرة كان يكفي تصحيح الخطوة دون تغيير وجهـــة السير ، وتعديل التكنيك دون رفض الستراتيجية الصحيحة والمبادىء. انها لحظة التمييز العميق

بين المعسكرين .

في كل بلد جرب الثورة ، دفعوا إلى الصراع الثورات من جهة ، والاصلاحيين وخونة المستقبل من جهة أخرى . بعد ١٩٠٥ ، أخذت روح المسالمة والافلاس تتصاعد بقوة في صفوف الحزب الديمقراطي – الاشتراكي الروسي . فارتفع صوت لينين من منفاه في جنيف (مع أصوات غيره) لا ليواجه العصيان العمالي بديمقراطية «الدوما» التمثيلية المزيفة التي أنشأها القيصر ، ولكن ليواجه العصيان العمالي غير المنظم اطلاقاً بعصيان عمالي جيد التنظيم . في الصين ، بعد هزائم ١٩٢٧ ، كان من الواجب كما فعل ماو وسواه ، لا أن يواجه العصيان بالمساومة ، ولكن أن يواجه الانكفاء الى الريف والمسيرة الكبرى – أسلوب الكفاح الخاص بالظروف الصينية – بعملية خطف سريع للمدن الكبيرة من يد الكومينتانغ العدو . وبعد كارثة المونكادا ، لم يفكر كاسترو ورفاقه الذين ظلوا على قيد الحياة في التخلي عن مبدأ الكفاح المسلح ضد باتيستا ، ولكنهم اعطوه محتوى آخر أكثر صواباً .

فالفشل ، بالنسبة للثوري ، هو عامل مساعد : والفشل – نظرياً – أكثر اغناء من النجاح ، فهو يجمع التجربة إلى المعرفة .

لقد نجحت بضع سنوات من التجارب العسكرية المتنوعة في أميركا اللاتينية في ابراز تميز الظروف الموضوعية لتلك القارة ، أكثر مما نجحت في ذلك عشرات السنين من النظريات السياسية المنسوخة . لقد حددت كوبا – تاريخياً – نقطة انطلاق الثورة المسلحة في أميركا اللاتينية . إن هذا الانطلاق الذي تحقق بشكل لا رجوع فيه ، من خط سليم ، هو الاساس .

« في الواقع هل ولدت حركة الكفاح المسلح الاميركية ؟ هل هذه بشائرها في فنزويلا ، وغواتيمالا ، وكولومبيا ، والبيرو والاكوادور ؟ أم انها ليست مناوشات ظواهر قلق لم يثمر بعد ؟ ان نتيجة ما تشهده أميركا اللاتينية اليوم من حركات كفاح ليست هامة ، وليس هاماً أن تصاب هذه الحركة أو تلك

بهزيمة .

فالشيء النهائي هو التصميم على الكفاح الذي ينضج يوماً بعد يوم ، كذلك ينضج الأحساس بضرورة التغيير الثوري، « وتأكيد امكانه »[1] . إن أي خطّ سياسي (في اميركا اللاتينية اليوم) لا يستطيع أن يعبر عن نفسه – على صعيد نتائجه – بخط عسكري متماسك ودقيق ، لا يمكن اعتباره خطاً ثورياً .

كل خط يدعي الثورية يجب أن يتمكن من اعطاء الجواب العملي على هذا السؤال : كيف يجري قلب سلطة الدولة الرأسمالية ؟ أي ، كيف يجري تحطيم هيكلها ، الجيش ، الذي تقويه يوماً بعد يوم بعثات أميركا الشمالية العسكرية ؟

إنّ الثورة الكوبية تقدم للبلدان الأميركية الشقيقة جواباً يبقى موضع دراسة في تفاصيله التاريخية: بواسطة بناء قوة استراتيجية متحركة كنواة للجيش الشعبي والدولة الاشتراكية المقبلة ، وذلك بتفاوت في السرعة ، ومن خلال حرب عصابات تشن في المناطق الريفية الأكثر ملاءمة .

إنّ كل خط عسكري يرتكز إلى خط سياسي يعبر عنه . وفي داخل عملية الكفاح المسلح نفسها ، جُرّبت نظريات عسكرية أخرى في السنوات الأخيرة أعطت معنى كلي الاختلاف لحرب العصابات . وكان هناك أكثر من التفسيرات السيئة للجواب الكوبي ، كانت هناك نماذج سياسية مستوردة ومتخفية بنظريات عسكرية ، وقد نُفذت ضمن ظروف تاريخية مختلفة جداً عن الظروف التي ضربت فيها تلك النماذج جذورها .

مثلاً : مفاهيم الدفاع الذاتي ، والدعاية المسلحة ، وقاعدة حرب العصابات ، وأخيراً اخضاع حرب العصابات للحزب كقطعة جديدة تضاف إلى التنظيم الحزبي الذي كان قائماً أيام السلم .

---

١ ـ شي غيفارا « حرب العصابات ، اسلوباً » (طبع ضمن « مذكرات الحرب الثورية » ـ فرنسوا ماسبيرو ـ باريس) .

وهكذا أعطت هذه المفاهيم،التي أخذت شكل الاتجاه في كثير من الامكنة، أعطت الكفاح الشعبي المسلح محتوى مشوهاً ، لا بد من الحكم عليه بنتائجه . ويجب البحث عن المفاهيم السياسية التي يستلهمونها ، وكيف أن بعض هذه المفاهيم تنتمي إلى تجارب ثورية غريبة عن أميركا اللاتينية وظروفها الحالية .

هذه التجارب ستسمح سلبياً باكتشاف الدروس الأساسية التي يمكن استخلاصها من الثورة الكوبية في مرحلة العصيان ، ومن التجارب الأخرى الحالية للكفاح المسلح .

الدفاع الذاتي المسلح[1]

لقد صفّت الوقائع الدفاعَ الذاتي كأسلوب وكواقع في يومنا هذا .

فلقد كانت كولومبيا ، بمناطق الدفاع الذاتي الفلاحية ، وبوليفيا ، بمناطق الدفاع الذاتي العمالية ، تشكّلان البلدين اللذين اتخذت هذه النظرية فيهما شكل الاتجاه . أما اليوم ، فقد صفى الجيش في كل من البلدين ، وفي فترتين متقاربتين هاتين القاعدتين الانقلابيتين . في جنوب كولومبيا ، احتل الجيش مركتاليا ، في ايار ١٩٦٤ ، أما مناجم بوليفيا فقد اجتيحت في ايار وايلول ١٩٦٥ ، بعد معارك مأساوية . وهذه الهزيمة المزدوجة تحدد نهاية عصر ، وتؤكد موت أيديولوجية معينة . ويجب على الحركة الثورية أن تدفن هذه التجربة نهائياً :

نهاية حقبة : حقبة التوازن النسبي بين الطبقات. وبداية حقبة أخرى:حقبة الحرب الطبقية الشاملة ، التي تستبعد حلول المساومات وتقاسم السلطة .

في هذه الحقبة التي وضحت فيها معالم التجمعات الطبقية بين مستغَل (بفتح الغين) ومستغِل (بكسر الغين) ، تعتبر امكانية وجود قطعة أرض في بلد يخضع للاستعمار الجديد ، لا يستطيع فيها الجيش وآلة الدولة « ممارسة مهماتها العادية » ، تعتبر أكثر مما تستطيع الشرعية الامبريالية الجديدة تحمله ،

---

١ ـ نظرية الدفاع الذاتي تتلخص في استيلاء الثوار على جزء من البلد وعزل سلطة الدولة عنه نهائياً ، والتمركز فيه (المترجم) .

أضف إلى ذلك أن وضعاً كهذا لا يشكل خطراً حقيقياً على تلك الدولة .

إن هزيمة أسلوب الدفاع الذاتي الجماهيري على الصعيد العسكري ، توازي على الصعيد السياسي هزيمة الأسلوب الاصلاحي .

ففي الاطار الجديد للكفاح حتى الموت ، لا مكان للحلول المتذبذبة ، ولا لمحاولات اقامة التوازن بين القلة الحاكمة والقوى الشعبية ، ولا لمعاهدات عدم الاعتداء الضمنية . إن دكتاتورية « القلة الحاكمة » تفرض علينا حلاً من اثنين : إما أن نبدأ بهدمها كوحدة كاملة ،أو أن نتقبلها كوحدة كاملة لا حلول وسطى ..

ومهما يكن من أمر ، فإن نظرية الدفاع الذاتي قد فقدت اليوم رصيدها : لقد جعل منها انصارها السابقون بداية أرفع أشكال النضال .

ولكن حذار ! إنها تحاول أن تبعث من جديد بأشكال أكثر اغراء، وحتماً دون ان تبوح باسمها .

انها تفوق للانبعاث من جديد ، لأن جذورها تضرب في ايديولوجية حية مثل « بروثيوس »[1] . وفي الوقت الذي كانت فيه نظرية الدفاع الذاتي تشرف على الغرق ، جاءت التروتسكية تمد لها يد الانقاذ وتحاول بعثها من جديد . هذا البعث هو الذي يشغلنا هنا .

في الخلفية الايديولوجية لنظرية الدفاع الذاتي توجد ايديولوجيات وصفها لينين مراراً بأنها من طبيعة الطبقة العاملة ، وأنها ترفع الرأس كلما تراجع الماركسيون والشيوعيون :«الكفاح الاقتصادي . والكفاح العفوي ». والكفاح الاقتصادي هو الاكتفاء بالدفاع عن مصالح العمال المهنية بواسطة النقابات ضد تدخل أرباب العمل .

---

١ ـ بروثيوس : إله بحري من آلهة الاغريق ، ورث عن والده نبتون موهبة النبوة ، ولكنه كثيراً ما كان يرفض الكلام ، وحتى يتهرب من الذين يلاحقونه بالأسئلة ، كان يتخفى تحت الشكل الذي يختاره . (حاشية المترجم) .

وبما أن مهاجمة السلطة السياسية لارباب العمل (أي الدولة البرجوازية) هو امر مستبعد في هذه الحالة ، فإن هذا الدفاع يتقبل ويبتلع في الواقع الشيء الذي يدعي محاربته .

وليس من قبيل الصدفة أن بوليفيا التي سادت فيها لأطول وقت تقاليد « النقابية – الفوضوية » بين العمال ، قد شهدت أن كفاح هؤلاء قد اتخذ منذ ثورة ١٩٥٢ ، شكل الميليشيا العمالية للدفاع الذاتي .

وليس تعبير الدفاع الذاتي هو الاكثر ملاءمة : فهو يوحي بموقف سلبي ، متخوف ومنطو ، مع أن الدفاع الذاتي ليس دائماً على هذه الصورة ، بل إنه قلما يكون على هذه الصورة .

من ذا يشكك في النضال البطولي للبروليتاريا الاوروبية قبل « أن تستورد الطبقات العمالية النظرية الماركسية » كما شرحها لينين ؟

من ذا يشكك في شجاعة المزارعين الكولومبيين ، ومهارتهم القتالية ، وهم الذين كانوا الضحايا الرئيسيين لتلك الحرب الاهلية الفظيعة التي دامت عشر سنوات ، والتي فقدوا فيها مئة ألف قتيل ؟

من ينكر أن تجرد وتضامن عمال باريس في ايام حزيران وايام « كومونة باريس » ، يعودان اليوم للتجسد في عمال المناجم والمصانع الاربعين الفاً في لاباز ، اولئك الذين كانوا ابطال أول ثورة عمالية في اميركا عام ١٩٥٢ ؟

إن نظرية الدفاع الذاتي ليست وليدة قلة الجرأة في نفوس محركيها ، بل انها على العكس من ذلك ، وليدة مبالغة في التضحيات الرائعة ، وتبذير في البطولة ، لا يؤديان إلى شيء ، بل يؤديان إلى كل شيء ما عدا الاستيلاء على السلطة السياسية .

نظرية الدفاع الذاتي أقرب إذن إلى « الكفاح المسلح العفوي » ، والاصل الايديولوجي نفسه لهذه النظرية يشير إلى تاريخ الأخذ بها : لقد ولدت قبل

ماركس .. فالعصيان المسلح الذي قام به الهنود الحمر في بيرو – قبل كارل ماركس – بقيادة توباك امارو في نهاية القرن الثامن عشر ، كان يمكن أن يسمى «دفاعاً ذاتياً» .

فقـد كان الهنود الحمر يثورون بعشرات الآلاف لتعقب المولدين الاسبان ، وقتلهم حيثما وجدوا واستعادة الأراضي التي اغتصبوها . وسرعان ما تبعثرت الحركة على شكل انتصارات محلية . وكان الهنود الحمر كلما اقتربوا من الساحل يكتفون باحتلال الأرض ، والبقاء في الجبال : لا جيش نظامي أو شبه نظامي، ولا قوات صاعقة مستقلة . كان هؤلاء الثوار ، وهم أسياد البلاد يعرضون عن الزحف على ليما ، رأس المملكة الرديفة . وبذلك كان لدى ليما الوقت الكافي لاستنفار جيش ما لبث أن استعاد الأراضي دون صعوبة تذكر ، في ظروف يمكن تصورها .

كذلك يمكن اطلاق اسم « الدفاع الذاتي » على عصيان « الكومونيروس » في كولومبيا الذي قادته « مانويلا بلتران » الشهيرة تقريباً في الحقبة التاريخية نفسها .

ويمكننا القول باختصار : لقـــد وقعت حوادث عصيان عمالية قبل مجيء الاشتراكية العلمية ، كما أن حروباً فلاحية قد سبقت حروب العصابات الثورية وليس لأي منها أية علاقة بالأخرى ، فعلاقة حرب العصابات بالعصيان الفلاحي كعلاقة ماركس بسوريل [١]

وكما أن « الكفاح الاقتصادي » ينفي دور الحزب الطليعي ، فإن « الدفاع الذاتي » ينفي دور القطاع العسكري المنفصل عضوياً عن السكان المدنيين . وكما أن الأسلوب الاصلاحي يسعى لتكوين حزب جماهير ، دون اختيار مناضلين ،

---

١ ـ الارجح هنا ان المؤلف يقصد الإشارة الى جورج سوريل ، وهو عالم اجتماعي فرنسي ولد في شرپور عام ١٨٥٧ وتوفي عـــام ١٩٢٢ ، وهو صاحب كتاب « تأملات في العنف » (١٩٠٢) وله مؤلفات أخرى فلسفية واقتصادية واخلاقية . (المترجم)

أو مؤسسات صارمة التنظيم ، فإن « الدفاع الذاتي » يهدف إلى اشتراك كل الناس في الكفاح المسلح ، أي إلى تكوين عصابات جماهيرية ، بالنساء والأطفال والحيوانات الداجنة التي تقطن مستعمرة العصابات المقاتلة .

وكما أن « الكفاح العفوي » لا يهدف لاستيلاء الطبقات المستغَلة (بفتح الغين) على السلطة السياسية ، ولا يتنظم بالتالي بشكل حزب سياسي ، كذلك فإن « الدفاع الذاتي » لا يهدف إلى السيطرة العسكرية للطبقة المستغَلة (بفتح الغين)، فلا يهدف بالتالي الى الانتظام في شكل جيش شعبي نظامي ، له حركته ومبادرته الخاصتان ، ويمكن القول إن هناك « دفاعاً ذاتياً» في كل مكان ليست فيه القوة الستراتيجية المتحركة هدفاً أعلى للكفاح المسلح ، وفي كل مكان ليس فيه الاستيلاء على السلطة السياسية هدفاً واعياً ومرئياً للكفاح المسلح ...

« والدفاع الذاتي » لا يستبعد العصيان بالضرورة، ولكن هذاالعصيان يظل محلياً ، ولا يسعى إلى مد نشاطه لسائر انحاء البلد ، « الدفاع الذاتي » جزئي ، بينما حرب العصابات تسعى إلى الحرب الشاملة ، وذلك بأنها تمزج في اطارها العام جميع اشكال الكفاح القائمة في جميع انحاء البلد .

لذلك ، نرى أن مجتمع « الدفاع الذاتي » ، بحكم طابعه المحلي ، لا يملك زمام المبادرة، ولا يملك اختيار مكان المعركة ، ولا يمكن أن يستفيد من عوامل الحركة ، والمفاجأة ولا من امكانية المناورة .

وتبقى الرقعة الجغرافية التي يقوم عليها « الدفاع الذاتي » ، وهي منعزلة بطبيعة الحال ، عرضة للتطويق وللهجوم المدبر بدقة متناهية من قبل العدو، وفي الزمان الذي يختاره .

إن المنطقة أو المدينة التي لا يحميها إلا سكانها ، لا يمكنها إلا أن تنتظر بسلبية هجوم العدو ، وبذلك تربط مصيرها بإرادته ، ولا يمكنها ان تجبر العدو « على تصرف يؤدي إلى وقف تدهور الموقف » (شي غيفارا) ، ولا تجبر الديمقراطية البرلمانية أو نظام القلة الحاكمة ، أن يفضحا محتواهما الطبقي .

إن « الدفاع الذاتي » يسمح للطبقة المسيطرة ألا تبدو بمظهر دكتاتورية العنف ، ويحافظ على التوازن بين دكتاتورية القلة الحاكمة و « الضغط الشعبي » ،بدل أن يكشف عنف هذه الدكتاتورية (شي غيفارا).

ويــدخل في هــذه الحالة داخل اللعبة ، مكملاً لعبة الطبقة المسيطرة ، ومساعداً في الالتباسات في داخل الطبقات المحكومة ، فيجعل الحلول الوسطى تبدو وكأنها انتصارات .

في فيتنام خاصة ، وكذلــك في الصين ، لعب « الدفاع الذاتي » الفلاحي، الذي اتخــذ شكل ميليشيا مسلحة ، دوراً هاماً كحجر زاوية في صرح قوات التحرير المسلحة .

ولكن «الدفاع الذاتي »كان يمتــد على قطاعات عسكرية محرّزة او نصف محررة ، ولم تكن قط مناطق مستقلة . وهذه القطاعات الجغرافية لم تكن تنمو كجزء من حرب شاملة تخاض على جبهات أخرى ، بواسطة القوات النظامية والمتحركة للفييت – منه .

وكان هذا الوضع يسمح بإشراك مجموع السكان في القتال ، ولكن دون إلغاء العبء الأساسي عليهم : وذلك بتشتيت القوات الفرنسية الغازية ، مما كان يؤدي إلى تخفيف مهمات القوات النظامية ونصف النظامية ، والسماح لها بتركيز الحد الاقصى من القوة على جبهة يتم اختيارها وفقاً لمخططات استراتيجية تصفها قيادة الاركان . ونظام الدفاع الذاتي في اميركا الجنوبية – أكثر منه في فيتنام– لا يستطيع الاكتفاء بــذاته ، إلا إذا كان لا يهمه أن يستشهد جميع السكان .

كتب غيفارا في مقدمة كتاب الجنرال جياب [1] « حرب الشعب سلاحها الشعب » :

« ليس الدفاع الذاتي سوى جزء صغير من كلّ ، وان كان جزءاً له ميزاته

---

١ ـ قائد جيش فيتنام الشمالية (المترجم) .

الخاصة . » ويضيف غيفارا :

« لا يمكن أن نتصور بحال من الأحوال منطقة الدفاع الذاتي وحدة قائمة بذاتها ، وكأنها منطقة تحاول فيها القوات الشعبية أن تدافع عن نفسها ضد هجوم العدو ، بينما تظل بقية المناطق الخارجة عن منطقة الدفاع الذاتي على هامش الاضطرابات . في هذه الحالة ، سيكون من السهل تحديد هذه المنطقة ثم تطويقها وقهرها ، إلا إذا انتقلت فوراً إلى اولى مراحل الحرب الشعبية ، أي إلى حرب العصابات » .

وبعد أن كتب شي غيفارا هذا النص بوقت قصير سقطت منطقة « الدفاع الذاتي الريفي » في ماكيتاليا ، مع « الجمهورية المستقلة » الأخرى في يد العدو وتمت تصفيتها ، واضطرت « مارولندا » إلى العودة لحرب العصابات المتحركة .

إن أية منطقة دفاع ذاتي ، إذا لم تكن قد أنشئت نتيجة هزيمة ولو جزئية لقوات العدو ، أو محمية بجهة من العصابات التي تقاتل قتالاً مستمراً ، فإنها أشبه بعملاق له رجلان من فخار : يؤدي انهياره إلى اصابة معنويات القوات الشعبية بضربة خطيرة غير منتظرة، مع أن الأمر غير المنتظر هو استمرار هذا النموذج ، الذي كثيراً ما يكون محاطاً بهالة اسطورية تبعث على الارتياح والاطمئنان وتخفي الحقيقة . وبما أن هذه المناطق استمرت في العيش سنوات عديدة ، فإن الناس تنسى أنها نتيجة مساومة غير معلنة ، وليس نتيجة نصر حقيقي ، وهكذا تصبح مناطق لا تؤخذ بالقوة . فينام الحذر، ويغيب الحرص على وضع المليشيا على المحك ، والسهر على تدريبها ، وتسليحها ، فيتراخى الانضباط .

وتصبح هذه المناطق المحررة المزعومة ، بالنسبة للثوريين ، مجرد مواد للدعاية السياسية — تدعو إلى القعود عن العمل أكثر مما تحث على مزيد من العمل .

أما الرجعيون ، فيتخذون من هذه المناطق حجة جاهزة لتنصيب أنفسهم حماة للوحــدة الوطنية ... ولوحدة أراضي البلاد التي تهددها هذه الخلايا « السرطانية » ، ولمهاجمة « الشيوعيين الانفصاليين » .وتعمل البرجوازية شيئاً فشيئاً على تضخيم الخطر الحقيقي وخوفها منه ، لاغراض دعائية ، تضخيماً قــد يكون الثوريون أول ضحاياه ، فينتهي بهم الأمر إلى التصديق بأن حرب العصابات هي فعلاً سرطان ، وأن الزمن وحده يحل مشاكل الصابرين .

كما أن عملية تنفيس هــذه المناطق ، عندما ينتقل الجيش إلى الهجوم بعد تحضيرات جد مرتاحة ، تؤدي مفعولا أكبر : نصر كبير للبورجوازية ، وهزيمة كبيرة للثورة « الكاستروية الشيوعية » . فما هي الحقيقة ؟

إذا أخذنا تاريخ كوبا وبعض الدول الأخرى في اميركا اللاتينية كمقياس ، فإننا نجد أن حرب العصابات ، تمر على ما يبدو ، بالمراحل التالية : مرحلة مــد الجذور أولا ، ثم مرحلة النمو ، التي تتميز بهجمات من العــدو ، تستعمل فيها جميع الوسائل الممكنة (تطويق تطبيقي وتكنيكي ، عمليات تمشيط ، نقل قوات بالطائرات ، قصف بالقنابل الخ ...) وأخيراً مرحلة الهجوم الثوري ، سياسياً وعسكرياً .

في المرحلة الأولى ، وهي بالطبع اصعب المراحل وأشدها تعرضاً للتغييرات من كل نوع ، تتعرض المجموعة الثورية التأسيسية لحياة «يدوية » كاملة ، في البــداية ، ثم تأتي فترة اطول يكتسب فيها المناضلون شيئاً من الخشونة ومن الطبائع القتالية ، تتم في اثنائها اقامة بريد دائم . وذلك تمهيداً للوصول إلى الفترة النهائية من مرحلة «مد الجذور» الحقيقية بإيجادمنطقة عمليات يؤمن فيها الحد الادنى من امكانية التحرك .

هــذا التطور يشهد نمواً كبيراً في عــدد المناضلين ، ولكنهم سرعان ما يتوزعون على سائر الاهتمامات النضالية الفرعية : الصناعات الصغيرة، ملاكات الضباط ؛ وبإختصار ، فإن نطاق المهام التكتيكية يتسع (تسليح ، نقليات ،

انتاج ، متفجرات ، مدارس للمنتسبين الجدد ، الخ) وذلك للتجارب مع نمو مقدرة العصابات المقاتلة وقدرتها الهجومية .

منطقة الدفاع الذاتي «ماكيتاليا» كانت تعطي الانطباع بأنها قد استكملت جميع شروط هذه المرحلة الأولى (خلق منطقة عملياً) وأصبح بإمكانها الانتقال الى المرحلة الثانية ، مرحلة التحول إلى هدف لهجمات العدو ، وأخـــذ زمام المبادرة التكتيكية ، اقتطاع وحدات مقاتلة من القاعدة الأم لفتح جبهات اخرى لحرب العصابات . ولكن شيئاً من هذا لم يحصل ، لأن مقاطعات الدفاع الذاتي الريفي لم تتبنّ مبدأ الكفاح المسلح الثوري بل تبنت مبدأ الحرب الاهلية بين محافظين وليبراليين ، دون نهاية محدّدة ، ودون تأثير على الآلة العسكرية للعدو ، مما أدى بالحركة الثورية ، ابتداء بماركيتاليا ، إلى الانكفاء إلى المرحلة الأولى ، إلى المرحلة اليدوية ، تثقل عليها عائلات المناضلين ، ومسؤوليات تهجير السكان وحراسة قطعان الحيوانات الداجنة والممتلكات الزراعية الخ ..

وفي بوليفيا : وضع مماثل ، في الاوساط العمالية ، طابع المأساة ، فقـــد توزع ستة وعشرون ألفاً من عمال مصانع القصدير المؤممة ، على السهل العالي ، مع أن القلعة التعدينية تتركز في بقعة أرض طولها خمسة عشر كيلو متراً وعرضها عشرة كيلو مترات ، حيث توجد مناجم سيغلو فينتي هوانوني وكاتافي . في عام ١٩٥٢ دمّر العمال جيش الطبقة الحاكمة ، ونصبوا مكانها حكومة ليبرالية ، وتلقوا سلاحاً واستولوا على شيء من السلطة ، فتبرجزت الثورة ، وبدأ العمال شيئاً فشيئاً سلسلة من التنازلات : عندهم اسلحة ، ميليشيا ، اجهزة راديو ، نقابة قوية ؛ كميات من الديناميت والبارود المفجر ، ادوات العمل اليومي ، بالإضافة إلى التحكم في مورد البلد الرئيسي . « معدن الشيطان » : القصدير فانطووا على أنفسهم ، وهم نصف عجزة ، ونصف مستهترين ، وتركوا البرجوازية تعاود بناء جيشها ، دون أن يزعجوا سلطتها إلا ببعض الاضرابات والمناوشات والمعارك . باختصار ، لقد تمكنوا من الاستمرار ، ولكن النهاية

الطبيعية كانت أن الجيش أكل البرجوازية الوطنية التي اوقفته على قدميه ، بانقلاب عسكري . ثم جاء الأمر من الولايات المتحدة بتحطيم الحركة العمالية ؛ فقامت الطغمة العسكرية بتحد هادىء للعمال ، حين اعتقلت زعيمهم النقابي القديم ليشان — وعلى أثر ذلك أقر العمال اقتراح التروتسكيين في اعلان الإضراب العام غير المحدود في ايار ١٩٦٥ ، وقامت خيرة عناصر الجيش « الرينجرز » (وهي مجموعة من الفرق الخاصة للمظليين والمشاة التقليديين) بمحاصرة المناجم ، وخاضت معركة مفتوحة مع ميليشيا عمال المناجم ، كما قام الطيران بقصف منجم لاباز بالقنابل ، ورش منجم آخر .

والنتيجة : قتلى بالمئات في معسكر العمال ، وبالعشرات في معسكر الجنود . واحتل الجيش المناجم ، وراح يقتحم أبواب المنازل ويحصد العائلات بالرشاشات دون تمييز . وبدأت عمليات اعتقال واغتيال القادة النقابيين والمناضلين العماليين البارزين ، ووصل الجيش إلى هدفه .

وعاد كل شيء إلى النظام ، حتى الحقد ودموع الغيظ ... بانتظار الجولة التالية .

يستطيع العمال المنظمون في نقابات ثورية أن يلعبوا دوراً حاسماً في اطار عصيان عام تشترك فيه جميع المناجم مع العاصمة لاباز وبعض المناطق الريفية . إذا جاء هذا العصيان يتوّج حرباً مهلكة تخاض في مكان آخر وبوسائل أخرى.

ولكن شيئاً كان يبدو مستحيلاً : وهو أن ينتصر عصيان مسلح في خلال أيام على جيش حديث مدرب وموسع بواسطة بعثة حربية من أميركا الشمالية كاملة التجهيز ، جيش فيه وحدات صاعقة قليلة العدد ، ولكنها شرسة وعدوانية . باختصار ، لقد تغير الزمن ، ومن العسير تكرار ١٩٥٢ في سنة ١٩٦٦ .

ما هي امكانيات الدفاع والهجوم المنتصر التي يملكها عمال المناجم اليوم ؟ الميليشيا العمالية تتكون من عمال في المناجم المؤممة ، بحيث أن أي اضراب

سيحرك الحكومة لقطع المواصلات ، أي قطع المواد الغذائية . ذلك أن سكان المناجم يتموّنون من لاباز بواسطة القطارات والشاحنات . ذلك ان الأراضي في مناطق التعدين ، على ارتفاع أربعة آلاف متر ، لا ينبت فيها شيء يذكر . صحيح ان بعض تجمعات الهنود يزرعون البطاطا والكينا ، ويجففون نوعاً من اللحوم ، ولكن اقتصاد الكفاف هذا لا يسمن ولا يغني من جوع . لذلك فان الرفاق بحاجة الى نصر سريع ، لانهم لا يملكون المؤن لاكثر من عشرة ايام ، فاذا مرت الأيام العشرة ، يصبحون بلا حليب للأطفال وبلا أدوية في المستشفيات وبلا لحم في المخازن . وبالمقابل ، يستطيع العمال ان يمنعوا شحن المعادن ، ويوقفوا القطارات على مخارج المناجم ، ولكن المعركة غير متكافئة ، وهم الخاسرون منذ البداية . فللحكومة أرصدتها في المصارف ، وتحت تصرفها قروض أميركا الشمالية ، والمخازن التجارية ، والمنفذ البحري عبر موانىء التشيلي ، بحيث انها تستطيع الصمود مدة طويلة من دون المعادن . أما عامل المنجم الذي يحمل السلاح ، فانه يهدد ، بمرور كل يوم ، مؤونة عائلته ، فمصيره من مصيرها . انه يرى اطفاله يهلكون أمام عينيه ، ورفاقه ينهشهم المرض ، يلهثون ، ويتضورون لعدم وجود الأدوية (احياناً تفتقد حتى الأدوية البسيطة) ولو كان العمال وحدهم ، بلا مسؤولية ، وفي وحدات محدودة العدد ، لكانت تكفيهم غارات على مخازن المدن القريبة لتأمين مؤونة عدة اسابيع ولكنهم في حالتهم الراهنة ، سيخضعون للتجويع هم وعائلاتهم .

والمناجم هي عبارة عن مدن . منازل واسعة من غير زجاج ، خاصة بعمال المناجم ، مبنية على مسافات قريبة من الآبار ، حيث تعيش العائلات : سهل عال وجليدي ، لا شجرة ، لا عرق أخضر ، اخدود من الارض الحمراء على امتداد البصر ، ورؤيا حادة الاشعاع . البيوت تتابع في صفوف مستقيمة ، هدفاً سهلاً ومميزاً لقاذفات القنابل . والضرب بالقنابل لا يؤثر على الانتاج ، انه يقضي على السكان فقط ، فالمناجم تقبع تحت الارض ، والمنشآت الصناعية فوق الأرض ضئيلة العدد ، أما الافران التي يُصهر المعدن فيها ، فهي في

انكلترا وأميركا .

نقطة ضعف أخرى : المسافة الطويلة التي تفصل المنجم عن الآخر والتي تبلغ عشرات الكيلو مترات بحيث يسهل على الجيش عزل المناجم عن بعضها ، وتصفيتها واحداً بعد الآخر ، بينما يصعب على العمال اعادة التجمع لتنظيم المقاومة. أضف إلى كل ذلك انه ليس هناك خطة ، ولا قيادة عسكرية مركزية ، ولا تحضيرات عسكرية ووسائل نقل ؛ بحيث انه لم يبق تحت تصرف الميليشيا غير التنقل الليلي . وبالكاد يمكن لبعض الفدائيين ، أن يتحركوا في النهار ، نحو أهداف محدودة ، حتى من خلف خطوط العدو ، باتجاه المدن . ولكن هذا النوع من العمل يخرجنا عن إطار « الدفاع الذاتي » وعن إطار الظروف الواقعية لحياة العمال الذين ليس لديهم كل يوم غير الوقت اللازمليناموا ويأكلوا الطعام الرديء الذي يكاد لا يكفيهم ليتابعوا عملهم ، من اجل راتب شهري يتراوح معدله بين ثلاثين وأربعين دولاراً في الشهر .

من هنا قلة الصبر ، بل من هنا اليأس : يجب عمل شيء لتحطيم الحصار ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ عملية انتحار ، دون تحضير .. ان أصبع الديناميت لا يساوي شيئاً عندما يقذف باليد ، في مواجهة رشاش ٣٠ . والبنادق قديمة ، وغير اوتوماتيكية من أيام حرب شاكو . والذخيرة قليلة ، وثمنها مرتفع ، وكيف يمكن مواجهة الطيران ؟ حين يتمكن العمال من تدمير الجيش ، عليهم تكوين جيش آخر ، الأمر الذي يفرض تدريباً وتنظيماً وسلاحاً ، فالأخوة والشجاعة لا يصنعان جيشاً ، هذا ما تعلمناه من اسبانيا ، ومن « كومونة » باريس .

فعندما يكون عمال المناجم مسمرين في أماكن عملهم ، جنباً الى جنب مع النساء المتشاجرات ، والأطفال معرضين هم وأقرباؤهم لكل أنواع القمع ، دون قدرة على المناورة ، وعلى الانفلات من قاعدتهم في تشكيلات منظمة ، دون تنظيم عسكري ، دون هدف ودون وسائل ، باختصار عندما يكون

العمال دون امكانية مادية للتحول إلى قوة متحركة ، فانهم ببساطة محكوم عليهم بالذبح ، وبيد الجيش ان يحدد يوم وساعة المذبحة ، من أين يبدأون ، أي طريق تسلك تشكيلات الجنود ، وأين تهبط الفرق الخاصة .

إن زمام المبادرة في التحضيرات السرية للمعركة يظل بيد الجيش ، أما عمال المناجم فليس في يدهم إلا الاستعراض في وضح النهار ، وبالوسائل المحدودة ، فاذا هاجموا ، صُفيت قاعدتهم المعروفة المكان أصلاً ، وهجومهم المضاد لا يمكن أن يذهب بعيداً ، فطبيعة الأرض تجعل قاعدتهم تشدهم اليها وتستدعيهم كما لو كانوا مشدودين اليها بحبل من المطاط .

إن العملية الحاسمة التي يمكنها في مثل هذه الحالة أن تحدد الخط الفاصل بين الشعارات الثورية والنظرية الثورية ، هي : هل لدى هذه القوات الشعبية قطاع مسلح ، منفصل عضوياً عن السكان المدنيين ، معفى من مسؤوليات وواجبات الدفاع المدني ، ويكون هدفه الاستيلاء على السلطة السياسية ؟

نحن نعلم أن التروتسكية تكذب المنطق العام ، بمعنى أن انقسامها هو سر قوتها ، فهي في كل مكان وليست في أي مكان محدد ، تعلن عن نفسها باختفائها ، وهي لا تكون أبداً تروتسكية ، كما يفترض فيها أن تكون .

إن الايديولوجية التروتسكية تنبع الآن من كل جانب متحججة ببعض الهزائم المرحلية التي منيت بها الحركات الثورية ، ولكنها تظهر دائماً لتقترح الاستراتيجية نفسها : « انتزاع السلطة » . فلنحددها بإيجاز :

إن الجماهير العمالية والفلاحية تطالب في كل مكان بالاشتراكية ، ولكنها ما زالت لا تعرفها حتى تنضوي تحت قبة البيروقراطيات الستالينية . لذلك يجب إيقاظ الخامات العفوية عند العمال . وحرب العصابات ليست أرفع اشكال النضال الثوري للوصول الى هذا الهدف ، يجب انشاء « السلطة المزدوجة » في القاعدة . أي ان تنادي بتشكيل لجان مصانع ولجان فلاحية يؤدي تكاثرها في النهاية الى تكوين « الاتحاد الواحد للشغيلة » بحيث يصبح هذا الاتحاد

أداة استلام السلطة ، في ظلال عصيان فوري وعام تقوم به المدينة والجبل . والتحريك الجماهيري ، يجب منذ الآن أن يهدف الى إطلاق الاضرابات والتظاهرات العمالية . أما في الريف ، فيجب تكوين نقابات فلاحية ، وغزو الأراضي ، وتنظيم عمليات عصيان محلي تنتقل الى المدينة شيئاً فشيئاً ، على أن تكون كلمة السر في العملية كلها « الثورة الاشتراكية » . أما العمال ، فيجب ان يتولوا شيئاً فشيئاً ، ومنذ البداية ، الاستيلاء على وسائل الانتاج، ثم يثورون مباشرة ضد سلطة الدولة ، دون فاصل زمني . تنطلق الثورة من نضال اقتصادي ظاهر أو دفين ، ثم تزداد حدة حتى تأخذ شكل العصيان الجماهيري ، فيتم الانتقال الفوري من العمل النقابي الى العصيان .

وكانت البيرو وغواتيمالا والبرازيل (ساو باولو والشمال الشرقي) هي البلاد الثلاثة التي اختارها مكتب اميركا اللاتينية (بوينس ايرس) فرع الاممية الرابعة . وهكذا تصرف هوجو بلانكو – القادم من الارجنتين – مع فلاحي وادي « كونفسنيون » ، وكان من المفروض أن يتم « الشغل » على اللجان الفلاحية في جولياو ، في الاتجاه نفسه ، وهو الاتجاه الذي فرضته أيضاً اممية بوزادس في بون سوزا بغواتيمالا حتى الاشهر الاخيرة ، وذلك استغلالاً لفرصة الوحدة التي تعيشهاهذه الحركة ، والنقص في المساعدات التي تردها من المؤسسات السياسية الأخرى .

لقد كتبت مجلة « الثورة الاشتراكية » لسان حال « حركة ١٣ نوفمبر » في عددها الأول (تموز ١٩٦٤) تقول :

« إن مبدأ تنظيم العصيان المسلح على مراحل ، ومن خلال « الحرب الشعبية » ، هو مبدأ شكلي ، بيروقراطي وذو روحية عسكرية ، وهو مبدأ مبني على التقليل من قيمة الجماهير ، واستعمالها ، ويؤجل تدخلها المباشر في الثورة » .

تركز التروتسكية كثيراً على الطابع الاشتراكي للثورة ، وعلى برنامجها

للمستقبل ، وتريد أن يحكم عليها الناس من خلال هذه المسائل الشعائرية ، وكأننا إذا رددنا ألف مرة أن الثورة يجب أن تكون اشتراكية ، نكون قد ساعدناها على أن تولد اشتراكية .

ولكن عقدة المسألة ليست نظرية . العقدة تكمن في اشكال التنظيمات التي ستحقق من خلالها « الثورة الاشتراكية » . وعندها نكتشف أن هذه الثورة كما يتحدثون عنها ليست فقط اوتوبية [1] بل ان الوسائل المستعملة لا تؤدي إلى الثورة الاوتوبية ، بل إلى تصفية غير اوتوبية البتة ، للحركات الشعبية القائمة . ونترك الحديث عن هذه النقطة لحركة « ادغار ايبارا » المسلحة (جزء من الجبهة الثورية في غواتيمالا) التي بعد أن أكدت عدم جدوى إيجاد برنامج ديمقراطي — وطني للثورة في غواتيمالا ، وعدم وجود بورجوازية وطنية في البلاد ، خاطبت الحركة التروتسكية بقولها :

« هذا الموقف التروتسكي يقود ، بمناورة ذكية ، إلى عدة اشياء :
— إنكار المحتوى الثوري على حركة حرب العصابات .
— إنكار امكانية تطور العصابات المقاتلة ، بحيث تصبح الجيش الشعبي .
— إنكار دور الفلاحين في الحرب الثورية في بلادنا .
— إنكار ضرورة اصابة الامبريالية وعملائها بهزيمة عسكرية ، حتى تنتزع السلطة منهم .

— اخفاء طابع النفس الطويل الذي تتمتع به الثورة المسلحة ، وتغليف مستقبل حركة العصيان النفس بالاوهام .

تقسيم قوى الشعب ومجهودات الثوريين ، بتشتيتها في التنظيمات السلمية

---

١ - نسبة إلى اوتوبيا ، وهي نموذج لمدينة اشتراكية - ديمقراطية مثالية تحدث عنها افلاطون في كتابه « الجمهورية » ، ثم اخذ الفكرة عنه اكثر من كاتب وفيلسوف بعده ، اشهرهم سير توماس مور الانكليزي الذي ألف فيها رواية (١٥١٨) - المترجم .

كالنقابات والتنظيمات الجماهيرية الأخرى [1] » .

ولنحاول أن نأخذ بالجدية النظرية التروتسكية متجاوزين شكل التحدي والاستفزاز الذي تتخذه لنفسها في الواقع ، فسنجد فيها عدة التباسات : فهي اولاً تنسخ من التنظيمات العمالية نموذج الخلايا في المعامل والنقابات البروليتارية وتطبقه على الواقع الريفي ، بحيث يصبح ما يصلح للمصنع في العاصمة الرأسمالية – في نظر التروتسكية – صالحاً أيضاً لمجتمع الهنود الحمر الذين يعيشون حضارة المايا والأنكا [2] ؛ وهي ثانياً ، وهذا يناقض عملية النسخ المذكورة ، تقلل من قيمة الطبقة العمالية كقوة قيادية في الثورة ، وهي تخلط بين الكفاح المسلح كأسلوب طويل النفس لتكوين جيش شعبي في الريف وبين القفز المباشر إلى السلطة أو العصيان البولشفي في المدينة ، وهي رابعاً تظهر جهلاً تاماً في ميزان القوى بين الطبقة الفلاحية والطبقة المسيطرة .

ومهما كان من أمر هذه التناقضات النظرية ، وهي كثيرة ، فهناك شيء أكيد ، وهو ان هذه الآلة الكلامية الجميلة ، تلعب في الواقع دور الفخ ، الفخ الذي ينغلق على العمال الزراعيين ، وأحياناً على ناصبيه . ذلك أن تحريك التجمعات الشعبية في قرى الهنود الحمر ، والاجتماعات النقابية المفتوحة ، هو في الواقع كالوشاية بهؤلاء السكان إلى قوى القمع المسلحة ، والوشاية بالملاكات السياسية للبوليس ، وهو يعني في النهاية إرسال هؤلاء الناس إلى السجون أو المقابر الجماعية .

ويقول الرفاق الغواتيماليون في الوثيقة التي تحدثنا عنها ، يقولون عن الأوامر باحتلال الأراضي والمصانع « بأنها » رغم الفائدة التي تقدمها للكفاح

---

١ ـ موجز الكتاب الذي وجهه تنظيم « ادغار ايبارا» لحرب العصابات ، إلى اللجنةالمركزية لحزب العمل الغواتيمالي (الحزب الشيوعي) وإلى الادارة الوطنية لحركة « ١٣ نوفمبر » في اكتوبر عام ١٩٦٤ عن الصراع الذي بدأ يظهر داخل الحركة الثورية في غواتيمالا .

٢ ـ الحضارة البدائية الاولى لمجتمعات سكان جبال الانديز من الهنود الحمر (المترجم) .

المسلح في بعض الفترات ، فهي إذا اعطيت بطريقة فوضوية تؤدي إلى مذابح وهزائم خطيرة بالنسبة للفلاحين والعمال الذين لا يتمتعون بحماية لمساندتهم في هذه الغزوات . إن « الصراع » الشهير على ملكية وسائل الانتاج مع البرجوازية غير معقولة في ظل آلة القمع التي تملكها الطبقة المسيطرة . ويمكن استعمال هذا التاكتيك فقط في الأماكن التي تطورت فيها حرب العصابات أو الجيش الشعبي بشكل يسمح بإيقاف موجات القمع هذه . أما في غير هذه الظروف ، فإن هذا التاكتيك يعرض الاهداف الأكثر حساسية في الشعب الى ضربات العدو . ومثل هذه الغزوات يمكن أن تأخذ شكل الاستفزاز وتؤدي إلى هزائم تدفع الشعب إلى أن يجد في الشلل السياسي التام ، الأسلوب الوحيد لحماية نفسه » .

والتروتسكية في الحقيقة هي مثاليات مزوقة بالنيات الحسنة [1] ، فهي تؤمن بطيبة العمال الطبيعية التي مهما حوّرتها البيروقراطية الخبيثة ، تظل صافية في اعماقها ، كذلك تعتقد التروتسكية أن في اعماق الفلاحين جوهراً بروليتارياً -كالعمال- لا يمكن لأي حادث أن يحوره ، ويكفي لكشف هذا الجوهر أن تعطيه فرصة الكلام ، وأن تحدد له الأهداف التي يراها دون أن يرى، والتي يفكر فيها بصمت ، وهكذا تتحول الاشتراكية بكل ابعادها ، الى العمل بضربة واحدة ، ودون أي عائق » .

وبما أن التروتسكية في ذروة انحلالها ، تنتسب إلى ميتافيزياء القرون الوسطى ، فإنها تخضع لرقابة مهماتها : بالنسبة للمكان ، فإن التحاليل نفسها التي تطبّق في البيرو ، تطبق في بلجيكا . أما بالنسبة للزمان، فالتروتسكية لا تتغير ، وليس لديها ما تتعلمه من التاريخ ، فهي تعتقد أن مفتاحه معها : فالبروليتاريا سليمة في جوهرها ، ولا بد أن تكون اشتراكية في شكلها . حتى

---

١ ـ يوجد وصف دقيق للموقف التروتسكي في كتاب جان بول سارتر « الشيوعيون والسلام » .

بالنسبة للنشاط النقابي تظل على خلاف أبدي مع البيروقراطيات الستالينية الفاسدة. لقد ظل بروميثيوس [1] يناضل بلا هوادة ضد زيوس [2] ذي الرؤوس الالف حتى ينتزع منه نار التحرير ويحتفظ بها مشتعلة . أين قرأنا تحليلا عملياً لواقع عملي معين بقلم احد التروتسكيين ؟

إن التروتسكية المحكومة بعيش الحاضر بقوالب الماضي ، قد جفت وهي واقفة على اقدامها . ألم تعرف سوى الهزائم ؟ إن مخربي الثورات موجودون في كل مكان .

والتناقض يكمن في أن هؤلاء الذين يتمسكون بعفوية الجماهير ، أنصار ترك البروليتاريا الريفية لاحقادها المتوحشة ، وتحريرها من الغزوة العسكرية التي ابحرت إليها من المدن ، والتي هي العصابات الثورية ، وتركها لحالها ، هؤلاء هم عادة مناضلون قادمون غرباء ، جاؤوا من الخارج أو من بلد مجاور ، ليس من أجل المشاركة في حركة تحرير أو خدمة هذه الحركة ، وهذه هي الروح الاممية الصحيحة ، ولكن من أجل السيطرة على هذه الحركة وتسييرها ، مستغلين في ذلك نقاط ضعفها ، وهذا شيء آخر .

عجيبة تلك « العفوية » التي لا تنبع من أرضها ، بل تستورد من الخارج !! ولكن لماذا التعجب ؟.

فالميتافيزياء المجردة التي لا تأخذ بعين الاعتبار حقائق التاريخ ، أي تاريخ ، هي كالتروتسكية لا يمكن أن تلصق إلا من الخارج . وبما أنها لا تنبع من أي مكان ، فلا بد من غرسها في كل مكان بالقوة [3] .

---

١ ـ إله اغريقي تقول الاسطورة انه صانع البشرية ، سرق نار السماء ونفخها في طين الارض فتكون الانسان . وهو إله النار (المترجم) .

٢ ـ إله اغريقي (المترجم) .

٣ ـ هذا لا يبرر أبداً ما يغلف شخصية واعمال تروتسكي ـ بالنسبة للبعض ـ من قدسية وصفة قاطعة مبرمة ، فقد قال لينين ـ قبل وفاته بقليل ـ عن تروتسكي : ربما كان ـ كفرد ـ اكثر اعضاء اللجنة المركزية الحالية كفاءة ، ولكنه صاحب احكام مسبقة ، ويتحمس اكثر من اللزوم لظواهر محض ادارية في العمل .

وهكذا يحدث أن التروتسكية المتطرفة في ثورتها وفي « الدفاع الذاتي » الاصلاحي ، يلتقيان في الواقع ، ومن خلال التناقض ، في الحكم على حرب العصابات بأنها نزعة عسكرية منفصلة عن الجماهير .

وهكذا يلتقي العصيان التروتسكي بالدفاع الذاتي .

يعمل الاثنان بطريقة استفزازية ، باسم الجماهير ضد الاجهزة ، وباسم العمل الجماهيري ضد عمل « قبضة من المغامرين » . وهكذا تشتد شكيمة الجماهير ، فيقودها اصحاب النظريات إلى الانتحار وهم ينشدون أناشيد مجدها .

كلا النظريتين يعتبر النقابة أساس التنظيم ومحرك صراع الطبقات . ونرى هذا الاعتبار عند « الدفاع الذاتي » في الواقع ، وعند «التروتسكية» في الواقع وفي النظرية . وهذا تفسير لمصادفة مفاجئة :

فقد كان يقال إن التروتسكية - هي اليسار المتطرف ، مع أن الأمر معكوس تماماً ، فها هي التروتسكية تضع يدها بيد « الاصلاحيين » لمحاكمة حزب العصابات ، وإيقافها أو تخريبها [1] . وليس من باب المصادفة أن تتخذ هاتان الحركتان من الثورة الكوبية هدفاً للهجوم في جميع انحاء اميركا اللاتينية وفي سائر انحاء العالم . وهذا ما يفسر لنا لماذا تضطر منظمات حرب العصابات التي تبزغ بقوة ، كالقوات المسلحة للتحرير الوطني في فنزويلا بقيادة دوغلاس برافو ، والقوات المسلحة الثورية في غواتيمالا الى أن تحارب على جبهتين : فالرسالة — البرنامج للقوات الثورية في غواتيمالا ، والتي استشهد بها في مكان آخر من هذا الكتاب ، تتوجه بالكلام إلى حزب العمل الغواتيمالي (شيوعي)

---

١ - من المفيد في هذا المجال مقابلة مقال هنري ادميه في مجلة « الازمنة الحديثة » (نيسان ١٩٦٦) ومقال بومارونا ، مدير « فانغرديا ريفولوسيوناريا » (الطليعة الثورية) ، وهي منظمة تروتسكية في البيرو . مقال ادميه يعبر بكثير من الحدة في مطلعه عن وجهة نظر الاحزاب الشيوعية الاكثر تقليدية (انظر رد اوزفالدو باريتو ، في عدد لاحق من كازا دي لاس اميريكاس) ويلتقي ادميه وبومارونا على استخلاص استنتاجات متشابهة تعبر عن افكار دقيقة : دفاع ذاتي متمركز في الريف ، تكوين ملاكات متطورة للكفاح السياسي في المدن .

في شكله القديم وقبل تحوله، وإلى حركة ٢٣ نوفمبر التي كان يقودها بون سوزا، والتي كانت تحت اشراف التروتسكيين . فاقد تأسست القوات المسلحة الثورية الغواتيمالية الجديدة في آخر عام ١٩٦٥ على أساس هذا التفسير لشكل ومحتوى الثورة في غواتيمالا ، وقد تم تأسيس هذه القوات المسلحة الثورية بالاتفاق مع حزب العمل – الشيوعي – بعد تجديده .

ماذا تعلمنا الخبرة المكتسبة حتى الآن ؟

إن حرب العصابات الثورية سرية ، تولد وتتطور تحت الأرض ، والمناضلون أنفسهم يحملون اسماء مستعارة في هــــذه المرحلة الاولية ، تبقى مختفية عن الأنظار ؛ فإذا قررت الظهور فسيكون ذلك في الزمان والمكان اللذين يختارهما القائد ، والعصابات الثورية في عملها وفي تنظيمها العسكري مستقلة عن السكان المدنيين ، وليس من واجبها والحالة هذه تحمل مسؤولية الدفـــاع المباشر عن سكان الأرياف . فحماية السكان ترتكز على التدمير التدريجي للآلة العسكرية التي يملكها العدو ، وهي متعلقة بالنسبة العامة للقوى ، بحيث أن السكان يصبحون في امان تام ، عندما تصبح القوى المعادية عاجزة عن القتال . وإذا كان الهدف الأساسي للعصابات الثورية هو تدمير الامكانات العسكرية للعدو ، فإنها لا تنتظر أن يأتي العدو إليها لتأخذ المبادرة وتنتقل إلى الهجوم – هــذا الهدف يتطلب على كل حال من القاعدة الثورية ان تظل في معزل عن العائلات التي تقيم في منطقة العمليات :

اولاً : لحماية السكان من عمليات القمع التي يقوم بها الجيش . فالجيش الذي يواجه رجـــال عصابات متحركين ، ينتقم من الفلاحين الذين يشك بعلاقتهم برجال العصابات .

فإذا ضبط فلاح لم يزود الجيش بالمعلومات ، فإنه يقتله ثم « يعمّـــده » « رجل عصابات » في التقرير الذي يرفعه الى رئاسة الأركان حتى يزيد من القيمة « البطولية » لما يقوم به من مهام . وسرعة التحرك ، التي يتميز بها رجـــال

العصابات على السكان المدنيين ، تلقي على عاتقهم مسؤولية خاصة تجاه الفلاحين الذين يتعرضون ليل نهـار لعمليات القمع ، والذين يشكلون الضحايا الابدية البديلة ، رجال العصابات إذن يمارسون السرية لسببين : الاهتمام بسلامة الفلاح بقدر الاهتمام بسلامة المقاتل ؛ السلامتان تشكّلان في نهاية المطاف سلامة واحدة .

لهذا السبب يتجنب رجال العصابات دخول القرى ، ويتجنبون أن يكون جميع أفراد عائلة واحدة على معرفة بمكان وجودهم ، أو أن يتمركزوا في أرض عائلة معينة ، فاذا اضطروا إلى دخول قرية ما ، فعليهم دخول جميع البيوت حتى يشركوا جميع العائلات في مسؤولية التعاون مع الثـوار ، أو هم يعمدون إلى عدم الاتصال بأية عائلة . فاذا أرادوا عقـد اجتماع ، تظاهروا باستعمال القوة لجميع السكان ، حتى يكون عذرهم أمام السلطة أنهم حضروا الاجتماع تحت التهديد وليس برضاهم . أما الاتصالات فتجري خارج القرية ، وفي سرية تامة ، وطبعاً خارج نطاق معسكرات رجال العصابات ، وباستعمال الوسائط غير المباشرة ، عند الحاجة ، إما بشراً أو آلات — على أن لا يعرف المخبرون والمتعاونون بعضهم ، وحتى المسؤولون في رجال العصابات ، فإن قلة منهم يفترض فيها أن تعرف شبكات الاتصـال . وإذا طلب نصير من منطقة « محروقة » الانضمام إلى رجال العصابات فإنه يقبل دون مناقشة ، حتى ولو وصل من غير سلاح ، الخ ...

ثانياً : لتأمين حماية سلامة رجال العصابات أنفسهم ، إنطلاقاً من القاعدة الذهبية المثلثة : حرص دائم ، حذر دائم ، تحرك دائم، والقوانين الثلاثة تتعلق بمبدأ السلامة . هناك أسباب منطقية تفرض الحذر من السكان المدنيين ، فتفرض بالتالي الابتعاد عنهم .

فبالإضافة إلى وضع المدنيين الذي يعرضهم باستمرار للقمع ولوجود قوات

---

١ ـ « ذكريات الحرب الثورية » .

العدو بينهم ، محـــاولاً شراءهم وافسادهم وفرض العنف على الذين لا يمكن شراؤهم ، بالإضافة إلى كل ذلك فإن المدنيين الذين لم يخضعوا لتدريبات وعمليات اختيار كالتي يخضع لها المقاتلون ، يكونون في منطقة العمليات اكثر تعرضاً للرشوة ولتسلل العدو إلى صفوفهم . لهذا السبب لا يمكن السماح للفلاحين ، حتى اولئك المتعاونين منهم مع الثورة ، بالذهاب إلى معسكرات الثوار ، التي لا يجوز لهم أن يعرفوا مكانها ، ولا مكان المخازن المختلفة ، ولا اهداف أو اتجاه القوات الثائرة التي يرون مرورها من امامهم .

يقول شي غيفارا بهذا الصدد : « كنا نخفي عن الفلاحين مقاصدنا ، فإذا حدث ومر بنا فلاح ونحن ننصب كميناً ، كنا نحتجزه حتى ننتهي من مهمة الكمين » .

وليس هـــذا الحرص بالضرورة عدم ثقة : فبإمكان الفلاح ان يفشي السر بكل سهولة ، وتكون السهولة شديدة إذا ما تعرض للتعذيب . لذلك أيضاً فان الادلاء هم أكثر من يمارس معهم رجال العصابات هـــذا الحرص ، فيعطونهم معلومات مغلوطة عن الأماكن التي اتوا منها ، وتلك التي يذهبون اليها ، الخ[1] .

لذلك أخيراً ، لا بد عند خروج أي كان من المعسكر ، تغيير مكان المعسكر فوراً . فاذا كان الخارج من المعسكر احد رجال العصابات وقد ذهب لإيصال رسالة ، فانه بمعرفته الجيدة للأرض ، سيعرف عندما يعود كيف يلتقي بالفرقة في مسيرتها ، أو كيف يجد المكان الجديد الذي عسكرت فيه . فقد لوحظ اكثر من مرة أن الرجل — سواء كان مقاتلاً أو فلاحاً عادياً — الذي توكل إليه مهام

---

١ ـ لقد حدث بالنسبة لأول دليل تعامل معه كاسترو في جبال سييرا ، والذي كان يتمتع بثقة الثوار الكاملة (اويتميو غيرا ، مزارع بسيط) حدث له أن تلقى رشوة من كاستيلاس قدرها عشرة آلاف بيزوس من اجل اغتيال كاسترو. ويقول كاسترو إن الحظ ـ والحاسة السادسة ـ دفعاه إلى اكتشاف الامر واعدام الدليل الخائن في الوقت المناسب . فكيف الحال اليوم وقد اصبح العدو يعرف تماماً قيمة القائد التي لا تعوض، خاصة في المراحل الاولى للثورة. وقد اغتيل لويس دي لابويني في بيرو نتيجة لوشاية دليل .

تفرض الرواح والمجيء بين المدينة والجبل ، ليحمل رسالة ، أو يحضر معلومات أو يقيم اتصالاً ، يتعرّض دائماً ، وبشكل خاص ، لاهتمام العدو ، فبواسطة مثل هذا الرجل يتسلل العدو إلى رجال العصابات بالقوة أو بالرضى ، ومن خلاله يستطيع العدو أن يحدد المكان الذي يعسكر فيه الثوار [١] .

وفي رأي فيديل كاسترو ، أن الخطر الذي تمثله مهمة الوسيط بين رجال العصابات في الجبل وبين السهل ، هو خطر ذو طابع نفسي ، فعندما يخرج المقاتل الشاب غير الواثق تماماً من فرص النصر المتوفرة أمام رجال العصابات ، عندما يخرج من المعسكر لتنفيذ مهمته ، يكتشف في أسفل الجبل أن الجيش يحاصر المنطقة باسلحته وابهته وادواته ورجاله، فيفكر عندئذ بمجموعة الجائعين الذين تركهم في الجبل ، فيبدو الفارق كبيراً ، وتبدو المهمة غير قابلة للتنفيذ ، فيفقد الأمل بالنصر الذي يبدو سخيفاً وغير قابل التحقيق على مثل هذا العدد من الجنود الذي يمتلك كل هذه الشاحنات وطائرات الهليكوبتر ، والمؤن ، والآلات من جميع الأنواع . فيصبح الشاب المتشكك عندها تحت رحمة الاعداء وهكذا يمارس السهل في البداية ، ومع المبتدئين ، عملية تيئيسهم وابعادهم عن الثورة .

باختصار ، لا تستطيع العنابة الثائرة استخدام ما تملكه من مميزات على الجيش النظامي ، إلا إذا استطاعت المحافظة على خفتها وليونتها . إن المحافظة على سرية الاستعدادات وسرعة التنفيذ والمفاجأة، تتطلب في أية عملية احتياطات

---

١ ـ في تموز ١٩٦٣ ، حدث ان تعرضت قاعدة لرجال العصابات ـ ٢١ رجلا ـ للتصفية الكاملة في منطقة ايزابال بغواتيمالا ، بسبب عدم الحرص : فقد ضبط احد مراسلي رجال العصابات في المدينة ، واضطر تحت تهديد السلاح إلى مرافقة فرقة من جيش اميركا الوسطى حتى معسكر الثوار واستغل وجوده على رأس القافلة، فسلك اصعب الطرق،اعتقاداً منه أنه لا بل أن يكون محروساً ، ثم عمد إلى اطلاق صرخة مميزة قبل الوصول إلى المكان الذي اعتقد أن يكون الحارس متمركزاً فيه . ولما لم يرد عليه احد اكتشف امره فقتله رجال الجيش ، وتابعوا مسيرتهم حتى خلوا قلب المعسكر في الليل . وتبين فيما بعد ان الحارس كان قد امر بمغادرة مكانه ، لاعتقاد الثوار بأنه من المستحيل ان يهتدي العدو إلى مثل هذه الطريق الصعبة .

سرية . وتحت طائل فقدان زمام المبادرة ، والسرعة في الحركة ، والمقدرة على المناورة ، فان كتيبة الثوار لا تستطيع مواكبة النساء والأطفال والحاجيات اليومية من قرية لأخرى للحماية . إن الخلط بين موجات الهجرة المدنية وبين مسيرات الثوار التي غالباً ما تتم تحت ضغط الظروف ، يمتص من المسيرات الثورية كل طاقاتها الهجومية ، بل ان الثوار يفقدون في هذه الحالة حق المقدرة على الدفاع عن المدنيين الذين يتحملون مسؤولية حمايتهم . فاذا تجمدت العصابات الثورية عند مهام حماية المدنيين أو « الدفاع الذاتي » فانها تفقد دورها كطليعة للشعب كله ، وتفقد النظرة الموطنية الشاملة في العمل . أما الهجوم المعاكس ، إذا قام به الثوار ، فانه على العكس من عمليات الحماية المباشرة ، يفجر الطاقات الشعبية ، ويجعل من القاعدة الثورية النامية قطباً يجذب إليه العمل الوطني بأسره ..

يمكن القول إذن إن « الدفاع الذاتي » يحصر حرب العصابات في دور تاكتيكي ويحرمها من آفاقها الستراتيجية الثورية .

وحتى لو قسنا « الدفاع الذاتي » بالمهمة التي يتصدى للقيام بها ، وهي حماية المدنيين ، فاننا نرى أنه يوفر لهم هذه الحماية في المدى القصير ، اما في المدى الطويل فان عمله تهديد لسلامة المدنيين :

« إن ترك مبادرة الهجوم بيد العدو فقط ، والاكتفاء بالدفاع السلبي ، يؤديان بالثورة إلى استحالة حماية المدنيين ، وإلى تعريض قواها للاستنزاف . بينما يؤدي اللجوء لمهاجمة العدو ، إلى وضعه في حالة دفاع مستمر ، وإلى استنزاف قواه ، ومنعه من توسيع نطاق عملياته ، وانتزاع زمام المبادرة منه وخنق حملاته التفتيشية . هذه الطريقة المثلى لإداء مهمتنا المجيدة : حماية السكان » .

هذه الإرشادات كانت توجه إلى مقاتلي « فييت منه » في حرب التحرير التي كانوا يخوضونها ضد المستعمرين الفرنسيين ، واحرى بهذه الإرشادات أن تنطبق اليوم على واقع الحال في كثير من دول اميركا .

الدعاية المسلحة

إن للكفاح المسلح دوافع واهدافاً سياسية .

وهو إما أن يستند إلى الجماهير وإما أن يتلاشى .

وعليه أن يقنع أفراد الشعب بصحة منطلقاته، قبل أن ينخرطوا في صفوفه، حتى يتحول « العصيان » فعلاً إلى « حرب الشعب » ، سواء من جهة نوعية محاربيه أو من جهة طريقة استقطاب هؤلاء المحاربين .

وعملية اقناع الجماهير لا تتم إلا بالتوجه إلى الجماهير ، أي بمخاطبتها بواسطة الخطب والبيانات والشروحات .

أي أن هذه العملية تقتضي ، باختصار، نشاطاً سياسياً، « عملاً جماهيرياً ». فعلى النواة الأولى من المقاتلين إذن أن تنقسم إلى مجموعات دعائية صغيرة، تجوب الجبال متفرقة ، تدخل القرى ، تعقد الاجتماعات ، يتناوب أعضاؤها على الكلام هنا وهناك ليشرحوا الأهداف الاجتماعية للثورة ، وفضح اعداء الطبقة الفلاحية ، والوعد بالإصلاح الزراعي ، وبمعاقبة الخونة الخ..

وإذا بدا أن الفلاحين لا يميلون إلى تصديق هذا الكلام، يجب عندئذ اعطاؤهم ثقة في أنفسهم بشحنهم بالإيمان الثوري : الإيمان بالثوار الذين يتحدثون إليهم . وهكذا تشكل الخلايا في القرى ، إما علنية أو سرية ، وتتم مساندة أو تحريك النضال النقابي ، مع إعادة متكررة ودؤوبة لبرنامج الثورة. وفي نهاية هذه المرحلة

فقط ، عندما تمنح الجماهير تأييدها العملي ، لتصبح خطوطاً خلفية صلبة ومساند للثورة ، وخط تموين اميناً ، وقاعدة واسعة للمعلومات ، ووسيلة مراسلات سريعة ، وقاعدة لتجنيد الثوار ، يجري تحويله مباشرة للعمل ضد العدو .

يبدو أن هذا هو خط الدعاية المسلحة .

وتستند هذه النظرية إلى تجربة دولية أكيدة .

ففي فيتنام مثلاً ، يبدو أن الدعاية المسلحة ، التي كانت مرتبطة مباشرة إلى منظمة مجموعات الدفاع الذاتي في الريف ، قد لعبت دوراً حاسماً في مجرى حرب التحرير ضد الفرنسيين ، وبشكل خاص في مرحلة تكوين الجيش الشعبي النظامي ١٩٤٠ — ١٩٤٤ .

كان رفاقنا الفيتناميون كلما تحولوا من حرب العصابات إلى حرب الحركات الواسعة ، ثم إلى مهاجمة المراكز المحصنة ، يتحولون شيئاً فشيئاً من السرية إلى الكتيبة ، ثم إلى اللواء ، فالى الفرقة . وقد يبدو هذا التطور غير طبيعي لأنه لا ينسجم مثلاً مع خط تطور الحرب الثورية الصينية التي واجهت عدوها رأساً بجيش نظامي .

في فيتنام ، كان الحزب الشيوعي النواة التنظيمية التي نما الجيش الشعبي انطلاقاً منها وحولها .

وحتى يعطي جيش التحرير شكله المجسم ، عمد الحزب سنة ١٩٣٤ إلى إفشاء « قسم الدعاية لجيش التحرير» . وهكذا شكل الحزب اولاً نواة الملاكات الثورية ، ثم نظمها ، فكانت أول مجموعة دعاية في الحزب برئاسة « جياب » ، ثم انقسمت هذه النواة وتوزعت على جميع انحاء البلاد ، لتكوين المليشيا الشعبية ووحدات العصابات غير النظامية . لم يكن هدفهم القتال ، بل تكوين الوحدات المقاتلة .

وهكذا بدأ يرتفع ، ابتداء من القاعدة ، هرم قوات التحرير المسلحة الفيتنامية ، باشكاله الثلاثة : التنظيمات شبه العسكرية (أو العصابات المقاتلة) ،

والقوات المحلية ، والوحدات النظامية . العصابات المقاتلة ، على مستوى القرية ، والوحدات نصف النظامية ، على مستوى المناطق ، وأخيراً الجيش الأساسي، أو القوة الستراتيجية المتحركة، دون قاعدة ثابتة ولا منطقة عمليات محددة . على أن يتمّ نصب العصابات الممتازة في قوات المناطق ، ونصب قوات المناطق الممتازة في الجيش النظامي ، وهكـــذا ترتكز كل طبقة من الهرم على الطبقة التي تحتها دون أن تسحقها ، ولكل طبقة دورها الخاص . أما الأسمنت الذي ترتبط به هذه الطبقات من تحت إلى فوق فهو الشعب الموزع والمنظم حسب القرى ، وكان رأس الحربة – الجيش النظامي – ملتحماً بالقاعدة ، ولكنه مستقل في تحركاته . ويقول الجنرال جياب بهذا الصدد إن استراتيجية الحرب ضد الغزاة الفرنسيين ترتكز إلى مقدرة الحزب على أن يحرك هذه القوى، احياناً بالترابط ، واحياناً بالتناوب .

دور العصابات المسلحة وقوات المناطق هو تشتيت قوات العدو على أرض شاسعة بالنسبة لها وتجميـــد تحركهم عن طريق اشغالهم بالمناوشات المستمرة ، فتنخفض القوة العسكرية المناورة التي بين يدي العدو إلى الحد العددي الادنى ، وتصبح خطوطه الخلفية غير مؤمنة .

فإما أن تكون في كل مكان ، فيكون بالتالي مشتتاً ، لا يملك قوة ضاربة مركزة ، وإما أن يركز على جبهة واحدة في نقطة معينة ، فيترك جميع اجزاء البلد الأخرى حرة . « فإذا تمركز العدو فقد أرضاً ، وإذا انفلش فقد قوة » .

هكذا كان الفرنسيون في الأمس ، وهكذا هم الاميركيون اليوم ، ضحية الحيرة بين هذين الأمرين .

وعلى كل حال ، تبقى مهمة رجال العصابات عزل وضرب نخبة قوات العدو ، وذلك بالتعاون مع خطط مناورات نخبة قوات الجيش الشعبي، لتطبيق القانون الحتمي الذي يقول إن أي جيش نظامي تدمّر نخبة قواته، يصبح عاجزاً عن متابعة المعركة . فعندما صفيت قوات الصاعقة الفرنسية (١٦ ألف مقاتل)

في ديان بيان فو ، تمكنت قوات المليشيا من تجميد الجيش الفرنسي في خليج تونكين ، بعد أن قطعت رأسه .

إذن ، حتى يدمر الثوار قوة القمع الصاعقة في جيش العدو ، يحتاجون من جهتهم إلى قوة صاعقة مقابلة ، ومع أن المواجهة تضع جيشين نظاميين مقابل بعض ، إلا أن الجيش النظامي الشعبي يمتاز على جيش العدو بأنه يستند في كل لحظة الى مجموع السكان (اكتساب مقاتلين جدد ، تموين نقليات ، معلومات ..) فإذا لم تكن هذه المساندة موجودة ، عجزت قوات الثوار حتى عن خوض معركة !

وفي فيتنام الجنوبية اليوم تملك قوات التحرير المسلحة جيشاً نظامياً، وفرق مناطق ، وفرق ميليشيا ، تسمى عصابات ثوار . ولكن الأولاد والنساء والكهول لا يستطيعون الانخراط المباشر في صفوف هذه المؤسسات الثلاث ، فكيف تتم تعبئتهم؟وكيف يستطيعون المساهمة في المعركة؟بالمساهمة في الانتاج ، فيالتخريب ، في جمع المعلومات ، في النقليات الخ ..

هذه المساهمة تتطلب بدورها تشكيل جيش سياسي ، مهمته بإختصار حماية الجيش .

وهكذا يكون النضال السياسي تمريناً او تعلماً للنضال المسلح، إنه الشكل النضالي الخاص بالخطوط الخلفية كعامل تعبئة وتوعية . وبإختصار ، يمكننا القول إن النضال السياسي والنضال المسلح يسيران جنباً إلى جنب ، يضعف الواحد منهما حيث يضعف الآخر ، والعكس بالعكس .

وإذا كانت الدعاية المسلحة في مستوى العصر في فيتنام ، فلأنها تتم وسط ظروف ملائمة .

ويمكننا – باقتضاب – أن نستنتج أو نخمن الظروف التالية :

١ – إن ضخامة نسبة عدد السكان الريفيين ، واكتظاظ القرى بالسكان ،

والتفوق الواضح لعدد سكان القرى على عدد سكان المدن ، كل هـــذه الحقائق تسمح لمحركي الثورة بالذوبان في سكان الأرياف كالسمكة في المـــاء . والشيء نفسه حاصل في الصين. ويزيد من السرية التي تحيط بإنتشار دعاة الثورة ، كون العدو محتلاً غريباً ، وجندياً نظامياً لم يألف حياة القرى وعادات البلاد، لدرجة أنه ليس من الصعب خداعه . وسواء كان فرنسياً أو أميركيـاً في فيتنام ، أو يابانياً في الصين ، فإن اختلال التوازن بين عـدد القوات المحتلة وعـدد السكان ، لا يسمح للجيش المحتل بمراقبة كل انحاء البلاد ، لأن نقاط ارتكاز هـذا الجيش متباعدة لدرجة تترك المجال حراً أمام الثوار .

٢ – يرتبط دعاة الثورة إما بقواعد ارتكاز ثورية ، أو بجيش شعبي قادر على دعمهم وحمايتهم في عملهم ، مؤكدين الحقيقة الملموسة والمرئية للإنتصارات العسكرية ، أكثر من أي شيء .

أما الاجتماعات ، واللقاءات والخطب في القرى ، فإن طابعها تجريبي جدي بحيث أنه لا يمكن للخطب أن تكون فـــارغة ، أو منهجية ، أو معتمدة على الكلمات الجميلة التي يخشاها الفلاحون – عن حق – بل لا بد لها أن تكون نداءات للإنضمام إلى التشكيلات المقاتلة الموجودة ومساندتها : فالدعاة الثوريون يستندون إلى نضال حقيقي . والحرب هي الوسط الموضوعي الطبيعي اليومي الذي « يسبح » فيه الفلاحون ، وليس ضد أي عدو ، بل ضد عدو أجنبي ، قادم من الخارج ، يتكلم لغة أجنبية ، يعيش في المدن حياة المحتل ، عدو مزروع في البلاد منذ فترة قصيرة فقط لا تسمح له بأن يبني أمجاداً طبيعية باهرة . مثل هذا العدو ، ليس صعباً أن يقتنع الناس بأن سلطته لا تقوم إلا على القوة الفظة ، وحق الغزو ، وظروف بنيت على اتفاقيات بين قوى بعيدة وليس على عادات وتقاليد وفطرة وطنية . الدعاية المسلحة الفيتنامية إذن تطورت في اطار معركة تحرير وطنية ، أي في اطار معركة حقيقية ، موجودة في كل مـــكان ، بكل أشكالها ، ضد عدو أجنبي موجود في مكان محدد ومتمركز على شكل قوات نظامية لها تشكيلاتها الجاهزة وهي موجودة في بعض النقاط ، محصنة أو غير

محصنة ، من أرض الوطن .

بين أميركا الجنوبية وفيتنام تناقض ناتج عن فروق عديدة : فبينما تشكل هرم قوات التحرير الفيتنامية المسلحة انطلاقاً من القاعدة ، فإن هذه القوات في أميركا اللاتينية تميل على العكس من ذلك ، إلى أن تتشكل انطلاقاً من الرأس ؛ القوات الدائمة . أولاً – كقاعدة – ثم القوات نصف النظامية حول القاعدة ؛ الميليشيا ويأتي دورها في النهاية ، أو بعد النصر ، (كما حدث في كوبا مثلاً) .

كيف يبدو الوضع إذن في بلدان أميركا اللاتينية المتعددة ؟

١ – تحتل العصابات الثائرة ، في بداية عملها ، مناطق قليلة السكان ، يعيش سكانها في أماكن متفرقة .

إن أي قادم جديد ، لا يستطيع مثلاً أن يمر في احدى قرى جبال الانديز دون أن يراه أحد ، ودون أن يوحي قبل كل شيء بعدم الثقـــة . ونلاحظ الكيشواس والكاكشيكلس (من قبائل المايا) يحذرون كل ما هو غريب ، وكل ما هو أبيض ، ولهم كل الحق في ذلـــك لأنهم يعرفون أن الكلمات المعسولة لا تطعمهم خبزاً ولا تقيهم من أحوال القصف الجوي . فالفلاح الفقير يؤمن أولاً بشخص يقبض على سلطة ما ، ابتداء بسلطة تنفيذ ما يقول . إن اسلوب القمع لبق . إنه هنا منذ أن وعى الإنسان ، متحجر ، متمركز ومتماسك .

الجيش ، الحرس الريفي ، البوليس البورجوازي ، أما اليوم (الرينجرز) ، الذين تدربهم اميركا ، ذوو القبعـــات الخضراء أو السوداء ، والذين لهم سطوة تبلغ من القوة بقدر ما تبلغ من قلة الوعي . هذه السطوة هي أول أشكال القمع : فهو يشلّ المتذمر ، ويغلق الأفواه ، ويدفع المرء الى ابتلاع شتيمة بمجرد رؤية الزي الرسمي . فالمستعمر الجديد التالي هو الذي يستعرض قوته حتى لا يستعملها ، ولكن عرض القوة هو في حد ذاته استعمال لها .

وبكلمة أخرى يمكن القول إن القوة الجسدية للبوليس والجيش هي قوة سحرية ، هذا السحر لا يمكن فكه بالخطب ، ولكن بالاثبات بأن الرصاص يمكنه أن

يخترق أيضاً رجال البوليس والجيش . وعلى رجال العصابات ، بعكس ذلك ، أن يستعملوا قوتهم حتى يظهروها للنـاس ، لأنهم لا يملكون شيئاً يظهرونه غير تصميمهم ومقدرتهم على استعمال الشيء القليل الذي بين أيديهم . عليهم أن يستعملوا قوتهم ، ليظهروا قوة يكادون لا يملكونها ، وليثبتوا من ناحية أخرى ، أن قوة العدو هي قوة استعراضية . وليس كالقتال وسيلة لفك هذا السحر ، هذا التراث من الخوف والذل أمـــام رب العمل ، والبوليس ، والحارس الريفي ، وينفك السحر بسرعة ، كما يقول فيديل ، إلى حد ينقلب فيه الاحترام التقليدي إلى استهزاء ، ويصبح الفلاحون الذين ينخرطون مع رفاقهم القدماء في العصابات وقد أصبحوا يقللون من قيمة العدو ، ولا يحسبون له حساباً . وعندها تضطر قيادة العصابات الثائرة إلى عمل معاكس : اخفـاء شيء من القيمـة على العدو ، تجنباً للمغامرات .

٢ – إن سيطرة الرجعيـة ، أو السيطرة الامبريالية المبـاشرة على المناطق الريفية ، بالإضافة إلى الحذر المتناقص في هذه الأيام عند الثوار ، يحرم الدعاة الثوريين المسلحين من فرص المرور الخفي أو السري في تلك المناطق ، كما يمر السمك في الماء . فالوحدات المسلحة والطليعـة الثورية لا علاقة لهـا بوحدات الجيش الغريب الغازي ، التي تملك عادة أسلوباً محكماً للسيطرة المحلية ، رغم أن عدد رجالها محدود .

فالأجانب ، هم الذين لا هيبة لهم ، لأنهم جاؤوا حديثاً ، ولا يمكنهم أن يجلبوا معهم للسكان إلا العذاب والدم . ومن جهة أخرى ، فإن طرق المواصلات اليوم في تزايد مستمر ، حيث بات من الممكن إنشاء المطـــارات أو مدارج الطائرات في أبعد الأماكن النائية ، التي لا يمكن الوصول اليها سراً .

ففي الجهة الأخرى من جبال الأنديز ، مثلاً ، بين الجبال وحوض الامازون من المفروض أن تقوم الطريق الشهيرة المحاذية للغـــابة ، بدور صلة الوصل بين أرياف البلاد الاستوائية (فنزويلا ، كولومبيا ، بيرو ، بوليفيا) وبين هـــذه

الأرياف وعواصمها . فماذا فعلت ألامبريالية الأميركية ؟

لقد عمدت إلى مضاعفة عدد رجالها في الريف ، مع الحرص الشديد على عدم الظهور بشكل القوة القاهرة ، بل على العكس من ذلك ، بشكل المساعدة الفنية والاجتماعية ! ولقد أصبحت معروفة كل المشاريع الاجتماعية الجاري تنفيذها والتي قوامها خبراء دوليون ، تحت ستار جامعي أو مباشرة من قبل منظمة الدول الأميركية ، والذين ينتدبون لتصوير الحالة الاجتماعية والاقتصادية والفردية لكل عائلة تعيش في « المناطق الخطرة » (المشروع ٢٠٨ لمنظمة الدول ألاميركية ، في بوليفيا ، « سمبانيكو » في كولومبيا ، مشروع ج. و ب. ٤٣٠ في الأرجنتين ، « كاميلو » في الشيلي ، « كولوني » في بيرو ، الخ ...)

إن الألوف من أعضاء « جيش السلام » الذين تغلغلوا إلى المناطق الريفية بالعمل والصبر ، وأحياناً بنكران ذات حقيقي ، يستفيدون من غياب المنظمات اليسارية في الأرياف . فالمبشرون ، من كاثوليك وانجيليين وشيع بروتستانتية أخرى يتكاثرون اليوم حتى في المناطق الأكثر بعداً .

وبكلمة موجزة ، فإن اداة الرقابة هذه ذات الشبكة الوثيقة ، تساند عمل أداة القمع المحلية ، ومن غير المبالغة في عمق وأثر تغلغلهم ، فإن هؤلاء قلما يخلقون وضعاً مغايراً .

٣ – عدم وجود قوات ثورية نظامية ، أو نصف نظامية جاهزة . فالدعاية المسلحة إذا كانت دوافعها قتالية ، تسعى إلى تكوين وحدات نظامية ، أو إلى زيادة عدد الوحدات الموجودة بفضل ما تقوم به من عمليات « استقطاب سياسي » . فهكذا تجري عمليات السيطرة على القوى ، لتجميع السكان وعقد اجتماعات دعاوية ...

ما هي في الواقع حقيقة المساعدة التي قدمت إلى سكان هذه القرى للتخلص من اعدائهم الطبقيين ؟

في أثناء هذه العمليات ، جمعت كميات قليلة من السلاح .

فحتى لو دفع الحماس الفلاحين الشباب إلى الانخراط في صفوف الثوار ، فبماذا يسلحون ؟

لقد استخلص عـــدد كبير من الرفاق من هذه التجارب مغزى بأن كميناً لوحدات العدو المساندة، أو أية ضربة توجه إلى العدو في جوار قرية ما ، يخلق حماساً في تلك القرية ، فيزيد عـــدد المتطوعين الجدد ، ويعطي درساً سياسياً وخلقياً اعمق للسكان ، وأكثر من كل ذلك ، تؤمّن اسلحة هي اهم ما تحتاج إليه العصابات الثائرة في بداية تكوينها .

إن تصفية شاحنة من ناقلات جنود العدو، أو اعدام بوليس متوحش اعداماً علنياً ، فيها من الدعاية السياسية العميقة والحقيقية، اكثر من مئتي خطاب . إن سلوكاً كهذا يقنع سكان الجوار الريفي بالشيء الاساسي :

وهو أن الثورة هي حقيقة بدأت مسيرتها الفعلية، وأن العدو ليس هـدفاً صعب المنال . إن سلوكاً كهذا يقنعهم اولاً بمايلي : إن الجندي عدو ، عدوهم ، وأن هناك حرباً دائرة ، وأن مجرى الحرب يتأثر بعملهم اليومي . بعد ذلك ، يصبح الخطاب ممكناً ، ويضمن لنفسه حتماً جمهوراً من المستمعين .

ومن خلال ضربات كهذه يجمع المقاتلون السلاح ، ويقللون من حجم العدو العسكري ، ويتشربون أكثر فأكثر بروح القتال ، ويضعفون معنويات وحدات العدو، ويحيون امل المقاتلين في جميع انحاء البلاد: إن قوتهم في الدعاية وتحريك الجماهير تكمن في تركيز مثل هذه المؤثرات .

ولنسق في هـــذا الصدد تفصيلاً عميق الدلالة . لم يعقد فيديل كاسترو في منطقة العمليات التي قاتل فيها لمدة سنتين ، أي اجتماع جماهيري .

لقد أدت اشكال التنظيم العسكري التي فرضتها الدعاية المسلحة (او التحريك المسلح)إلى نوع من الجمود والركود . وبالمقابل فإن حركات العصابات المسلحة التي تبنّت نظريات نضالية كهذه ، لم تستطع توسيع رقعة نفوذها

بشكل حاسم . ذلك أنه من اجل انجاح التحريك الثوري في رقعة شاسعة ، لا بد للقاعدة الاساسية من توزيع قواها الضئيلة على كتائب مختلفة ، محدودة العدد (من ثلاثة إلى عشرة رجال) حتى تتمكن من تغطية أكبر عدد ممكن من القرى . وفي ذلك ميزة تكتيكية أكيدة : تغطية أكبر مساحة ممكنة ، تجنب استنفاد مصادر المؤن المحلية والاشكال الاخرى من التموين ، وبالتالي تجنب ارهاق الفلاحين بذلك ، امكانية تكبير حجم القوات الثائرة في مخيلة العمال بالإشارة إلى الفرق الأخرى التي تجوب المناطق ، تحويل القوات الثائرة إلى قوات متحركة ، يصعب على العدو تحديد مكانها ، فيحرم بالتالي من فرصة محاصرة مجموع القوات الثائرة . ولكن إذا ربح الثوار بذلك مقدرة على الحركة ، فإن هذه القدرة ليست لها أية فعالية على الصعيد العسكري ، لان القوة النارية لكل فرقة على حدة ، تكاد تكون شيئاً لا يذكر . وحتى لو طورت قيادة الثوار الأسلوب النظري جداً المسمى بأسلوب « تركيز تفريق » ، فإن هذا الاسلوب يبقى حبراً على ورق في بداية عهد العصابات الثائرة ، حيث تكون هذه العصابات مفتقرة إلى التدريب ، وإلى معرفة وثيقة مفصلة بالأرض، بالإضافة إلى المفاجآت الفظيعة لحياة الغابات ، والمسافات والاتصالات الصعبة .

وهكذا ، فإن قوات الثوار عندما تنتشر بفرق صغيرة جداً على مسافات شاسعة من الأرض (٥٠٠٠ كم ٢ كحد أدنى) يختل توازن القوى ويهدد بالاختلال أكثر فأكثر : إن العصابات ضعيفة في كل مكان ، والعدو قوي في كل مكان ، مهما كانت قواه موزعة . هذا التوزع على شكل فرق ، يمنع تشكيل التجمعات الكبيرة ، التي تحوي على فرق متخصصة ، فرق للطليعة ، وفرق للمؤخرة ، مع قطع من السلاح الثقيل الذي يتولى امره جماعات مدربة ، وفرق متخصصة بشؤون المطبخ، من اجل تسهيل الحركة . وإذا استعملنا التنسيق الصيني نقول : حتى لاينغلق التجمع على نفسه كقبضة اليد لتوجيه ضربة إلى يد العدو وانتزاع اصبع منها ، فلتفتح الجماعة على شكل يد مفتوحة الاصابع

الخمسة ، فتصبح قوة قبضة العدو موزعة على الاصابع الخمسة . ولكن مجرد القناعة الفكرية لا تكفي هنا . فبعض حركات العصابات المسلحة كانت تعرف وتقرأ باستمرار اعمالاً نظرية غنية بالاستعارات المشابهة ، ولكن ظلت حتى وقت قريب تعمد إلى تقسيم قواها حتى الحد الاقصى .

فإذا استطاعت قاعدة ثورية أن تؤمن استمرارها من جهة ، فإنها تؤمن بالمقابل استمرار العدو ، ويكون من السذاجة بمكان الاعتقاد بأن ميزان القوى لا بد أن يتغير لصالحها . لقد اثبتت تجربة « لارا » في فنزويلا ، وإلى حد ما تجربة غواتيمالا ، أن النزاعات السياسية تكبر في قلب حركة العصابات المسلحة ، مع نوازع الانفصال ، والشجار ، والاصطدامات الشخصية في الحياة اليومية للمعسكر . ومع ازدياد الركود والانتظار الطويل غير المقبول ، وبدلاً من أن يتأقلم الرجال القادمون من أحزاب مختلفة على هذا النوع الجديد من الكفاح، يجلبون معهم خلافاتهم الحزبية إلى داخل حركة الكفاح المسلح ، وبدلاً من التمرس العملي بالتجربة الجديدة ، فإنهم لا يرون فيها إلا تأكيداً لشكوكهم الحزبية في هذا الشكل من الكفاح الشعبي ، فيعلو عندها صوت انتقاداتهم التي كانت صامتة ، ويبدأون بمناقشتها علناً .

هذه الانقسامات تمارس مفعولاً عكسياً في اضعاف القاعدة الثورية التي لم تحقق بعد نصراً عسكرياً يذكر ، أي المتوقفة على النمو ، بينما يستغل العدو في هذا الوقت ، الخلافات التي تبرز في قلب الحركة ، فيُفسد ويغري ويشتري الضعفاء ، ويمارس على الآخرين تصفية جسدية .

هل يعني ذلك أنه يجب التخلي عن الدعاية المسلحة أو عن عملية التحريك الجماهيري ؟ طبعاً لا .

وقد تبين من خلال بعض التجارب الناجحة ، بأن على العصابات الثورية خلال تقدمها أن تترك شيئاً ما – أو شخصاً ما – وراءها ، ووراء خطوطها ، عندما يكون لها خطوط ، من أجل تنظيم ما سيصبح نقط ارتكاز قوية ، ولكن السكان يكونون في هذه الحال محميين ، في سلامتهم الجسدية ، بواسطة

قوات نظامية قادرة على رد العدو ، وهكذا تبدأ القاعدة في تنظيم نفسها في اطار جنين دولة شعبية ، ويصبح العمل من أجل التحريك والدعاية لشرح التنظيم الجديد للسكان ، ومن أجل تسليم المنظمات الجماهيرية إدارة مناطقها ، عملاً أساسياً ، يؤثر على مجرى المعارك المقبلة ، فيكون دور الدعاية هنا التوكيد على الطبيعة التحريرية للمعركة الجارية ، وتدخل هذا الطابع في وجدان الجماهير وتسهل تنظيم الانتاج ، وإلغاء الضرائب ، وشرح القوانين الثورية ، والتمسك بالانضباط ، وإنشاء مدارس لتكوين الملاكات ، ومدارس عادية ، وحفر الملاجىء والخنادق بواسطة السكان من أجل الاحتماء من القصف الجوي الخ ... وهكذا نرى أن الأمر هنا يتعلق بمرحلة متقدمة على ما وصلت إليه حركات الكفاح المسلح في اميركا اللاتينية حتى اليوم .

بكلمة أخرى ، فإن الدعاية المسلحة تتبع العمل العسكري ، ولكنها لا تسبقه . فالدعاية المسلحة تختصّ إذن بالجبهة الداخلية للعصابات الثائرة وليس بجبهتها الخارجية .

أما فيما عدا ذلك ، وفيما هو اساسي ،.وطالما أن الظروف الحاضرة لم تتغير بعد ، فالدعاية هي عمل عسكري قد نجح .

إن اعتبار الدعاية المسلحة كمرحلة منفصلة وقائمة بذاتها وسابقة للعمليات العسكرية ، يؤدي على ما يبدو ، إلى استفزاز العدو دون جدوى ، وإلى تعريض الرفاق الذين يقومون بالدعاية إما للاغتيال وإما للهرب ، والتخلي عن منطقة من الممكن أن تتحول في المستقبل إلى احدى قواعد حرب العصابات .

وبالنظر إلى الحالة الاجتماعية والايديولوجية والنفسية للطبقة الفلاحية في معظم دول اميركا اللاتينية ، وبالنظر إلى اجهزة الاستخبارات المتنوعة التي يملكها العدو ، والتي عُززت إلى اقصى حد ، بعد ثورة كوبا ، فإن مجموعة المحركين تتعرض للملاحقة والمراقبة والتصفية وهي بعد في المهد ، إذا لزم الأمر . والأسوأ من ذلك ، أنه ربما شاركهم المصير نفسه جميع الاتصالات التي قاموا بها ، وجميع الخلايا التي انشأوها ، والأشخاص الذين عملوا على

انضاجهم في الريف ، والقرى والمراكز السكنية القريبة . وإذا كان لدى العدو وقت للانتظار ، فإنه يترك الأمور تسير بحرية حتى بـدء العمليات ، أو حتى ما بعد ذلك ، ليترك متسعاً من الوقت أمام تسلل جواسيسه ، فيضع فلاحـاً في أساس قـاعدة التنظيم ، فيجري تحديد مكان العصابات المسلحة وتصفيتها ، عند بداية العمليات .

ما هو أصل هـذه النظرية التي تقصر دور العصابة على أن تكون مجرد محرك بالسلاح ؟

إن غيـاب التجربة السابقة في الكفاح المسلح ، في الظروف الاجتماعية والتاريخية الخاصة بأميركا اللاتينية ، قد سمح – عن غير وعي طبعاً – بنسخ التجربة الفيتنامية ، بعد اقتلاعها من أرضها . وقد لعب الجهل بالثورة الكوبية دوره في هذا المجال ، هذه الثورة التي أخذنا بغلافها الخارجي دون أن ندرس جيداً محتواها. لقد كان هناك خطأ في ربط عملية تكوين جيش شعبي في الريف لمحاصرة المدن ، باسم « مركز » ... لأن هذا النوع من التفسير البيولوجي قـد أوحى عفوياً بربط فكرة « المركز » بفكرة « العدوى » ، والانتشار العفوي، والاشعاع الجرثومي على الخلايا الاجتماعية المجاورة بمجرد الفعـل السحري للاحتكاك والجوار . فإذا ألهب مئة رجل الجبل بالخطب ، ينهار النظام المروع تحت الصرخات ، وتهتف النداءات الشعبية لأصحاب اللحى. وهكذا نكون قد خلطنا بين المركز العسكري – محرك الحرب الشاملة – ومركز التحريك السياسي. لقد نسينا فقط أن الكوبيين من جماعة « ٢٦ تموز » قد بـدأوا بشن حرب لا هدنة فيها من جهة واحدة، بحيث أن جيش الثوار الكوبيين قد خاض في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٥٨ معارك أكثر من تلك التي تخوضها الحركات الاميركية الأخرى في سنة أو سنتين ، وبحيث أن الثوار تمكنوا في خلال شهرين من تحطيم هجوم قوات باتيستا ، وردوا بواسطة ٣٠٠ ثائر فقط ، عشرة آلاف من جيش باتيستا وجعلوهم عاجزين عن القتال، ليبدأوا بعد ذلك هجوماً معاكساً شاملاً: حرباً كان ثمنها حياة الكثير من المقاتلين الذين استشهدوا وهم يقاتلون . وحتى

تكون تلك الحرب فريدة في قصرها ، فقد استندت إلى كنوز من الاختراعات التكتيكية ، ومن الحركة والجرأة مضافة إلى ستراتيجية كبيرة .

لقد نسينا فقط ، أن عبارة « الوطن أو الموت » لم تكن شعاراً لانهاء الخطابات ، بل قاعدة عمل ، في المستوى التكتيكي ، عمل المقاتلون الكوبيون بوحيها حرفياً في كل تحركاتهم ، منذ الهجوم على حصن بلاتا الصغير حتى الاستيلاء على سانتا كلارا . لقد غامروا - ستراتيجياً - بالكل من اجل الكل: فاستأهلوا في النهاية ان يكون الكل لهم .

من الواضح أن هذا القرار الستراتيجي-المغامرة بكل شيء - لا يجوز أن يقود الثوار إلى خوض معارك حاسمة على الصعيد التكتيكي، قد تؤدي إلى جر الثورة كلها إلى الهزيمة . ولا مكان لفكرة اياكوشو [1] في الثورة اليوم . ويجب ألا نأمل ربح كل شيء في معركة واحدة .

في معركة غيزا - مثلاً - في نوفمبر ١٩٥٨ ، جابه كاسترو خمسة آلاف من جنود الدكتاتور باتيستا بمئتي رجل عصابات (مئة منهم كانوا منخرطين حديثاً) . وكان جنود باتيستا مزودين بالدبابات والطائرات والمدفعية ، ولكن الثوار كانوا في وضعية تمكنهم من الارتداد من السهل إلى الجبل ، مسفيدين ببراعة من الأرض : كانت المعركة اكثر حسماً بالنسبة للعدو ، منها بالنسبة للثورة ، لأن الفرق الثورية الأخرى كانت تقوم بغزو مناطق اخرى في الجزيرة . فشعار « المخاطرة بكل شيء في سبيل كل شيء » يعني أنه على المقاتلين عند الانسحاب إلى الجبل أن يخوضوا حتى الموت معركة لا تعرف الهدنة أو الانسحاب أو الحلول الوسطى . والسعي وراء النصر يعني قبول المبدأ الذي يقول إن الحياة ليست اغلى ما يملكه الثائر .

---

١ - مدينة صغيرة في بيرو (٢٥٠ ألف نسمة) دارت بالقرب منها معركة انتصر فيها انطونيو خوسيه سوكر (احد نواب بوليفار) على الاسبان، وادت الى تحرير بيرو ، ثم اصبح رئيساً لجمهورية بوليفيا . - المترجم -

قاعدة رجال العصابات

ربما وقعنا في نظرية « قاعدة رجال العصابات » مرة أخرى في مخاطر التقليد – وليس لنا أن نناقش تفصيلياً هذه النظرية المتعلقة قبل كل شيء بالظروف العملية في كل بلد وبالقرارات العسكرية التي هي من شأن قادة رجال العصابات الثائرة وحدهم. ومع أن تجربة عسكرية كبيرة هي وحدها القادرة على الرد على مسألة « قاعدة رجال العصابات » ، أو المسألة البديلة المسماة « منطقة الامان » فلنكتف فقط بطرح السؤال .

فإذا رجعنا إلى احداث قريبة ، كأحداث بيرو ، نرى أنه من الممكن ان تجربة « نقاط الارتكاز » الصينية (كما وضع أسسها ماوتسي تونغ سنة ١٩٣٨ في كتاب « المشاكل الستراتيجية لحرب الانصار ضد اليابان ») قد عكست لونها في اميركا اللاتينية على الصورة التي تكونت لحرب العصابات الكوبية .

فقد عمدت مؤخراً بعض النشرات الرائجة في الأوساط الجامعية ، كمجلة « مانثلي ريفيو » (المجلة الشهرية) الى تصدير تجربة بيرو التي قادها لويس دي لابوينتي كنموذج للستراتيجية الكوبية المزعومة للكفاح المسلح ، مما يسمح لهذه المجلة بأن تسجل حدسها بالفشل النهائي لهذه الستراتيجية. في العدد الأخير من هذه المجلة الاميركية الشمالية « التقدمية » ، والتي ما عدنا ندري إذا كانت مفجعة أكثر مما هي سخيفة ، لأن سذاجة المواظبة الى هذه الدرجة تقترب من

حدود الفن الكبير في تضليل الناس ، في العدد الأخير من هـذه النشرة ، قرأنا بقلم هيو برمان وسويزي أن استراتيجية فيديـل كاسترو تقتضي اقـامة « منطقة امان » تحت سيطرة رجال العصابات في الجبال ، تصبح مركز جذب ونمو ثوري ، وتؤدي في النهاية – كما في كوبا – الى حرب شاملة ضد القوات المسلحة في بيرو . وتضيف المجلة أن الشيء الجديد الذي اضافـه بوينتي ، هو أنه بالنسبة لاتساع مساحة بيرو ، وجب إنشاء ست « مناطق امن » بـدلاً من «منطقة أو منطقتين»[1] ويفهم من هذا الكلام ان الاستراتيجية الكوبية المزعومة قد جعلت من اقامة قاعدة ثابتة ، المنطلق والهدف الأساسي لرجال العصابات .

أن يتحدث مثقف ، خاصة اذا كان بورجوازياً ، عن أولوية الاستراتيجية ، أمر مفهوم . ولكن سوء الحظ يشاء ان الطريق السالك الوحيد ، لا بل أن ينطلق من معطيات تكنيكية ، ليرتفع شيئاً فشيئاً نحو تحديد الاستراتيجية . ان المبالغة في تقييم الاستراتيجية والتقليل من شأن التكنيك ، هو عيب مضر خاص بأصحاب التأملات ، ونعترف بأن هذا العيب قد اصبح يغرينا ونحـن نكتب هذه السطور .

وهذا سبب آخر يجعلنا نتنبه دائماً الى عملية التضليل التي نذهب ضحيتها ونحن نقرأ أعمالاً نظرية . هذه المؤلفات تقدم لنا على شكل مبـادىء وفي اطارات ثابتة نظريات يقال انها استراتيجية . مع أنها بالفعـل حصيلة سلسلة من التجارب التكنيكية في ظروف معينة . وهكذا نأخـذ كنقطة انطلاق ما هو في الحقيقة نتيجة .

بالنسبة لفرقة من الثوار ، تنبع الاستراتيجية العسكريـة اولاً من تلاحم الأوضاع الاجتماعية والسياسية ، ومن علاقتها بالسكان ، ومن الظروف الـتي تفرضها الأرض ، ومن قوى العدو ، ومن تسليحه الخ .

---

١ - « استراتيجية الكفاح المسلح » ، مانثلي ريفيو (المجلة الشهرية) سبتمبر ١٩٦٦ .

إن السيطرة على التفاصيل هي الشيء الوحيد الذي يمنح المخططات العامة قيمتها الجدية .

في النهاية ، وبالنسبة لقوة من الثوار أكثر مما هو بالنسبة لقوة نظامية ، ليس هناك تفاصيل في العمل ، فكل العمل هو تفاصيل .

إن هذا التصاعد البطيء من التكتيك نحو الاستراتيجية ، وهو يحتضنها ويسعى إليها في آن واحد ، تصاحبه الخبرة على جميع المستويات المرحلية ، هو تاريخ الثورة الكوبية . وهو نموذج حي صالح للتعليم العملي . وقد يبدو مثيراً للبلبلة ذلك الاهتمام الدقيق والموسوس الذي كان يعيره فيديل كاسترو ، حتى الأيام الأخيرة في القتال لتحضير التجهيزات الصغيرة لأصغر الأعمال ، كما يبدو من مراسلاته الحربية : كإيجاد مركز للمقاتلين في كمين مقبل ، وعدد الرصاصات الذي يجب توزيعه على كل واحد ، والطريق التي يجب سلوكها ، وتجربة وضع المتفجرات ، وتسجيل المؤن : إنه درس ممتاز في الفعالية الدقيقة .

قبل الحديث عن استراتيجية كوبية ، تقتضي الأمانة ضرورة الاستفسار – بطريقة أو بأخرى – من أفراد الجيش الثائر أنفسهم عن حقيقة حرب العصابات الكوبية . إن المثقف الثوري ، الذي يحترف الحرب بالمنظار ، عندما يضيف الى ذلك اهمال أخذ المعلومات من منابعها الأصلية ، كما هو الحال مع مصدري كراريس الطلبة ، يمنح جهله وظيفة اجتماعية محددة ، هي بلبلة الجمهور الذي يفترض فيه تنويره ، ولا تكون البلبلة طبعاً إلا في صالح قوة القهر المسلطة على هذا الجمهور .

للوهلة الأولى ، تتطلب « قاعدة حرب العصابات » او « قاعدة الارتكاز الثابتة » التي تعطيها التجربة الصينية قيمة استراتيجية أساسية ، مجموعة من الشروط الملائمة .

– امتداد وعمق الأرض ، اللذان يكملهما نقص في المواصلات في المناطق الريفية (شرط يؤكد عليه ماوتسي تونغ بشدة في النص المذكور والذي كتبه عام ١٩٣٨) .

– نسبة كثيفة في السكان الريفيين (نسبة في بيرو ٩ في كل كيلومتر مربع).

– وجود حدود مشتركة مع بلد صديق (في بلد ضيق كفيتنام ، كانت قاعدة الارتكاز القوية ، قاعدة فييت – باو ، التي لعبت دوراً حاسماً ابتداء من سنة ١٩٥٠ ، ملاصقة للأراضي الصينية) .

– غياب قوات عـــدوة منقولة بالطائرات ، وهذه تشكل جميع قوات الصاعقة العدوة لقمع العصابات الثائرة في معظم بلاد اميركا اللاتينية ، مزودة بأحدث أساليب القمع ، بمحاصرة الثوار بالقوات البرية ، وإنزال قوات بالمظلات في قلب المناطق المطلوبة ، مع فرق صغيرة متحركة مطـــاردة ، ذات اتصال لاسلكي بالمؤخرة ، لمطاردة وتحديد مواقع المقاتلين الشعبيين الخ ..

إن شرط النقص العددي في قوات العدو ، الذي كان متوفراً في الصين في إبان حرب التحرير ضد اليابانيين ، ليس وارداً في اميركا اليوم . ولنذكر أن الجيش الصيني الأحمر قد شكل كجيش نظامي منذ عام ١٩٢٧ بعد أن التحقت بصفوف الشيوعيين فرقة كاملة من قوات الكومنتانغ يقودها ضباطها الشيوعيون. وكانت القوات الشعبية في الصين تملك قبل الغزو الياباني وحدات نظامية . أما بعد الغزو الياباني فقد ارتفع عدد أفراد الجيشين الثامن والرابع ، اللذين أسسا قواعد المقاومة ضد اليابانيين ، من أربعين ألف مقاتل عام ١٩٣٧ الى مليون مقاتل عام ١٩٤٥ ، بحيث أصبح ممكناً أن يخوض الرفـــاق الصينيون حروباً ثابتة لحماية القواعد الثابتة الأكثر أهمية .

إن أياً من هذه الشروط تقريباً ، كما نلاحظ ، غير متوفرة اليوم في أميركا اللاتينية .

ما هي إذن ، بهذا الصدد ، دروس التجربة الكوبية والمعارك الحالية ؟

لقد أصبحنا نعرف اليـــوم ، وبمجرد قراءة الصحف ، ان الساعة الحاسمة للعصابات الثائرة هي ساعة دخولها إلى العمـــل الجدي . وكالأطفال في البلاد الفقيرة ، فان فرص الموت مرتفعة في الأشهر الأولى ، وتبدأ بالانخفاض مع كل

شهر جديد يمر . إن القاعدة الذهبية للثورة المضادة هي شن معركة قصيرة ، خنق القاعدة الثورية في المهد ، دون أن تترك لها فرصة التأقلم بالأرض ، والارتباط العميق مع السكان المحليين ، واكتساب الحد الأدنى من الخبرة . وعندما تحلم الثورة المضادة بمستشار اميركي ، فانها تحلم بقواته التي تُنقل بالطائرات لتهبط وسط منطقة الثوار ، التي لا يكاد يمكن معرفة مكانها . ولكن الحلم – لحسن الحظ – غير قابل للتحقيق ، على الاقل بهذا الشكل . وعلى كل حال فإن بين القمع المجرب والثورة المبتدئة ، سباقاً ضد الساعة : إن العصابات المسلحة تريد أن تكسب الوقت ، والجيش يريد ان لا يضيع دقيقة واحدة . عصابات الثوار تريد ان تتعلم ، والجيش يريد ألا يترك لها وقتاً لتتعلم . يجب تركيز قاعدة العصابات في مكان معين وبأسرع ما يمكن ؛ كل الوسائل يمكن أن تخدم هذا الغرض ، ابتداء بالتسلل الصامت ، وانتهاء بتحريك المدفعية والطيران لتحريك وهز منطقة مشبوهة ، ودفع الثوار بهذه الطريقة الى فقدان اعصابهم والخروج للأرض المكشوفة .

في هذه الظروف ، تكون الرغبة في احتلال قاعدة ثابتة او الاستراحة في « منطقة أمان » ، حتى لو امتدت على آلاف الكيلو مترات المربعة ، حرماناً للثورة من أحسن ما في يدها من سلاح : الحركة ، وتركها منغلقة في منطقة عمليات ، والسماح للعدو باستعمال أحسن أسلحته . إن فدية اقامة « منطقة الأمان » كصنم للعبادة ، هي العسكرة الثابتة ، المتمركزة في أماكن اشتهرت بوعورة مسالكها . إن هذه الثقة في فضائل الأرض فقط ، هي دائماً ثقة محملة بالأخطار : ذلك انه لايوجد – الحقيقة – أماكن لايمكن الوصول إليها ، لسبب منطقي بسيط ، هو انه إذا أمكن الثوار الوصول الى هذه الأمكنة ، فلا شيء يمنع العدو من الوصول اليها .

إن قاعدة السلوك التي كان يتبعها جيش الثوار منذ البداية هي التصرف كالو كان العدو يعرف مكان الثوار ، وينطلق للاحقتهم من أقرب نقاطه . كان النضال ضد التسلل والوشاية في كوبا يتخذ دائماً شكل التحرك المستمر . كان كل

شخص يخرج من المعسكر يشكّ في امكانية افشائه بمكان المعسكر ، سواء برضاه أو رغماً عنه . وكان لا يمكن أن توجد المعسكرات إلا بصورة مؤقتة ، ودائمة التنقل ، في المرحلة الاولى .

في نهاية ١٩٥٧ ، كانت فرقتان تعملان في جبال سييرا مايسترا : فرقة فيديل كاسترو المؤلفة من مئة وعشرون رجلاً ، والفرقة التي سلمها فيديل الى شي غيفارا ، واطلق عليها اسم الفرقة رقم ٤ للتشويش ، وهي مؤلفة من أربعين رجلاً . في شهر اكتوبر ، كان شي غيفارا يحاول أن يرسي قواعد ارض حرة في وادي « الهمبريتو » بواسطة هذه الفرقة التي أصبحت في ذلك الحين ستين رجلاً . فأقام فيها معسكراً ثابتاً ، وبنى فرناً للخبز ، ومستشفى ، ومحلات لصنع الأحذية ، الخ .. ثم أحضر آلة ناسخة ، طبع عليها الاعداد الأولى من «الكوبانو ليبيري » ، وحسبما يقول غيفارا نفسه ، فقد بدأ برسم خرائط محطة كهرمائية على النهر الذي يمر في الوادي . وفي خلال عدة اسابيع كانت قوات سانشيز موسكيرا ، تهاجم هذه القاعدة التي لم يكن من الممكن إنقاذها رغم ان الاستعدادات الدفاعية كانت قد تمت . ولم يعد لدى الثوار القوة الكافية للدفاع عنها . وأصيب شي غيفارا في رجله واضطر للانسحاب الى الداخل . وعلى كل حال فان هذه المحاولة لإقامة قاعدة لم تؤد إلى نتائج خطيرة ،لأن قاعدة كاسترو كانت في الجوار ، على مسافة تسمح لها بمساندة قاعدة غيفارا . ولو كانت القاعدة منعزلة لانتهت التجربة نهاية سيئة جداً . ومع ذلك فان الدفاع الصلب في « الهمبريتو » ، قد اضطر الجيش الى الانسحاب وحول تحطيم القاعدة الى نصر جديد ، مما يثبت ان فكرة إقامة القاعدة كانت سليمة ، ولكنها كانت مبكرة.

ولم يستطع الثوار إقامة قاعدة في قلب جبال السييرا مايسترا إلا بعد سبعة عشر شهراً من القتال المتواصل (في ابريل ١٩٥٨) .

وحتى ذلك الوقت كانت قاعدة الثوار هي مجرد منطقة للعمليات ، وكان الهجوم المستمر خارج الخطوط هو الذي نجح في تحرير منطقة صغيرة من

السييرامايسترا . بـــدأت الفرق تتحدر أكثر فأكثر نحو السهل ، وهي تشدد غزواتها باستمرار ، وتمنع فرق العدو من دخول السلسلة الجبلية . ولم يعد سكان سييرامايسترا يخشون الوقوع في فك الكماشة مـــا بين قوات باتيستا وقوات الثوار.. لذلك يبدو ان قاعدة سييرامايسترا قد أنشئت من الخارج نحو الداخل، ومن المحيط نحو مركز الوسط .

وبعد أن أخليت أرض هذه القاعدة الصغيرة ، أصبح من الممكن أن يقـام عليها المستشفى الريفي ، والصناعات اليدوية الخفيفة ، والورش الحربيـــة ، والراديو ، ومدرسة المنتسبين الجدد ، ومركز القيادة . هذه القاعدة الصغيرة سمحت للثوار أن يصمدوا في مراكز منزوية أمام الهجوم العام الذي شن عليهم في صيف ١٩٥٨ . ففي وضعهم الذي كانوا يستندون فيـــه الى قطعة ضيقة من الجبل ، تمكنوا من مجابهة سلسلة من الهجمات لقوات العـــدو آتية من اتجاهات عديدة ، هذه الهجمات التي تمكنت في بعض الأحيان من الاقتراب الواحدة من الأخرى بحيث لا تفصل بينهما أكثر من سبعة كيلومترات[1] ولكن حتى في حالة الحصار هذه ، بقي جيش الثوار في حالة تمكنه من ترك هذه القاعدة لكسر — الحصار ، والعودة — إذا لزم الأمر — إلى حالة البداوة الأولى في منطقة أخرى.

لم يكن احتلال قاعدة للثورة الهدف السياسي والعسكري الأول للثوار في كوبا ، برغم ما كان يشكله هـــذا الاحتلال كعامل حاسم . لقد كان الهدف الأول ، كما يبدو ، هو تدمير قوات العدو ، وقبـــل كل شيء ، جمع السلاح . وتجيء التجارب الحالية في غواتيمالا وكولومبيا وفنزويلا لتؤكد ، في هـــذه النقطة بالذات ، صلاحية التجربة الكوبية . ان احتلال قاعدة ثابتة لا يشكل

---

١ ـ اقرأ قصة الهجوم الذي شنه الاعداء ، والهجوم المعاكس للثوار كما رواها فيديل كاسترو في اذاعة بالراديو ، في ٢٦ تموز ١٩٥٨ .

الشرط الذي لا غنى عنه للانطلاق في العمليات الهجومية الأولى للثوار ؛ أكثر من ذلك ، ان هذا الاحتلال غير ممكن قبل مرحلة أولى من البداوة ، ومن استقرار بطيء في منطقة عمليات ملائمة بشكل خاص .

وفي هذه الأثناء ، يقول فيديل كاسترو في عبارة له ، فان قاعدة الثوار هي الأرض التي يتحرك الثائر داخلها ، والتي تتنقل معه كلما تحرك ، ان قاعدة الارتكاز في المرحلة الأولية ، موجودة في حقيبة المقاتل .

الحزب وعصابات الثوار

في عدد كبير من دول اميركا ، وفي أكثر من مناسبة ، كانت عصابات الثوار تحمل اسم « الذراع المسلح » لجبهة التحرير ، للاشارة الى ارتباطها بجبهة وطنية أو بحزب؛والعبارة منقولة عن صيغ مصنوعة في الخارج–في آسيا بشكل خاص – وهي تتعارض ، أساسياً ، مع شعار كاميلو : « جيش الثوار ، هو الشعب في لباس عسكري » . في حالة عدم المعرفة العملية بوضع عملي معين ، أو وضع مختلف لا نلمس اختلافه عن غيره من الأوضاع ، يكون هناك خطر دائم في استيراد اشكال تنظيمية ، حتى ولو كانت هذه الأشكال مستندة إلى نظرية معروفة . والخطر في هذه الحالة مادي ، ذلك أن خطأ سياسياً واحداً يقود الى عدد كبير من الأخطاء العسكرية ، وخطأ عسكري واحد يقود الى هدم مركز ثوري يبدأ في العمل . لا شك ان الكفاح المسلح في أميركا اللاتينية لم يتعرض إلى هذا القدر من الخطوات الخاطئة ، من التلمسات ومن الانطلاقات الخاطئة ، وهذا ما يكشفه تسامح التاريخ ازاءه . وبالانتظار ، تظل عقوبة النظرية الخاطئة ، الهزيمة العسكرية ، وعقوبة الهزيمة العسكرية ، اغتيال العشرات والمئات من الرفاق ومن أبناء الشعب . إن بعض السياسات تنتمي إلى علم الجريمة .

إن وضع عصابات الثوار تحت السيطرة الاستراتيجية والتكتيكية لحزب لا يقوم باجراء تغيير جذري على تنظيمه القائم في زمن السلم ، وجعل هذه

العصابات كشعبة جديدة للعمل الحزبي – إن عملاً كهذا يؤدي إلى سلسلة من الأخطاء العسكرية القاتلة. سنمر بسرعة على هذه الأخطاء، فقد أصبحت اليوم معروفة لدى الجميع :

١ – النزول إلى المدينة : على الذراع، حتى لو كان مسلحاً، أن يستشير الرأس قبل الاتيان بأية حركة، والرأس – القيادة – موجود في العاصمة؛ أليس هناك مركز الحياة السياسية في البلد، وقواد الأحزاب الأخرى، والصحافة، والبرلمان، والوزارات، ومكاتب البريد، باختصار، أليس هناك مركز أجهزة السلطة المركزية ؟ أليس هناك مركز البروليتاريا الصناعية، والمصانع، والنقابات والجامعة، باختصار، أليس هناك مركز القوى الحية للسكان ؟

إن أعراف المركزية الديمقراطية، تفرض على قائد العصابات الثائرة – الذي يكون عادة عضواً في اللجنة المركزية – أن يحضر للمشاركة في مناقشات القيادة. وإذا لم يكن عضواً في القيادة، فان هذا سبب أوجه، يقتضي حضوره الى العاصمة لتلقي التوجيهات. قد يقال هنا ان باستطاعة القيادة إرسال مبعوث إلى الجبال، وهذا ما تفعله في معظم الاحيان، ولكن، حتى يمكن والحالة هذه مناقشة التوجيهات إذا كانت غير مطابقة لحقيقة المعركة، وحتى يمكن عرض المشاكل الواقعية – المادية والسياسية – التي يتعرض لها رجاله، وحتى يتمكن هو من أن يطلب العون لهم، وأن يُشعر القيادة بوجودهم، وهي التي سرعان ما تميل الى نسيانهم، وحتى يشعرها بأنها يجهلها التام بشؤون المعركة ومشاكلها، تغرق نفسها في الحياة السياسية السهلة – من أجل هذه الأمور كلها يضطر قائد العصابات الثائرة، إن عاجلاً أو آجلاً، إلى النزول للعاصمة. وأكثر ما يضطر قائد العصابات للنزول إلى العـــاصمة خروج الانقسامات السياسية الى العلن، وانشطار المنظمات، وقيام التنظيمات الجديدة دون استشارته. فان عليه عندئذ النزول الى « تحت »، حيث تـُصنع « السياسة » وتدار.

وبما انه يحصل أحياناً أن يكون الرأس فارغاً، غير كفؤ، أو أصم، فلا

بد من وقت طويل لافهامه تفاصيل ذلك العالم الأبعد عنـــه من القمر ، والذي هو حياة عصابات الثوار .. يجب إذن إطالة المكوث « تحت » ، أو العودة إلى الجبل . والمجازفة قاتلة : ان عاجلاً أو آجلاً ، سيقع المسؤول العسكري، مغتالاً حيث يجده العدو ، أو معذباً مقتولاً (بعد الادعـــاء بأنه انتحر) ، أو نادراً ما ينتهي مصيره بالسجن فقط، هذا إذا تدخل الرأي العام في الوقت المناسب. واذا استطاع مرة أن ينجو في آخر لحظة ، فانه سيقع في المرة القادمة (وقد يدخل في المسألة حوادث صدفة غريبة ، كإصطدام في سيارة ، مثلاً).

ولنذكر أن العدو الطبقي ، في اميركا اللاتينية ، يلجأ إلى اغتيالات مختارة على نطاق واسع ، كقتل الرؤساء ، وترك الآخرين يعيشون ، تحقيقاً لمنفعة مزدوجة : عزل الرؤساء في حياتهم ، وإفساد المقاتلين الذين لا يريدون الموت. والطبقة المسيطرة تعرف تماماً كيف تختار اولئك الذين يجب قتلهم- السياسيون – العسكريون – وأولئك الذين يجب الاحتفاظ بهم في السجن أو في الشارع – السياسيون –، وأولئك الذين يجب أن يطلق سراحهم من السجن وتترك لهم حريتهم .لا مجال للمساومة مع معظم المسؤولين العسكريين ، أو رجال الجبال، فلا يمكن ان يتوقع منهم غير القتال ، لذلك يجب إزالتهم . هل يقبض عليهم أم يصفون في الجبال ؟ إذا كانوا ذوي خبرة، فإن ذلك مستحيل عملياً. لذلك فإن السبب الوحيد الــذي يلائم الشرطة ، والمستشارين من اميركا الشمالية ، هو أن ينزل هؤلاء الثوار إلى المدينة ، إلى أرضهم ؛ فإما أن يمرضوا فيضطروا للنزول من أجل العلاج ؛ وإما أن يُخانوا ، أو يعزلوا، فيضطروا للنزول إلى المدينة من أجل محاولة إصلاح الامور لدى السياسيين الميؤوس منهم . ويقـول فيديل : «المدينة مقبرة الثوار والموارد » . هـــذا بالاضافة إلى الأثر المعنوي البالغ السوء الذي يسببه نزول القائد إلى المدينة على المقاتلين من رجاله ، في ظروف الحياة التي يعيشونها ، والتي تفرض من القائد أن يكون دوره الأول هـو إعطاء المثل على الجلد والتضحية . فالأفضل من النزول إلى المــدينة للعلاج ، مصادرة طبيب ونصف مستشفى كما استنتج أحد قادة الثوار .

لا يجوز للقائد أن ينزل إلى المدينة لحضور اجتماع سياسي ، عليه أن يجعل السياسيين يصعدون إلى الجبل ، ليناقشوا في مكان أمين ، فوق ... وإلا فليرسل لهم مبعوثاً . وهذا يفترض – قبل كل شيء – ان يُعترف به قائداً مسؤولاً ، وأن يُمنح وسائل ممارسة هذه المسؤولية ، أو فلينتزع هو نفسه هذه الوسائل. وهذا يفرض بدوره وقبل كل شيء تبني استراتيجية صريحة وواضحة. ما هو الشكل الأساسي لصراع الطبقات في فترة معينة ؟ أين أرضه الاساسية؟ ما هو هدفه الاساسي ؟

٢–الافتقار إلى السلطة السياسية يؤدي إلى تبعية الجبل للمدينة في المسائل العسكرية ومسائل التحركات . وهذه التبعية كثيراً ما تؤدي إلى تخلي القيادة السياسية في المدينة عن حرب العصابات .

إن ربط رجال العصابات بقيادتهم السياسية في المدينة لا يؤدي فقط إلى خلق وضعية حقيقية بل إلى عقدة نقص فكرية وعقدة تبعية لدى رجال العصابات ، بحيث ينتظرون كل شيء من الخارج : ملاكاتهم السياسية ، التوجيهات ، المال ، السلاح ، وحتى تواريخ العمليات . فيضيع منهم بالتالي المبدأ السياسي والمعنوي ، وهو مبدأ الاعتماد على القوة الذاتية فقط ، وتتحول حرب العصابات يوماً بعد يوم إلى فريسة سراب المساعدات الخارجية الوشيكة . يجب انتظار وصول المساعدة الموعودة . وفي اليوم المحدد لا تصل المساعدة ، أو يصل النزر اليسير منها ، ويؤجل وصول الباقي إلى الغد . وبانتظار الغد ، يعيش الثوار بالتقتير ، ليروا إذا كانوا سيتسلمون الأحذية ، والأنسجة البلاستيكية ، والامدادات ، والوقود ، والأدوية ، والقناديل الكهربائية التي طلبت قبل ثلاثة أشهر ، وهكذا يترك الثوار كفاحهم المسلح ، ولو بفعل عدم الاكتراث .

وهذا شيء طبيعي ! فالعواصم ، وخاصة مدن الكاريبي ، تلك الفروع الأميركية الشمالية ، هي أشبه بالمطهر المقبول بالنسبة للتجمعات السكنية في

آسيا أو حتى في أوروبا .

كيف يمكن لساكن مدينة ، مهما كان ماركسياً ــ لينينياً ، أن يقدّر القيمة الحيوية لمتر مربع من النايلون ، أو لعلبة طعام محفوظ ، أو لزوج أحذية ؟ وكما يقولون « لا يعرف الشوق إلا من يكابده » . فهذه الأشياء تبدو تفاصيل صغيرة عندما ينظر اليها من الخارج ، هذه « الضرورات المادية » لصراع الطبقات ، هذه « الناحية التكنيكية » ، اذن الصغيرة (والثانوية) للأشياء : ردود الفعل الذهنية العفوية للبورجوازية تجاه هذه الأشياء . وكل رجل يعيش في المدينة ، حتى ولو كان رفيقاً ، هو بورجوازي دون أن يعرف ، بالمقارنة مع رجل العصابات : فلا يمكن لساكن المدينة أن يعرف مدى المفروض على رجل العصابات ، لتأمين أكله ونومه وتنقله . وباختصار لتأمين وسائل استمراره في الحياة .

الفارق كبير بين من لا يملك من وسائل العيش إلا ما ينتجه بنفسه ، بيديه ، ومن الطبيعة الخام ، وبين ساكن المدينة الذي يعيش كمستهلك ، يكفي أن يكون في جيبه ورقة مالية ليبتاع ما يمكن أن يكفيه طوال يومه . وإذا كانت النقود غير كافية في الماضي ــ فان تدفق اليانكيين (الاميركيين الشماليين) بمواكب الفساد التي ترافقهم ، جعل من الممكن كسب مزيد من الأوراق المالية من غير عناء يذكر .

الغاب في المدينة ليس بهذه الوحشية : الرجال فيها يتعاركون ليُعترف بهم ، كحيوانات متفوقة . لقد توقفوا عن القتال خوفاً من الموت . والحياة للجميع ، صحيح أن توزيعها غير عادل ، ولكنها موجودة على الأقل . انها عند التجار تحت اشكال المواد الجاهزة : اللحم المشرح ، الخبز المطهي ، الماء في الصنبور ، النوم دون أبراج حراسة ، تحت سقف ناشف ، النور في شوارع لا أفاعي فيها ، الغاز ، العلاج عند الصيدلي أو في المستشفى . يقال اننا نستحم في الوضع الاجتماعي ، والحمام إذا طال يصيب الجسم بالطراوة . ويجب الخروج من هذا

الحمام للتنبه الى أي حد يستطيع هذا « الحضن الدافىء » أن يبرجز الانسان ويبقيه في طور الطفولة .

في الايام الأولى في الجبال ، عندما يسجن الثائر نفسه في غـابة يقال انها عذراء ، تصبح الحياة بكل بساطة معركة كل يوم ، في أدق التفاصيل، وهي في البداية ، معركة الثائر ضد نفسه ، حتى يتغلب على طبـائعه القديمة ، وعلى علامات الرفاهية التي تركتها « الحاضنة » في جسده ، وعلى ضعفه . إن العـدو الذي على الثائر قهره في الأشهر الأولى ، هو نفسه ، والنصر ليس دائمـاً مؤكداً في مثل هذه المعارك . كثيرون يتخلون ، وينهزمون ، أو ينزلون الى المدينـة بملء اختيارهم لأداء مهمات أخرى .

إن العزلة المخيفة التي عاشت فيهـا عدة مراكز ثورية لأشهر ، وأحياناً لسنين ، لا يمكن تفسيرها اذن بمجرد عمليات التخريب الخفية ، وعـدم الاهتمام أو الخيانة من قبل الأجهزة الظاهرة،ولكن تفسيرها يكمن أولاً في ذلك الفارق الذي لا يمكن تغييره في ظروف الحياة،والذي يستتبع فارقاً فيالتفكير والسلوك بين بعض الرفـاق وبعضهم الآخر . فأحسن الرفاق ، سواء في العـاصمة أو في الخارج ، وحتى لو كان منتدباً لمهمات خطيرة ، ولو كان مخلصاً لعمـله ، يقع تحت وطأة هذا الفارق الذي يمثل « خيانة موضوعية » كثيرون منهم يعرفونهـا جيداً . عندما يتكلم ثوار العصابات مع رفاقهم المسؤولين في المدن ، أو مع ممثليهم في الخارج ، فانهم يتعاملون معهم كبرجوازية الثورة . وحتى لو احتاج الثوار الى بورجوازية – كالحاجة إلى رئة اصطناعيـة في لحظة الاختناق – فهم لا يستطيعون التغاضي عن هذا الفارق في المصالح وفي البيئة ؛ فالجهتان لا يتنشقان الهواء نفسه . وقد خاض فيديل كاسترو نفسه هذه التجربة ولم يتردد ، حتى وهو يخاطر بأن يصبح وحيداً في اللحظات الحرجـة ، من إدانة وطرد « بورجوازيته » ، الميالة إلى عقد محالفات دون مبـادىء : خاصة عندما نـدد باتفاقية ميامي ، في كتابه الرابع بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٥٧ ، الذي بدأت فيه الاخلاقية البروليتارية تواجـه السياسة البرجوازية . وقـد كانت الاخلاقية

البروليتارية تواجه السياسة البرجوازية. وقد كانت الاخلاقية البروليتارية مجسدة بجيش الثوار، ثم تكشفت بعد ذلك عن سياسة بروليتارية.

– التبعية المادية: بعض جبهات الثوار استطاعت ان تستمر سنة على مساعدة ٢٠٠ دولار، تلقتها من التنظيم السياسي الذي ترتبط به، والذي كان في الفترة نفسها ينفق ألوف الدولارات على مهمات دعائيـــة في الخارج والداخل، وعلى رواتب موظفين للحزب في خارج البلاد وداخلها، وعلى خلق أجهزة صحافة، وتنظيم مؤتمرات للعفو العام عن السجناء الخ .. أي أن كل هـــذه النفقات كانت للاستفادة من المجد الذي تحققه لها الجبهات المقـــاتلة، التي تعيش منعزلة، ومحرومة من وسائل القتال. لقد أمكن من هذه التجربة، ومن تجارب أخرى مشابهة، استخلاص هـــذه العبرة: من الأجدى والأكثر ضماناً للعصابة الثائرة ان تقوم هي نفسها، وانطلاقاً من قاعدتها، بغزوات تستعمل فيها السيارات إذا لزم الأمر (بمصادرة شاحنة لهذه المهمة ثم اعادتهـــا) للاغارة على قرى مجاورة لجمع المؤن والأدوات الريفيـــة (جرابات، أغطية، أحذية، ملابس الخ ...) مع انشاء مخازن خاصة، بطمر الحاجيات في التراب، أو اخفائها؛ وتتأمن بذلك حرية العمل لعدة أشهر [1]. ومهما كانت هذه العمليات محفوفة

---

١ ـ في هذا المجال أيضاً، فان ما يجري حالياً في عدد من دول اميركا اللاتينية قد أعلن عنه في تاريخ الثورة الكوبية. ويكفي الاستشهاد بهذا المقطع من كتاب لفيديل كاسترو موجه باسم جميع أفراد جيش الثوار إلى رئيس قسم الأسلحة:

«سيرا مايسترا، ٢٥ ابريل ١٩٥٨؛

العزيز بيبو، لقد قررنا ان ننظم جهازنا الخاص للتزود بالأسلحة من الخارج، فبعد سبعة عشر شهراً لم نتسلم خلالها أية مساعدة من قبل التنظيم (المساعدة التي وصلت قبل أسابيع كانت شيئاً مستقلاً)، أصبح من الصعب ان نثق بأي شيء سوى مجهودنا الخاص. لقد أنفق التنظيم مئتي الف بيزوس دون أن يرسل لنا أية بندقية أو أية رصاصة. أما السلاح الذي انتظرنا وصوله من المكسيك منذ أكثر من سنة فقد أصبح معظمه في أيدي العدو، ما عدا في بينار دل ريو. ان الأسلحة التي فقدناها دفعة وراء دفعة، قد أصبحت تنقصنا لدرجة ان بعض الرفاق اصبحوا يفكرون بأنه من الضروري فتح جبهات متعددة. بدلا من تعزيز جبهتنا الحالية».

بالخطر ، فإنهـا تظل أفضل من الانتظار الجامد : كانتظار مزاج التنظيمات السياسية في المدينة ، او امكانيتها – على ارسال المؤن ، أو مصادفات النقل ، والمصاعب التي تسببها عمليـات الحصار ، أو أي تحرك آخر تقوم به قوات العدو . كذلك فان عمليات كهذه تخفف إلى الحد الادنى امكانية التسلل الى عصابة الثوار ، أو تحديد مكانهـا ، تلك الامكانية التي تحصل دائماً من المدينة باتجاه الجبل ، ومن الخارج باتجاه الداخل ، وليس في الاتجاه المعاكس أبداً .

– التبعية العسكرية : لا يمكن للعمليات العسكرية أن تخطط قبل أشهر من أجل ان تنفذ في يوم محدد ، يتفق مع الروزنامة السياسية الوطنية التي حددتهـا الطبقة الحاكمة : انتخابات رئاسية أو برلمانية ، دورات مجلس الشيوخ ، مجالس متنوعة ، رحـلات رسمية . فمن البديهي ان يقوم بإعداد مخططات الريف ، أولئك الذين سيقومون بتنفيذها ، إما وحدهم ، أو بالتعاون المتبادل مع قيادة سياسية تتمتع بمعرفة عميقة ، تكتيكية ومفصلة ، للمسائل العسكرية .

أما القيادة السياسية التي تجهل هذه الأشياء ، فليس بامكانها أن تضع وحدها مخططات عسكرية ، حسب مقتضياتها ، وبما يتفق مع سياسة المناورة أو الضغط التي تمارسها على النظام البرجوازي ، ثم تنقلها إلى جهازها العسكري « حتى يضعها موضع التنفيذ » ، فتـأتي العملية شبيهة بطلبية اكل يمررها الزبون الى رئيس الخدم ، الذي يمررها بدوره إلى الطهاة . ومهما بدا التشبيه سخيفاً ، فان الطلاق بين النظرية والتطبيق، طليعة سياسية وطليعة عسكرية ،يمكن ان يصل وقد وصل بالفعل ، الى هذه الأوضاع اللامعقولة .

٣ – الافتقار إلى القيادة الواحـدة ، الذي يؤدي الى الافتقـار لخطة عمل عامة . ليس من الممكن مزج وتنسيق الوسائل المتوفرة بمـا يتمشى مع الاتجـاه العام للعمل . إن الافتقار إلى الوحدة في القيادة يضع القوات الثورية في وضع خادم المدفع الذي ليس لناره أي اتجاه محدد ، فيضيع المهـاجمون في الطبيعة ، ويطلقون النار كيفما اتفق ، ويموتون من أجل لا شيء . الكل يعلم أن عدد

وقوة الوسائل النارية لا يصلح لشيء من غير خطـة لاطلاق النار ، ومن غير تحديد قطاع خاص يجب اسقاطه بنيران متقاطعة أو مركزة ؛ وغياب القيادة التنفيذية المركزية ، أي القيادة السياسية – العسكرية ، يؤدي الى مثل هذا التبذير ، وهذه المذبحة التي لا طائل تحتها . ليس الحزب – او الجبهة – بذراع واحدة : ذراع مسلحة وتقابلها ذراع شرعية ، مسالمة . كيف ندمج عمل الاثنتين ؟ والأسوأ من ذلك : كيف يمكن دمج جناحي الجهاز العسكري : العصابات الريفية ، والمقاومة السرية في المدن ؟ إن قيادة شديدة التماسك والحيوية ، مستندة إلى مخطط استراتيجي منطقي ، طويل الأمد ، ويحركها تحليل سياسي لا غبار عليه ،تستطيع وحدها دمج هذين الطابعين للعمل المباشر. أما إذا أرادت القيادة السياسية ان تحمي جلدها ، وبقيت في المدينة ، فانها ستتعرض حتماً للتدمير والتفكيك من قبل السلطة . والمسؤولون يعرفون ذلك أو يحسّون به . ولكن قوة التقاليد ، والالتصاق كالاسفنجة بأشكال تنظيمية محددة ، ومكرسة ، ومتصلبة بمرور الزمن ، يمنع كسر هيكل جاهز ، والانتقال الى شكل نضالي جديد تفرضه حالة الحرب . وهذا النوع من المقاومة طبيعي : لقد اصطدم به البلشفيون ولينين حتى ١٧ اكتوبر .

واليوم ، هناك بلاد كثيرة يوافق فيها القادة السياسيون ، في لحظة معينة ، على ترك المدينة والانتقال الى الجبل ، والتخلص من القمع المتزايد ؛ أما في الواقع ، فانهم يؤجلون ساعة الانطلاق من يوم إلى يوم : كل يوم يوجد انقلاب « في الهواء » ، او اجتماع مؤخر ، أو أمل بحل الأزمة في لمح البصر ، هناك دائماً حجة . حتى يأتي اليوم الذي قد تمّ فيه كل شيء : يقبض عليهم البوليس ، أو يقتلهم . فتسقط القيادة التقليدية اذن . وتعين مكانها ، وبصورة مستعجلة ، قيادة أخرى ، سرية ، ليس لها مزايا الأولى ، التي انتخبت في مؤتمر عادي وأصبحت في السجن أو في القبر ، منقطعة عن القواعد والأجهزة النظامية . تقوم القيادة الجديدة المرتجلة بتصفية كل ما يتكدس أمامها ؛ تسهل

الاعمال الجارية ، فيمتصها روتين العمل السري ، فتصاب بسرور شديد لتمكنها من الاستمرار في إدارة الحزب ، وتركن القرارات الهامة وتتهرب من اتخاذ مواقف حاسمة منها ، فتترك عصابات الثوار على حالها ، حينما كانت أما العصابات التي تنتظر تحسن الأوضاع ، فانها تستمر في دعم القيادة السياسية دائماً ، ودائماً بتضحيات كبيرة .

وفي كل الأحوال ، تسعى هذه القيادة الى الاستفادة من حسنات جميع أشكال النضال ، دون مساوىء أي شكل منها : ترفض أن تختار شكلاً من النضال كخطة أساسية ، وشكلاً آخر كخطة مساعدة ، وتترك الذراعين يتحرك كلٌ في اتجاه ، لحسابه الخاص ، ودون تنسيق بينهما ودون تكامل في المهمات . فتقوم هذه القيادة المحددة ، الاصلاحية ، أو المزقة ، بتحويل الحركة الثورية الى دمية لا حراك فيها . وفي زمن القتال ، فان أي انحراف في القمة ، في الرأس ، يمكن أن يولد انحرافاً في اتجاه معاكس في جناحي الجهاز العسكري : بحيث ان أحلام القيادة السياسية بالعمل من خلال أوضاع « شرعية » ، يقابله في الجهاز المسلح ، ميل إلى العنف العفوي في المدينة ، وميل إلى عمل العصابات الارهابية في الريف .

أ ــ الأعمال غير المسؤولة في المدينة : في حال غياب قيادة موحدة ، لا توجد استراتيجية واضحة للكفاح المسلح . وفي حال غياب الاستراتيجية الواضحة ، لا توجد خطة عمل . وعصابات الثوار منقطعة عن المدينة : كل يعمل لحسابه ، لا رابط بين القوات التي تعمل في المدينة ، أو من يحل محلها ، وبين الجبل . ومن أجل إيجاد هذا الرابط الواضح ، لا بد من الاعتراف بالعصابات الثائرة كجناح قيادي ، وكمحرك للتنظيم . أما في الحالات المعاكسة فلا بد من وقوع الحوادث الفردية ، والفوضوية في المدينة ، بشكل لا يهدد فقط مخطط العصابات الثائرة في الريف ، بل اتجاه المعركة من أساسها .

وفي عام ١٩٦٠ ، كتب شي غيفارا : « من الأساسي أن نوضح أن

العصابات التي تقاتل في ضواحي المدينة ، لا يمكن ان تثبت لوحدها ، ولكنها لا بد ان توضع تحت امرة قواد في منطقة ثانية . ولا تكون مهمة هذه العصابات القيام بأعمال فردية بل تنسجم مع المخططات الاستراتيجية المرسومة [1] .

ومن الواضح أن الإرهابي في المدينة لا يمكنه ان يلعب اي دور حاسم ، بل انه يجر في الوقت نفسه بعض الاخطار على المستوى السياسي . ولكنه إذا ما كان مرتبطاً بالنضال السياسي ، نضال الريف ، فإنه يتمتع ، من الناحية العسكرية ، بقيمة استراتيجية : فهو يضطر الالوف من جنود الاعداء للتجميد فيجعل الجزء الاكبر من أجهزة القمع في مهمات الامن العقيمة . ذلك ان حماية المصانع والجسور والمحطات الكهربائية والمباني العامة والطرقات وأنابيب النفط يمكنها أن تشغل ثلاثة أرباع الجيش . وتضطر الحكومة في مثل هذه الاحوال لحماية كل من لديهم ممتلكات ، أما رجال العصابات فليس لديهم ما يحمونه في أي مكان ؛ ليس لديهم أعباء تثقل كاهلهم . لذلك فان ميزان القوى بين الدولة والثوار لا يمكن ان يحدد بالتعادل الحسابي . ففي كوبا – مثلاً – حيث كان باتيستا يملك خمسين ألف رجل ، لم يكن باستطاعته أن يستعمل أكثر من عشرة آلاف دفعة واحدة ضد الثوار . اما جيش الثوار فقد أصبح غير قابل للهزيمة ، على حد قول قائده ، عندما بلغ عدده نسبة واحد الى خمسمئة .

ولأن كاسترو قد فرض منذ اليوم الاول استراتيجية واضحة ومستنيرة لدرجة أصبحت معها قوات السادس والعشرين من يوليو اكثر عدداً وتنظيماً في المدن (سانتياغو ، وهافانا) منها في السيرا – في تلك الفترة من النضال جرى التركيز على تنمية العصابات الريفية ، جيش الثوار الذي يتولى قيادة الحركة : فهناك كان رأس البلاد بأسرها : وكان أول ما فعله كاسترو عندما نزل إلى الجزيرة ، ان كلف فوستينو بيريز بتنظيم الحركة في هافانا ، مع اعطائه كامل الصلاحيات ، ليضع الحركة تحت امرة قوة كانت ، كما تعرف تجمع

---

١ ـ كتاب « حرب العصابات » .

عشرين رجلا (يناير) ١٩٥٧ . كان يجب ارسال جميع الاسلحة المتوفرة الى سييرا مايسترا ، دون الاحتفاظ ببندقية واحدة داخل المدينة : وقد تبدو هذه النظرية فاضحة ، لأن المقاومة في المدينة كانت تتطور كما تطورت حاجتها الفعلية الى السلاح . وقد خلفت هذه النظرية بالفعل اكثر من خلاف مع جناح الحركة في المدينة ، واكثر من امتعاض ، ولكنها أدت في حد أدنى من الوقت الى خلق « القوة الاستراتيجية المتحركة » جيش الثوار ، في اول جبهة في السييرا مايسترا . هــذه الجبهة كانت هي التي تولت تصفية النظام ، في نهاية المطاف . « كل الاسلحة الى السييرا » : على هــذا الوتر ظلت تضرب جميع رسائل فيديل كاسترو الى فرانك بايس ، قائد الحركة في سنتياغو .

وبعــد موت فرانك بايس ، استمر كاسترو في إلحاحه . ففي ١١ اغسطس ١٩٥٧ كتب الى آلي (سليا سانتشيز) : « الشعار الاصح الذي يجب أن نرفعه الآن هــو : « كل البنادق ، كل الرصاص ، وكل الموارد الى السييرا » . وفي رسالة أخرى لآلي ، في ١٤ اغسطس ، طرح كاسترو ايضاً الشعار نفسه .

لم تتوقف التناقضات بين جناحي حركة التحرير عن النمو ، وهــذا امر لا يمكن تلافيه . لأن تطور الجناحين ونموهما لم يكونا متناسقين ، وعلى جميع المستويات ، سواء من ناحية عــدد الرجال ، او من ناحية نوعيتهم . من هنا تأتي أخطار العرج الذي يمكن أن تصاب بة مسيرة الحركة . وكما رأينا ، فان الجبل يحول البرجوازي والفلاح الى بروليتاريين ، أما المدينة فان بإمكانها أن تبرجز حتى البروليتاري. وكانت النزاعات التكتيكية التي لم تكف عن الظهور والخلاف في التقدير وفي الخط ، كانت كل هــذه الاشياء تعــود الى صراع الطبقات ، حيث مصالح البروليتاريا في غير المكان الطبيعي . واذا كانت هــذه الخلافات قد قدر لها ان تحل بسرعة في كوبا ، واذا كانت المسيرة الاشتراكية قد استطاعت أن تشق طريقها بسهولة بعد الاستيلاء على السلطة ، فلأن فيديل كاسترو قد طلب ودافع وناضل من اجل هيمنة ثوار الريف ، منذ اليوم الاول .

من الاعمال النادرة التي تمكن « السهل » من اقتراحها وفرضها ، اضراب عام نفذ في ابريل ١٩٥٨ ؛ وقد انتهى هذا الاضراب بكارثة ، وأدى الى ردود فعل خطيرة على مجموع الحركة . وكانت قيادة جيش الثوار قد تركت الأمر يأخذ مجراه . بل إنها ساهمت إلى اقصى حد ، وعن إيمان صادق ، في التحضير للاضراب .

وكان فيديل في الجبهة الأولى ، وراوول في الجبهة الثانية يقولان : إن الذين يعيشون « تحت »أن يقرروا ماذا يجب ان يجري « تحت » ، ولا يمكن للسييرا ان تعرف عن المدينة أكثر مما يعرفه اولئك الذين يعيشون في المدينة .. ومن أجل هذه القاعدة المنطقية البديهية ، لم يعارض كاسترو الاضراب . فذهب ضحية « ذاتية » الجناح المدني للحركة . إلا أن فشل الاضراب العام نقل إلى السطح ازمة مستترة ، وسمح في الوقت نفسه بحل هذه الازمة .

فعلى صعيـــد التنظيم ، أعيد تشكيل القيادة وازيحت جميع العراقيل التي كانت موضوعة في وجه السييرا ، فتولت قيادة جيش الثوار المسؤولية الوطنية العامة للحركة . وعلى صعيد مفهوم الكفاح ، تمّ نهائياً تكنيس المفهوم «المدني » للكفاح بالنسبة للسهل . كانت عصابات الثوار رمزاً مرشحاً لخلق ظروف تسمح بإجراء انقلاب في العاصمة . أما بالنسبة للسييرا فإن عصابات الثوار كان باسطاعتها ومن واجبها ان تقدم حلاً عسكرياً للمشاكل السياسية التي لم يكن من الممكن حلها بطريقة أخرى . وهكــذا كتب فيديل قبل الاضراب: « إذا نجح (باتيستا) في سحق الاضراب ، فإن ذلك لن يحل شيئاً؛ لأننا سنواصل الكفاح. وبعـــد ستة اشهر فقط سيكون الوضع اسوأ (رسالة إلى ناسين ، ٢٣ مارس ١٩٥٨) . كانت السلطة الحاكمة تملك جميـــع وسائل قمع وسحق اضراب عام ، إلا ان هذه الوسائل لم تكن تنفع هذه السلطة في احراز النصر في حرب عصابات . وهكـــذا كانت « السييرا » هي التي نفذت الثورة بعد أن جرّها « السهل » إلى حافة الخطر . وكان منطقياً أن تتسلم السييرا مسؤولية قيادة

الثورة بعد فشل الاضراب وبعدما اتضح لدى الجميع أن السييرا وحدها تستطيع إنقاذ الثورة .

بعد النصر ، عـــاد فيديل في احـــدى خطبه إلى التناقضات الاساسية . الستراتيجية والطبقية ، التي كانت تكشف عن هذه الخطوة الخاطئة ، والمناقشات التي رافقتها ١) .

هذا التباعد ، وهذا التمزق بين قوى الجبل وقوى السهل ، جاءت التجربة

---

١ - شرح شي غيفارا الخلاف كما يلي : « ومن وجهة اخرى ، فقد صرح فيديل بوضوح : « هناك شرط اساسي يجب ان يتوفر في الانسان الثوري ، وهو معرفته بتفسير الحقيقة » . وفي حديثه عن اضراب ابريل ، شرح كيف اننا لم نحسن تفسيره في حينه ، وأننا لذلك واجهنا كارثة . لماذا اعلن اضراب ابريل ؟ لأنه كان يوجد في داخل التنظيم تناقضات كنا نطلق عليها اسم «الجبل والسهل» وكانت هذه التناقضات تبرز من خلال التحليلات المختلفة للعناصر التي كانت تعتبر أهم ما يمكن أن يقرر الكفاح المسلح ، وكانت هذه التحليلات متعاكسة تماماً لدى جناحي التنظيم .

كانت السييرا على استعداد لدحر الجيش كلمـــا لزم الأمر ، وأن تربح المعركة تلو المعركة ، وانتزاع المزيد من الأسلحة ، حتى الوصول في يوم من الأيام إلى السيطرة الكاملة على السلطة بواسطة جيشها الثائر . وكان السهل يحبذ كفاحاً مسلحاً في جميع أنحاء البلاد ، على أن ينتهي هذا الكفاح باضراب عام ثوري يعزل ديكتاتورية باتيستا ، ويقيم مكانها سلطة « المدنيين » كحكام ، ويصبح الجيش الجديد - جيش الثوار - بعيداً عن السياسة .

« وكانت هذه النظريات تتصادم باستمرار ، مما كان لا يخدم أبداً الوحدة المطلوبة في قيادة حركات كهذه الحركة . وجاء اضراب ابريل - تحضيراً وتقريراً - من قبل قيادة السهل ، وموافقاً عليه من قبل قيادة السييرا ، التي لم تشعر بنفسها القدرة على منعه ، مع انه كان لديها شكوك جدية حول نتائجه ، ومع التحفظات التي اعلنعنها حزب الشعب الاشتراكي ، الذي رأى الخطر في حينه . وتوجه القادة العسكريون إلى السهل لمساعدة الاضراب ، وهكذا بدأ كاميليو سينفويغوس - قائد جيشنا الذي لا يمكن أن ننساه - غزواته الأولى في منطقة بايامو .

هذه التناقضات كانت لها جذور أعمق من الخلافات التكتيكية : فالجيش الثوري كان قد أصبح بروليتارياً على الصعيد العقائدي - وبدأ يفكر كطبقة محرومة ، وبقي السهل «برجوازية ، صغيرة » ، على رأسها من انتقلوا فيما بعـــد إلى صفوف الخونة ، وكانت شديدة التأثر بالأوساط التي تنمو فيها » .

شي غيفارا في مقدمـــة كتاب « البارتيدو ماركسيستا - لينينيستا » (الحزب الماركسي اللينيني) .

المعاصرة في اميركا اللاتينية تؤكدها ، وتعطيها قوة القانون .

ب – التمزق داخل العصابات الريفية الثائرة نفسها .

إن غياب القيادة الواحدة والادارة المركزية يمهد باكراً إلى خلق عدة مراكز ، ونظراً إلى النسبة غير المتكافئة في ميزان القوى الموجودة في المرحلة الأولى بين الرجعية والمعسكر الشعبي ، فإن هذا يضعف العصابات الثائرة اكثر مما يضعف جيش السلطة . وذلك أن لدى السلطة ، في البداية ، قدرة على توزيع قواها ، لا تملكها عصابات الثوار .

وبما أن الجيش – والحالة هذه – يهاجم كل مركز ثوري على حدة ، فإنه يسجل في كل مرة نصراً سهلاً ، لم يكن ليوفر له بهذه السهولة لو كانت المراكز الثورية مجتمعة في مركز واحد .

وفي هذا الصدد ، فإن مثال البيرو يتحدث لوحده . ولا تبدو صحة اتساع الأراضي مقبولة لتأخير تدعيم مسبق لقوة متحركة يكون لديها الحد الادني من المقدرة النارية التي تؤمن لها مقدرة هجومية ذات شأن ضمن حدود معينة .

مثل آخر في فنزويلا حيث تكاثرت مراكز عصابات الثوار بسرعة منذ ١٩٦٢ . تكاثراً اصطناعياً لم يكن ينسجم مع نمو حقيقي لحركة كفاح مسلح ومع المقدرة الهجومية المفروض توفرها لهذه الحركة .

هذا النمو القسري ، المسبب بغياب القيادة الواحدة والناتج عنه . اضعف في الواقع حركة الكفاح المسلح . وربما كان هذا من اسباب التأخر الذي عانت منه حركة الكفاح المسلح الفنزويلي قبل أن تتشكل كطليعة سياسية ، عسكرية . وتصبح لها قيادة واحدة (١٩٦٦). وهذا يدل ، على كل حال ، على أن حركة التسلح في فنزويلا لم تكن حركة منتظمة ، ومطيعة لمخطط عمل انضج لها سلفاً ، كانت الحركة نتيجة هذا التجمع العفوي الفوضوي ، للمراكز الثورية ، بواسطة اشخاص غير مدربين . فقد معظمهم حياته في الاشهر الأولى .

ومن المراكز الأخرى التي صمدت للموجة الهجومية الأولى (فالكون ، لارا ، تروخيليو ، اورينتي) ، لم يستطع احد منها أن يتطور بسرعة وقوة تسمحان لها بأن تستقطب حوله صراع الطبقات .

وهكذا فإن أياً من هذه المراكز ، لم يستطع أن ينازع جدياً ، وحتى تاريخ قريب ، مراكز السلطة الموزعة ، التي كانت تمثلها الاحزاب السياسية القائمة .

لقد أدى عدم وجود قيادة واحدة تنفيذية حقاً ومحترمة للكفاح المسلح ، إلى تشتيت الجبهات ، وهذا التشتيت أخّر بدوره ظهور قيادة موحدة .

هذا التأخير قد يكون مقصوداً ، أي أن جبهات جديدة للكفاح المسلح تنشأ خصيصاً لتؤخر الوصول إلى القيادة الواحدة المنشودة . ولكن في هذه الحال تكون المسألة عبارة عن مخازن لاحتياطي يستعمل ما بعد النصر ، أكثر من مسألة جبهات مسلحة فعالة .

هذه الجبهات المفتعلة لا تعد نفسها لخوض المعركة بل لتربية جمهور « احتياطي سياسي » ولتوسيع دعاية محركيها . فتبنّي العمل المسلح يعطيها مجداً ، ويسمح لها بالتحدث بصوت عال وبفرض نفسها على مسرح السلطة . إن مجرد التناحر بين المنظمات المتنافسة ، أو شعور البرجوازية الصغيرة بالغبن امام طليعة ثورية ، يمكنهما أن يقودا العصابات الثائرة الريفية الى التشتت والجمود .

لقد استطاعت كوبا ، بظروفها الخاصة ، أن تقدم مثلاً على التطور المتناسق لحركة الكفاح المسلح ، انطلاقاً من نواة مركزية واحدة ، يتم نموها بشكل طبيعي . ويستمر نمو هذه النواة إلى الحد الذي يصبح فيه عدد رجالها عبئاً ثقيلاً على الموارد المحلية للطعام والمؤن الأخرى . مما يهدد النواة بالانفجار . فمن النواة الام . السييرا — مايسترا ، تفرعت خلايا تحمل « جراثيم » التطور ، حسب قوانين الطبيعة : تنمو اولاً الخلية الام حتى ١٢٠ إلى ١٥٠ رجلاً . واما ما تعدى هذا الرقم فإنه يهدد الخلية بأن تستنزف موارد المنطقة ، وتصبح اكثر

من ذلك ، كثيرة العدد بالنسبة لهـذا النوع من الأرض الذي تجري فيه عملياتها في ظروف حرب غير نظامية ، أرض لا يمكن لها ان تفرخ وحدات كبيرة . لذلك فإن هذه الخلية تنبت بالتتابع خلايا أخرى تتكون أول الامر من اربعين إلى خمسين أو ستين . « سلمت الخلية الاولى ، في جبهة السييرا مايسترا ، إلى شي غيفارا في يوليو ١٩٥٧) هذه الخلايا شكلت جبهات جديدة ، ثم فرخت هي الأخرى ، وحسب المبدأ نفسه ، خلاياها ووحداتها التكتيكية . فإذا كانت احدى هذه الخلايا معدة لمنطقة بعيـــدة ، بحيث يصبح التنسيق التكتيكي بين الخلية وهـــذه الخلايا مستحيلاً ، فإن الخلية الجديدة تفتح جبهة أخرى تنبت خلايا أخرى .

فقـــد رحل راوول كاسترو من السيترا مايسيرا نحو شمال الاورينتي مع ستين رجلاً تقريباً ، وفتح جبهة جديدة اصبح لها عدة خلايا . اما الميدا فقـد انطلق في مارس ١٩٥٧ بأربعين رجلاً نحو منطقة سانتياغو دي كوبا . حيث شكلوا فيما بعـــد ما سمي بالجبهة الثالثة ، وفي اغسطس ١٩٥٨ ، انطلق شي غيفارا مع مئة وعشرين رجلاً نحو لاس فيلاس ، وهناك فجر المعركة إلى الحد الاقصى بمساندة خلية كاميلو سينفويجوس – الذي كان قد ترك سييرا مايسترا مع تسعين رجلاً – وكان على كاميلو أن يفتح جبهة في غرب البلاد في مقاطعة بينار دل ريو – ولكنه في بداية ديسمبر ، وبسبب التطور المذهل للمعركة وتوقع قرب انتهائها ، تلقى أمراً بأن يساند بجميع رجاله العمليات التي يقوم بها شي غيفارا في لاس فيلاس ، من أجل شق أرض المعركة إلى نصفين ، وتصفية قوات باتيستا الرئيسية المتجمعة في المنطقة الشرقية .

إن ميزة هـذا الأسلوب ، الانطلاق من الصغير إلى الكبير ، الذي يبـدو طبيعياً لدرجة توهم بأنه كان حتمياً ، هي أنه يعلن في الوقت نفسه عن وجـود قيادة مركزية لا تناقش ، مع حرية تكتيكية كبيرة للضباط والخلايا .

وكلما كانت القيادة المركزية قوية ، كلما كانت الاستراتيجية التي قررتها

القيادة منذ البداية واضحة وحازمة ، كانت حرية العمل ومرونة التكتيك بالنسبة لمختلف الجبهات والخلايا ، اكبر .

إن تركيز الوسائل والرجال في مركز ثوري واحد ، يسمح بتكوين عقيدة عسكرية واحدة ، على حرارة المعركة التي ينصهر فيها جميع الرجال معنا .

إن عقيدة عسكرية في هذا المستوى ، تحدد مجموعة من القواعد التكتيكية الصغيرة التي اثبتت فعاليتها :

مهاجمة القوات بالتحرك ، وليس في العسكرة والتمركز ، مهاجمة قوى الدعم للعدو ، وبطريقة مرحلية ،أي بتحضير كامين مسبقة في طريق مرورها. الاحتفاظ باحتياطي حتى تستطيع ، بعد الكمين ، التغلب على قوة العدو المنسجمة ، التي تكون قد انهارت معنوياتها وأثقل كاهلها بالجرحى والموتى الذين تنقلهم معها، منع معظم المقاتلين من الاحتفاظ بأية رصاصة في بيت النار قبل بدء اطلاق النار ، شطر وتدمير طليعة صفوف العدو بكمين مزدوج للتجميد من أجل شطر الصفوف إلى نصفين ، وللابادة من أجل تدميرها .

بعد شطرها ، الاستفادة إلى الحد الاقصى من المحطات الكهربائية البعيدة المدى ، تقديم عملية جمع السلاح على عملية الإبادة الجسدية للعدو ، الاحتفاظ بالمبادرة في اختيار المفاجآت وتصعيد الاستفزازات ، أي تعويد العدو على نوع معين من الاعمال في نقطة معينة لمفاجآته على حين غرة بعمل من نوع آخر في النقطة نفسها ، اطلاق سراح المساجين ، والعناية بالاعداد للجرحى الخ ... هكذا يتم رويداً رويداً تكوين ضباط في مدرسة خلقية، سياسية وعسكرية، ضباط باستطاعة القيادة في اليوم الموعود ، أن تسلم لهم بكل ثقة الإدارة الستراتيجية لمنطقة أو لجبهة، دون أن تكون بحاجة لمراقبة اعمالهم . لقد نشأوا كلهم في مدرسة واحدة ، بثت فيهم روحاً مشتركاً ، وقواعد تكتيكية وخططاً عاماً للعمل السياسي والعسكري .

وفي عدة مناسبات، كان يبدو فيها التوسّع ذا فائدة كبيرة ، وقف كاسترو

بحزم ضد التوسّع المبكر لجبهات أخرى لحرب العصابات ، كما حصل في مايو ١٩٥٧ ، بنتائج مفجعة ، قرب محطة ميراندا .

«لقد كان علينا أن نبرهن أننا احياء ، لأننا كنا قد تلقينا عدة ضربات في السهل ، فسقطت الاسلحة التي كان مفروضاً أن نفتح بها جبهة ابتداء من محطة ميراندا في أيدي البوليس الذي سجن عدداً من القياديين المهمين ، بينهم فوستينو بيريز . كان فيديل قد عارض فصل القوى ولكنه تراجع أمام الحاح « السهل » . ومنذ ذلك الحين ثبتت صحة نظريته ، وانصرفنا إلى تدعيم السييرا مايسترا التي اصبحت المرحلة الأولى نحو توسيع جيش حرب العصابات [1] » .

د - الادارة المغفلة لجبهة سياسية مرتجلة .

إن عدم وجود قيادة موحدة يطلق اشكالاً غير محدودة للتعويض عن هذا النقص . أكثر هذه الاشكال حظوة يتلخص في التسهيل لاحياء جبهة وطنية ، يوضع الجناح العسكري رسمياً تحت امرته[2] وتصرف طاقات كبيرة في تشكيل جبهة وهمية ، عمادها الاساسي هو الحزب الذي شكلها ، وبما أن حزباً لا يمكن أن يكوّن جبهة ، فإن الحزب يخترع منظمات جديدة ، تخلقها على حساب القوى الحزبية ، ويجري البحث عن « الشخصيات المستقلة » التي يمكن البوح باسمها فتزداد اسطورتها تزويقاً ؛ كل هذه الطاقات والمجهودات يحرم منها تطور الكفاح المسلح ، لاعطاء هذا الكفاح ، حتى قبل أن يتأكد ويتسع ، غلافاً منتفخاً . ردة الفعل التقليدية !عدم عقد محالفات حقيقية ، على اهداف محددة ، حول قوة ناجزة ، بل تقديم واجهة بأي ثمن ، وتزيين الواجهة قبل تأثيث المنزل ، ويتم وضع برامج رائعة توزع في الخارج بكثرة ، دون أن تكون معروفة في الداخل ، ويعتقدون أنهم خلصوا ذمتهم مع التاريخ لأنهم برمجوا

---

١ - « ذكريات الحرب الثورية » .

٢ - جبهة المقاومة المتحدة في غواتيمالا ، والقوات المسلحة الثورية الأولى ، الـتي كشفت حركة ادكار ايبارا بطلانها (اقرأ الرسالة) ، وجبهة التحرير الفنزويلية ، الخ ...

المستقبل ، من غير اهتمام – في الوقت الحاضر – بالحصول على الوسائل الفعلية لتحقيق مجرد الكلمة الأولى من البرنامج ، البرنامج الجبهة ، المحالفات ، كل هـذه الآلات الاصطناعية تمتص الاهتمام صارفة النظر عن إيجاد أداة التنفيذ ، الجيش الشعبي ، الذي وحده يستطيع أن يعطي الجبهة الوطنية جديتها الدولية وفعاليتها . لا يمكن الخلط بين الحرب وبين الدعاية للحرب ، ولا تستطيع أية جبهة مصطنعة أن تسد فراغ قيادة عسكرية وسياسية. فالرغبة في تقنيع فراغ بفراغ آخر لا تلغي الفراغ الاول ، بل تضيف إليه فراغاً ثانياً .

مرة أخرى ، ورغم كل التجارب المكتسبة حتى الآن ، ما زال يتم تقديم المؤسسات على الافعال ، وتعمـد حركات ثورية ناشئة أو مجموعات صغيرة لا يزيد عدد أفرادها على عشرات الرجال ، حتى قبل أن تبدأ عملها ، إلى اعـداد نظام داخلي أكثر تعقيـداً وابهاماً من النظام الداخلي في وزارة ، نظام مليء بالوصايا ، وبالاتجاهات ، وبالمهام ، كما لو أن جـديـة الحركة الثورية تقاس بعدد تقسيماتها ، واشكالها التنظيمية ، التي تستبق المحتوى المطلوب تنظيمه . لم يتحرر بعد من الوسواس القديم ، وما زال يعتقد أن الوعي والتنظيم الثوريين يجب ويستطيعان في جميع الحالات أن يسبقا العمل الثوري . لنبحث جيداً : هذه المثالية الساذجة هي التي تلهم اولئك الذين يستسلمون للافيون الانتخابي ، والذين تتحقق الاشتراكية في نظرهم عنـدما ينتخبهم نصف المسجلين على الجدول الانتخابي زائد واحد . وهكذا يتم الوصول إلى التناقض التالي : تطبق على الكفاح المسلح – من غير وعي – الفرضيات الـتي تسيّر نشاطـات الاصلاحيين السلمية ، لماذا إذن الدهشة إذا انعكست الخطوات الخاطئة لهؤلاء على بعض العصابات الثائرة ؟

في البداية ، يجري التطور من الاصغر إلى الاكبر ، ولا ينفع في شيء السير في الاتجاه المعاكس ، الاصغر هو مركز العصابات الثائرة ، نواة الجيش الشعبي ، ولا يمكن لجبهة أن تخلق هـذه النواة ، ولكن النواة كلما تطورت ، هي التي تسمح بخلق جبهة وطنية ثورية ، الجبهة تتكون حـول شيء موجود ، وليس

فقط حول برنامج تحرير ، والحرك الصغير هو الذي يدير « المحرك الكبير » للجماهير ويعجّل في تشكيل جبهة ، بتصاعد الانتصارات التي يحرزها المحرك الصغير ..

ويعلمنا التطبيق الكاستروي لحرب العصابات التناقض التالي : كلما كانت النواة الثورية ضعيفة ، كلما كان عليها الحذر من التحالفات ، وكلما قويت النواة ، استطاعت أن تسمح لنفسها بالبحث عن التحالفات ، لأن الجيش الشعبي هو الذي يسيطر ، ولأن المبادىء – مبررات القتال – تكون بالتالي في مأمن . وتكون هذه النظرية متشددة كما لو كان الأمر يتعلق بحماية الضمير الحي والطهارة الثابتة للنواة المسلحة ، ولكنها لا تكون كذلك عندما يتعلق الأمر بنواة متحركة ، ومصمّمة لتحرك وتقود حرباً هجومية لا هوادة فيها . فإذا أرادت هذه المجموعة الصغيرة أن تنجو بنفسها ، فإنها لا تستطيع أن تظل بلا حراك ، مكدسة على بعضها . إنها تلعب لعبتها المصيرية « الوطن أو الموت » ، فإما أن تموت موتاً جسدياً ، واما أن تنتصر ، فتخلص الوطن وتخلص نفسها ..
ويمكن القول ، إن جيش الثوار منذ ناضل في البداية ضد الوحدة بأي ثمن ، من غير مبادىء ، ليجمع بواسطة الحرب مناضلي الأحزاب الأخرى بأسره ، بإشراكه في الحرب نفسها ضد الدكتاتورية . ومرة أخرى فإن الرسالة التي وجهت إلى المنظمات المنفية ، ونددت بمعاهدة ميامي ، هي مثال صارخ . تنتهي الرسالة بهذه الكلمات : « ليس المرء بحاجة إلى شركاء حتى يسقط بشرف » .

هذه الجدلية الغريبة تنعكس على علاقات العصابات بالجيش . في البداية ، عندما كان الثوار ضعفاء ، عمل كاسترو إلى اقصى حد على تيئيس محاولات الانقلابات والاتصال بالجيش . حتى لو قام إنقلاب لصالح « ٢٦ يوليو » فإنه سيكون في غير صالح الجيش الثائر ، إذ يصبح بإمكان « مجلس تحرير » أن يصادر ويوقف التطور الثوري بسبب ضعف التوازن . أما فيما بعد ،

وعندما أصبح لدى السييرا مايسترا قوات كافية ، وأصبح معترفاً بها كطليعة ، شيئاً فشيئاً ومن قبل الشعب بأسره ، لم يكن فيدل يضيّع فرصة للاتصال بالعسكريين ، ليس من أجل تحريك انقلاب ، ولكن للتعجيل في تحلل النظام ، وتسعير الخلافات داخل الجيش إلى درجة حادة ، خاصة بين صف الضباط وبين القيادة العليا في هافانا ، وحتى لو وقع انقلاب عسكري ، فلم يكن باستطاعته أن ينحرف بالكفاح الشعبي . كان بإمكانه أن يقسم قوى العدو ، ولكن ليس قوى العصابات الثائرة التي كانت ستتابع القتال ضد العسكريين بمزيد من الانطلاق [1] . في اكتوبر ١٩٥٨ كتب كاسترو لاحد الرفاق في التنظيم : « ليس الانقلاب ثورياً ، ولكن الثوري هو انخراط العسكريين في الكفاح المسلح » (رسالة إلى كاماشو ، ٢٩ اكتوبر ١٩٥٨) . هذا الدمج الذي قد يبدو خيانة بالنسبة للعسكريين ذوي الولاء لمؤسساتهم ، كان يكتفي بدعوتهم إلى مفاوضات الصلح ، إلى القاء السلاح أو إلى تحييد بعض الوحدات ، من غير أن يفرض عليهم أبداً شروطاً مهنية ، القبول بالكلام ، معناه البدء بالتردد ؛ وكلما تلقى صف الضباط مزيداً من الضربات ، فإنهم كانوا يستجيبون أكثر فأكثر إلى رسائل قيادة الثوار ، برغم السمعة المخيفة للجنود المجرمين التي روجت لها دعاية باتيستا بين الثوار .

ليس للحرب النفسية من أثر إلا إذا كانت جزءاً من الحرب الفعلية . فإذا تهاون الضغط العسكري لحظة ،فإن الضغط السياسي على العدو يفقد رأساً نقطة الارتكاز ويهوى في الفراغ . وقد كان ضباط باتيستا على رأس الجيش المحترف يقبلون الحوار ، لأن الجنود كانوا يموتون كل يوم ، ولأنهم كانوا يرون حياتهم

---

١ – رسالة إلى فرانك بايس، ٢١ يوليو ١٩٥٧ : « لسنا أبداً في عجلة من امرنا. سنكافح هنا ما يلزم من الوقت . سننهي هذا الكفاح بالموت أو بانتصار الثورة الحقيقية . يمكننا منذ الآن أن نتلفظ بهذه الكلمة . فالمخاوف القديمة ، تتبدد ، واخطار النظام العسكري تتناقض لأن قوة الشعب المنظمة تزداد كل يوم ، فإذا وقع انقلاب أو جاء مجلس تحرير ، فإننا سنطالب من هنا بتطبيق مبادئنا . وإذا تابعنا حربنا ، فلن يستطيع المجلس أن يستمر » .

مهددة . لم يعودوا يسخرون ، كما كانوا يفعلون في البداية بادّعاء على مثل هذه الدرجة من السذاجة .

إن التسلل والضغط يصبحان فعالين في حالة القتال والضرب في آن واحد . حتى يستجيب جيش للنداءات الوطنية أو الثورية للقوى الشعبية المسلحة ، يجب أن يحترمها .

والعسكري لا يحترم إلا ما يخشاه ، ويمكن أيضاً الحديث عن السلام ، ولكن في أثناء الحرب .

وبهذه الطريقة فقط ينقلب شعار السلام على الطغاة وليس على الثورة . وطوال هذا الوقت ، أطلق كاسترو شعار السلام ، ورغبة الجميع لوضع حد للحرب الأهلية ، ولكنه كان قد اظهر أن باتيستا ونظامه كانا العقبة الوحيدة في طريق السلام ، فأصبحت الرغبة في السلام طاقة الحرب الثورية .

بعد ذلك ، ليس باستطاعة أي جبهة استشارية أن تتولى القيادة الفعلية لحرب شعبية ، حيث لا يقدر على هذه القيادة ، إلا مجموعة تنفيذية ذات كفاءة متينة ، مركزية ، ومتحدة على أساس المصالح الطبقية المتشابهة ، بإختصار : أركان حرب ثورية .

إن جبهة وطنية متنافرة ، هي مرتع التناقضات السياسية ، والمناقشة ، والمذاكرات التي لا تنتهي ، والمساومات المؤقتة — : وهي لا تستطيع أن تتحد وتعيش إلا في وجه العدو ، في وجه خطر وشيك ، ولهذا فإن وسائل مواجهته تعتمد على العمل المنفصل للقوى التي تتشكل منها الجبهة ، لكل منها وحدتها الخاصة ، وهي تستعيد حريتها ومنازعاتها أيضاً ، بعد النصر . وحتى في هذه الحال ، يمكن للجبهة أن تؤمن دبلوماسية الحرب ، ولكن ليس قيادة عملياتها . ويبقى الرؤساء أو الاجهزة الادارية للجبهة ، طالما بقيت المساومات بين الطبقات . ويستطيع « الوسطاء » مساعدة الزعماء في الاستيلاء على السلطة ، والرؤساء هم الذين يحتفظون بالسلطة إلا إذا اظهر « الوسيط » في الوقت

المناسب مزايا الزعيم ، وإلا إذا ثبت رجليه في الأرض ، نزولاً من السماء الصافية لعمليات التفاهم من فوق الطبقات ، في المجتمع السوقي للطبقات ، وعلى رأس احدى هذه الطبقات. إن أساليب العمل هذه لها حتماً سبب سياسي، وإلا فمن أين تأتي ؟ من عيب اخلاقي ؟ إن للمناضلين منهجاً ومنهجاً مدهشاً . وفي البلاد التي تنتشر فيها هذه الأساليب ، فالرفاق ، المناضلون الشيوعيون ، هم الذين حملوا العبء الأساسي للحرب . لننظر في لائحة القتلى ، جميعهم تقريباً اعضاء في الأحزاب ، والمساجين كذلك ... ولكن نكران الذات ، للأسف ، ليس حجة سياسية وليس للشهيد قوة الدليل . وعندما تطول عملية الاستشهاد ، وعندما يتحول كل عمل صلب إلى الاستشهاد ، فمعنى ذلك « أن هناك شيئاً لا يسير على ما يرام » . وأنه لواجب خلقي البحث عن هذا السبب كما أن تحية الشهداء القتلى أو المساجين واجب أيضاً .

هناك من غير شك ، في الجذور ، نظريات سياسية قديمة اصبحت اليوم مطعوناً فيها ، فاقدة الرصيد ، مقلمة الأظافر بالفشل ، ولكنها ما زالت تطفو على السطح بحيوية : النظرية القديمة بتحالف الطبقات الأربع التي تضم البرجوازية الوطنية ؛ نظرية « الديمقراطية الوطنية »، أي الاحتفاظ بالعلاقات الاجتماعية حسب الانتاج الرأسمالي ، ولكن بعد تبييضه ، وتنظيفه من كل تدخل امبريالي ، تحت اشراف الجماهير ، التي ستطالب عندئذ بالانتقال إلى الاشتراكية ، احتقار أو سوء تقدير طبقة الفلاحين ، التي لا تملك هذه النظرية ، على كل حال ، ما تغريها به . والحقيقة أن كثيراً من هذه المنظمات السياسية ما زال ينقصها تحليل واقعي لمناهج الانتاج القائمة في دول اميركا اللاتينية ، والتناسق الموجود بين مختلف مناهج الانتاج ، وأشكال سيطرة منهج انتاجي على المناهج الأخرى ، التحليل الذي له وحده القدرة على تحديد العلاقات بين الطبقات الموجودة .. هذه العيوب ، هذه الثغرات معروفة ، ولا يكفي فضحها طبعاً لتخفيفها ، ولكن المهم هنا مفعولها العملي .

قد يرفع شعار « الكفاح المسلح » ، ويكرر على الورق بلا فائدة ، وفي

البرامج ؛ ولكن استعمال الشعار لا يمكن أن يخفي في كثير من النواحي إلا عدم وجود قرار الكفاح المسلح ، وعدم وجود تحديد ايجابي للستراتيجية التي تناسبه . ماذا تعني الاستراتيجية ؟ التفريق بين الاساسي والثانوي ، ومن هنا ينبع تسلسل واضح في الواجبات والمهات . إن تجريبية [1] نشيطة تترك كل أشكال النضال تترسخ معاً ، ولتتدبر أمرها وتتفاهم فيما بينها . ومع ذلك يمكن أن يظهر – من زاوية – التعريف السلبي للستراتيجية ، بشكل رفض الفكرة اللازمة ، في ظروف معينة ، كفكرة ربط الاشكال السلمية للكفاح الجماهيري، للكفاح الجماهيري المسلح ؛ فقد عورضت هذه الفكرة أحياناً بالقول إن مثل هذا الربط سيؤدي إلى اخضاع الخط السياسي لحزب الطليعة ، للاستراتيجية العسكرية لجهازه المسلح،وإلى ربط القيادة السياسية للحزب بالقيادة العسكرية . في الحقيقة ، لا يوجد شيء من هذا القبيل : لقد نسوا مرة أخرى ، رغم الموافقة الشفهية ، ان الكفاح المسلح ذو جوهر سياسي ، ولا يمكن أن يوضع التناقض فيه بين ما هو سياسي وما هو عسكري .

إن « التكنيكية » و « العسكرية » ليستا في جانب أولئك الذين يسمون عسكرية وتكنيكية الارادة في احتواء كل اشكال النضال في سباق حرب العصابات، أولئك الذين يقولون بتقارب الخط السياسي بالاستراتيجية العسكرية والقيادة السياسية بالقيادة العسكرية . هؤلاء يعيشون في عالم مزدوج ، متصارع حقاً ، ومع – ولماذا لا نقولها – ارث روحاني قريب جداً : السياسة في جانب، والعسكرية في جانب آخر. إن حرب الشعب هي تكنيك ، مركزه في الريف، ومرتبط بالخط السياسي المعتبر كتكنيك أعلى، نظري صرف، سياسي صرف . إن السماء تأمر الأرض ، والنفس تأمر الجسد ، والرأس يأمر الذراع ، والكلمة تسبق العمل . إن البديل العلماني للفعل – كالكلام ، والخطابات ، والندوات – يسبق ويتحكم بالنشاط العسكري من علياء السماء .

---

١ – ترجمة الاصطلاح الفرنسي براغماتيسم (المترجم) .

اولا . لا يمكن ان نفهم كيف انه يمكن اليوم لقيادة سياسية في اميركا اللاتينية ، أن تظل غريبة عن المشاكل التكتيكية للحرب ؛ كذلك لا يمكن أن نتصور ملاكاً سياسياً دون أن يكون في الوقت نفسه ملاكاً عسكرياً . فالوضع نفسه – حالياً أو مستقبلاً – يتطلب ذلك : إن «ملاكات » كفاح الجماهير المسلحة ، تتكون من اولئك الذين يشتركون فيها ويظهرون على الارض كعادتهم لقيادتها . ولكن ، كم من القياديين السياسيين يفضلون أن يمارسوا يوماً بعد يوم ، حياة النقابية الدولية أو أن تمتصهم عجلات الف « مؤسسة ديمقراطية دولية » ومؤسسة ، من تلك التي تهتم بشؤون استمرارها ، بدلاً من ان يبحثوا ، بجدية وواقعية ، المسائل العسكرية المرتبطة بكفاح شعبهم .اكثر من ذلك ، إن الكفاح المسلح يرتدي أهمية خاصة في اميركا اللاتينية . إن اختلال القوى الكبير في البداية بين عدد رجال الثورة وآلة القمع كلها ، وقلة عدد السكان في الريف وفي الاماكن التي يجري فيها القتال ، لا يسمحان باستبدال التكتيك والتسليح ، لفترة معينة ، بالجماهير وعدد المقاتلين ، كما يحدث في الصين وآسيا بشكل عام . على العكس من ذلك لا بد من امتلاك التكنيك بخبرة تامة ، من أجل تعويض هذا الاختلال الأساسي، وبشكل عام ، النقص النسبي في عدد السكان في كثير من البلدان . من هنا الدور الأكثر أهمية من أي مكان آخر ، للمتفجرات – مثلاً – والبازوكا ، والأسلحة الاوتوماتيكية الحديثة الخ ... إن الاستعمال الذكي للأسلحة الاتوماتيكية الحديثة – في كمين مثلاً – ووتيرة نيرانها ، وتناسقها مع التقدم حسب خطة نارية صارمة ، حيث يحسب حساب كل تفصيل وكل ثانية ، يسمح بتعويض النقص أو الهزال في عدد الرجال في جهة الثوار . ففي عدد محدود ومعدود من الثواني ، يستطيع ثلاثة رجال تصفية شاحنة نقل جنود مع ثلاثين جندياً ، حيث كان يلزم ، بالبنادق الميكانيكية القديمة ، عدد مماثل من رجال العصابات لهذا السبب نفسه ، فإن الهدف الأول للعصابات الثائرة ، هو تجميع سلاح العدو ، وليس تصفيته جسدياً ، مع العلم بأنه لا بد في معظم الأحيان من

تصفيته جسدياً من أجل الاستيلاء على سلاحه . باختصار ، ليس هنالـــك «تفاصيل» بالنسبة للزعيم السياسي-العسكري. فكل شيء يتعلق بالتفاصيل ، بتفصيل واحد ، ويجب ان يسهر شخصياً على كل شيء.

ثانياً ، لقد ثبت ان التجربة العسكرية لكفاح الشعب هي اكثر حسماً من تجربة سياسية لا علاقة لها بالعصابات من اجل تشكيل ملاكات ثورية . إن القـادة الذين ينادون بتوسيع النطاق اليوم في اميركا اللاتينية ، هم شباب ، ليس لديهم تجربة سياسية طويلة سبقت دخولهم العصابات المقاتلة . إن من السخف الاستمرار في الحـــديث عن التناقض بين « الملاكات السياسية » و « الملاكات العسكرية » ، وبين « القيادة » السياسية و « القيادة » العسكرية ؛ ليس باستطاعة « السياسات » الصرف ، والتي تنوي أن تظل كذلـك ، ابـــداً أن تخـدم الكفاح المسلح للشعب ؛ أما « العسكريون » الصرف فيخدمون هذا الكفاح ، ثم من خلال ممارسة حرب العصابات ومعايشتها ، يصبحون أيضاً سياسيين . لقـــد أثبتت تجربة كوبا ، ومؤخراً تجربة فنزويلا ، وتجربة غواتيمالا والبلاد الاخرى ، أن التربية السياسية – حتى للبورجوازي الصغير أو الفلاح – تتم في حرب العصابات بأسرع وأعمق مما تتم بقضاء الوقت نفسه في مدرسة الملاكات؛ وهـــذا على صعيد الرجال – مفعول حرب العصابات التي تتسم بشكل أساسي وكامل بالطابع السياسي. وفي ذلك ميزة مزدوجة على التربية السياسية التقليدية ، سواء داخل حزب ، أو في النضال النقابي ، أو في مدرسة وطنية أو دولية للملاكات : ففي « مراسيم الشرف » السياسية هـذه ، يكون البرجوازي الصغير أو الفلاح على ثقة من انه لن يتلقى تربية عسكرية (إلا في نطاق التفاصيل) ولا يكون على ثقة من انه سيتلقى أحسن تربية سياسية . مثلاً : في كـوبا ، قـــدم جيش الثـوار والعمل السري للثورة ملاكاتها القيادية ونواة مناضليها . واليوم أيضاً ، ما زال الثوار في طليعة هذه الطليعة ، يدافعون في قلب الثورة عن الخط الاكثر جذرية ، والاكثر شيوعية . أليس هـــذا قـدراً

غريباً بالنسبة « للعسكريين » ، كما يتخيلهم « السياسيون » ؟

ومع ذلك ، يبدو ان « السياسيين » في بعض البلاد ينسون هـذه التجربة وتجربة بلدهم ، وما زالوا يحتفظون بهـذا التفريق غير المفهـوم في ظروف اميركا اللاتينية بين « السياسيين » من جهة أخرى . إن كثيراً من التصرفات حتى اليوم ، ما زالت تعكس هذا الطلاق : فتعمد قيادة حزب معين الى سحب عـدد من الملاكات ومن المحاربين من العصابات المقاتلة ، لترسلهم الى مدرسة الملاكات السياسية ، خارج البلد .

وتعمـد قيادة اخرى الى تحريم او « مراقبة » التطـور السياسي لملاكاتها العسكرية بقـذفهم بمفـوضين سياسيين قادمين من المدينة . فيـولد بهـذه الطريقة ، في كل الاحـوال نوعان من « الملاكات » في قلب العصابة المقاتلة ، إذا لم تولد أداة قيادية مزدوجة ، مما لا يمكن إلا أن يحجز الظهور الطبيعي للقادة الشعبيين، للقادة السياسيين — العسكريين المتكاملين . هذا الموقف مناقض لموقف فيديل في كوبا، فقد كان يقول في اثناء القتال: « القادة العسكريون الذين يثبتون كفاءة عسكرية، اعطوهم ايضاً حرية العمل السياسي ». و كانت العملية تستأهل المغامرة ، فقـد أنجبت راوول كاسترو ، شي غيفارا ، كاميـلو سينفويجوس وعشرات الضباط ، المسؤولين سياسياً اليوم عن ثورة بروليتارية وفلاحية .

ولكن دعونا لا نخفي عن أنفسنا شيئاً واضحاً .

فالاحزاب والمنظمات التي كانت قيادتها تتصرف بهذا الاسلوب ، بمراقبة بذور جيشها الشعبي من الخارج ، أو تسبب حالياً ازدواجية في التنظيم ، أو تسحب مناضليها من العصابات المقاتلة لترسلهم الى مكان آخر لتلقي التربية السياسية ، انما تستند على مبادىء تنظيمية مكرسة، تنتسب شكلياً الى العقيدة الماركسية : التفريق بين المستوى العسكري والمستوى السياسي : وتستند اكثر من ذلك الى تجربة عالمية : في إطار الحرب الشعبية الطويلة ، في الصين وفيتنام.

ومن الممكن انها لا تحسن تطبيق هذه المبادىء : لأن المبادىء لم توجد عبثاً .

ألا نمارس في هذه الحال خلطاً بين مبدأ سياسي وبين شكل تنظيمي محدد أو وضع ممكن لأحزاب معينة ؟ ألا نمارس بنصف كلمة رفضاً لمبدأ مقدس – بالنسبة لهذه الجماعة – مبدأ التفريق بين الحزب والجيش الشعبي ، وضرورة سيطرة الحزب على الجيش الشعبي في المرحلة التي تسبق الاستيلاء على السلطة تحت الحجة المزيفة بأن تطبيق المبدأ لم يكن سليماً ؟ أو تحت حجة ان ليس للمبدأ وجه واحد صالح للتطبيق في جميع المستويات ؟ لنأخذ المسألة من جذورها .

- ٢ -

درس الحاضر الرئيسي

أيهما يجب دعمه اليوم ، الحزب ام العصابات المسلحة ، نواة الجيش الشعبي ؟
أيهما الحلقة الحاسمة ؟ أين يجب صبّ الجهد الرئيسي ؟

هذا هو اليـوم السؤال الذي ينقسم حوله مناضلو عدة بـلدان تعمل فيها العصابات المسلحة كطليعة في اميركا اللاتينية .

وغداً ، سيطرح السؤال على مناضلي بلاد أخرى .

والسؤال مطروح الآن بشكل صراع .

هذا السؤال له جواب تقليدي في التاريخ الماركسي بالذات ، وفي التاريـخ عامة . جواب محـكم التركيب لدرجة يبدو فيها مجرد طرح السؤال بهذا الشكل هرطقة . إن الحزب هو الاجـدر بالدعم ، لأنه الخالق والنواة القائد للجيش الشعبي ، فحزب الطبقة العاملة وحده قادر على خلق جيش شعبي حقيقي .

ارثوذكسية [1] نظرية : فليس الأمر متعلقاً بتدمير جيش معاد،بل بالاستيلاء على سلطة الدولة لتغيير الترتيب الاجتماعي . والدولة البورجوازية لها مستواها الخاص (= بناء فوقي، سياسي، قضائي، تشريعي، الخ ...) . وهي لا تختلط بأداتها التعسفية . إذا كان الأمر متعلقاً بتحطيم السلطة السياسية الموجودة وتحويلها إلى أداة دكتاتورية المستغَلين (بفتح الغين) الديمقراطية ، فان من حق ممثلي الطبقات المستغلة وطليعتها فقط –الطبقة العاملة– خوض هذه المعركة السياسية حتى في شكلها العسكري ، الحرب الأهلية الثورية . والطبقـة في هـذه الحالة

---

١ – الارذثوكسية تعبير يعني الأمانة العقائدية الدقيقة (المترجم) .

تكون ممثلة بحزب سياسي ، وليس بأداة عسكرية ، والطبقة البروليتارية تكون ممثلة بالحزب الذي يتولى عقيدتها الطبيعية ، الماركسية – اللينينية ، وقيادة هذا الحزب وحدها تستطيع أن تدافع علمياً عن مصالحها الطبقية .

وإذن فالأمر يقتضي ، بالفعل ، تدخلاً في مجمل التركيب الاجتماعي ، فيتوجب ساعتئذ الالمام العلمي بالمجتمع في تعقيدات مستوياته المختلفة (السياسية والايديولوجية والاقتصادية ،الخ ...) وبتطوره. ولكن هل يمكن بهذا الشرط خوض كفاح شامل ، على جميع المستويات ، على أن لا يكون الكفاح المسلح إلا مستوى بين هذه المستويات ، لا معنى له إلا في قلب عملية التدخل الشامل ، على جميع المستويات ، من قبل القوى الشعبية ضد المجتمع البورجوازي ؟

يستطيع حزب العمال وحده ، على أساس من التفسير العلمي للتركيب الاجتماعي ومن الظروف المعينة ، أن يقرر في هذه الحالة الشعارات ، والأهداف والمحالفات المطلوبة في ظرف معين ، أي تحديد المحتوى السياسي والهدف الذي يسعى النضال له ، والذي لا يشكل الجيش الشعبي إلا أداته التنفيذية. إن اعتبار الجيش حزباً – في هذه الحالة – يكون كاعتبار الاداة هدفاً ، واعتبار الوسيلة غاية ، هذا الخلط يقوم به عادة التكنوقراطيون ، من هنا اطلق على هذا الانحراف اسم « التكنيكية » أو « العسكرية » .

ارثوذكسية تاريخية : لقد طبقت هذه المبادىء حتى الآن في كل النضالات الثورية المنتصرة في عصرنا ، على شكل الوجود المنفصل للطليعة السياسية عن الاداة العسكرية ، مع السيطرة الكاملة للأولى على الثانية . فالحرس الأحمر البولشفي وضع في اكتوبر ١٩١٧ تحت أوامر اللجنة العسكرية في الحزب ، التي كانت بدورها تحت امرة اللجنة المركزية ، تنفذ أوامرها حرفياً . قد يقال إن هذا المثل غير مُقنع لأنه قائم على عصيان عمالي في المدينة ، وليس على حرب شعبية ، فلنأخذ إذن مثل البلاد الاشتراكية التي خاضت حرباً شعبية طويلة انطلاقاً من الريف . إن هذا المثال يواجهنا تحت هذا الشكل في الصين وفيتنام. ففي الصين نعرف أن مبدأ « السياسة توجه البندقية (ماوتسي تونغ) قد

تجسد في الواقع بشكل القيادة اليقظة للجيش من قبل الحزب . أما في فيتنام فقد كتب جياب :

« إن المبدأ الأساسي الأول في بناء جيشنا هو الضرورة القصوى في وضع الجيش تحت قيادة الحزب ، وفي تقوية قيادة الحزب داخل صفوف الجيش . إن الحزب هو بالنسبة للجيش المؤسس والمنظم والمعلم ، إن جعل قيادة الحزب هي القيادة الوحيدة في الجيش يمكن أن يسمح لهذا الأخير بالبقاء على الخط الطبقي ، على الاتجاه السياسي ، وبإداء واجباته الثورية [1] » .

تعبير عملي عن هذا المبدأ : يوجد في قلب جيش التحرير الفيتنامي نفسه ، نظام المفوضين السياسيين واللجان الحزبية . وهؤلاء هم القادة الفعليون للوحدات العسكرية ، وليسوا مجرد مساعدين سياسيين . وفي الناحية التنفيذية ، فإن رؤساء الوحدات هم المسؤولون امام لجنة الحزب التي تعطي التوجيهات ، بما يتناسب مع مبادىء القيادة الجماعية والمسؤولية الفردية ، وهـذا على جميع المستويات حتى اصغر خلية في القاعدة « لا يكون الفصيل قوياً إذا لم تكن الخلية قوية » على ما يقول جياب . وفي الصين فإن قيادة الحزب كانت على مستوى كتيبة . كان ٧ إلى ٩ اعضاء يشكلون اللجنة ، من بينهم قائد اللواء الذي كان على المستوى نفسه للمفوض السياسي . وكانت هذه اللجنة الحزبية توجه الوحدات التابعة ، أما السرايا والفصائل فلم يكن لديها لجان حزبية بل أمّار سياسيون ، وهؤلاء يقومون بتوزيع المناضلين على جماعات الفصيل المختلفة . وتطبق القاعدة فوق كما تطبق تحت . اما قيادة الأركان فلا تنقسم إلى أربع أو خمس شعب كما في الجيوش الرأسمالية ، بل إلى شعبتين اساسيتين ، ادارية من جهة ، وسياسية ، عسكرية من جهة أخرى ، حيث يكون المكتب السياسي على المستوى نفسه لمكتب العمليات .

وحتى نوجز ، فلنكتف بالرمز . إن هذا التفريق بين المستوى السياسي

---

١ ـ كتاب « حرب الشعب سلاحها الشعب » ص . ١٢٣ .

والمستوى العسكري يحمل اسماء : ماوتسي تونغ وشوه – نه في أثناء الحرب الأهلية الثورية الصينية والمسيرة الكبرى، ثم هوشي منه وجياب في أثناء الحرب ضد الفرنسيين . وربما اضفنا لينين وتروتسكي في أثناء حروب التدخل الامبريالي في الاتحاد السوفياتي .

أما في كوبا ، فقد جمع رجل واحد القيادة العسكرية (العمليات) والقيادة السياسية : فيديل كاسترو .

فهل هذه صدفة لا معنى لها أم أنها علامة ظرف تاريخي مختلف ؟ هل هو استثناء أم اعلان عن شيء اعمق ؟ ما هو رأي تجربة اميركا اللاتينية الحالية في هذا الصدد .

هل يجب استقراء هذه التجربة في حينها ، وعدم اصدار حكم سريع على التاريخ الحقيقي الذي هو في طور التكوين ، لأنه يخالف المبادىء ؟

لقد قال فيديل كاسترو مؤخراً : « يتهمونني بالهرطقة ، ويقولون إنني هرطوقي بالنسبة للماركسية – اللينينية. إنه مسلٍّ حقاً أن تقوم مؤسسات يقال إنها ماركسية تتفاهم كالكلب والقطة وتتنازع الحقيقة الثورية ، باتهامنا بإننا نريد أن نطبق النموذج الكوبي آلياً ، يتهموننا بانكار دور الحزب ، يتهموننا بأننا هراطقة الماركسية – اللينينية » .

وفي الواقع ، فان الذين يريدون أن يطبقوا القوالب ميكانيكياً على واقع اميركا – اللاتينية ، هم بالضبط هؤلاء « الماركسيون » ، لأن من صالح السارق دائماً أن يكون أول المنبهين إلى السرقة . ولكن ماذا يقول فيديل كاسترو حتى يعامل على أنه « هرطوقي » و « ذاتي » و « برجوازي صغير » ؟ أية رسالة متفجرة يحمل كاسترو حتى تنتظم العواصم الاميركية ، وعواصم الدول الاشتراكية في أوروبا وآسيا ، وكل الذين يريدون خوض الحرب الثورية بـ « التعاطف » ، وأولئك الذين لا مبادىء لهم ، في جوقة ضد الثورة الكوبية ؟

« من يصنع الثورة في اميركا اللاتينية ؟ من ؟ الشعب ، الثوار ، مع حزب أو من غير حزب » . (فيديل) .

يقول فيديل كاسترو ببساطة أن لا ثورة بلا طليعة ، وأن هذه الطليعة ليست بالضرورة الحزب الماركسي – اللينيني ، وأن اولئك الذين يريدون صنع الثورة لهم الحق والواجب في أن يشكلوا لأنفسهم طليعة مستقلة عن هذه الاحزاب .

لا بد من الشجاعة لتسجيل الأحداث كما هي بصوت عال ، عندما تكذب هذه الأحداث تقليداً . ليس هناك إذن تعادل ميتافيزيكي : الطليعة = حزب ماركسي لينيني ، هناك تشابكات جدلية بين مهمة معينة – مهمة الطليعة في التاريخ – وبين شكل تنظيمي معين – شكل الحزب الماركسي اللينيني – متشابك ينتج عن التاريخ السابق ويرتبط به . إن الاحزاب موجودة على الأرض ، ومعرضة لقسوة الجدلية في هذه الدنيا ، فإذا ما ولدت ، فمعنى ذلك أنها قابلة للموت ، ثم الانبعاث تحت أشكال أخرى . كيف يتم هذا الانبعاث ؟ وتحت أي شكل يمكن للطليعة التاريخية أن تعاود الظهور ؟

فلنناقش بالتدرج .

السؤال الأول : لماذا يمكننا أن نواجه أو نعلن أنه في الظروف الحالية يمكن أن يكون هناك ثورة « مع حزب أو من غير حزب » ؟ يجب طرح هذا السؤال ليس من أجل إثارة احقاد عقيمة ولا طائل تحتها (والتي تستفيد منها أولاً الثورة المضادة ، أينما كانت) ولكن لأنه يؤثر في الجواب على السؤال الثاني .

السؤال الثاني : تحت أي شكل يمكن للطليعة التاريخية أن تعاود الظهور ؟

إن ما هو واقع اليوم يتعلق بما كان واقعاً بالأمس ، وما سيكون واقعاً في المستقبل يتعلق بما هو واقع الآن .

ومسألة الأحزاب كما هي الآن مسألة تاريخية ، لا بد للرد عليها من العودة إلى الماضي .

إن ما يميز حزباً ما عملية ولادته ، تطوره ، والطبقة أو تحالف الطبقات الذي يمثله ، حسب البيئة الاجتماعية التي نكون فيها . ولنعد إلى ضرب الأمثلة المعاكسة نفسها حتى نتحرى الشروط التاريخية التي تسمح بتطبيق النموذج التقليدي للعلاقات بين الحزب وجيش العصابات :

الصين والفيتنام :

١ - لقد ارتبط الحزب الصيني والحزب الفيتنامي منذ نشأتها بمسألة إنشاء السلطة الثورية ، ليس عن علاقة نظرية بل عملية : لقد عايشاها دفعة واحدة في شكل تجربة أليمة . ولد الحزب الصيني سنة ١٩٢١ ، في قلب تصاعد الثورة الديمقراطية البورجوازية لصن يات صن ، التي شارك فيها بحكم انتسابه إلى الكومنتانغ . وقد تلقى منذ ولادته المساعدة المباشرة من البعثة السوفياتية ، التي كانت تضم مستشارين عسكريين ، بقيادة جوفيه ، ثم بورودين . وقد نظم هذا الأخير ، بعد وصوله فوراً ، تدريب الضباط الشيوعيين الصينيين في اكاديمية وامبوا العسكرية ، مما سمح بسرعة للحزب الشيوعي ، كما قال ماو سنة ١٩٣٨ ، بـ « ادراك اهمية الأمور العسكرية » . وبعد ثلاث سنوات من ولادته ، عاش الحزب التجربة المفجعة للحرب الأهلية الثورية الأولى (١٩٢٤ - ١٩٢٧) ، ولعصيان المدن ، واضراب كانتون ، التي اشترك فيها كقوة قيادية . وقد هضم الحزب هذه التجربة وحولها إلى مادة نقد ذاتي بإشراف ماوتسي تونغ أدت إلى تبني خط معاكس - معاكس حتى لنصائح الامية الثالثة : الانكفاء على الريف والقطيعة مع الكومنتانغ - اما الحزب الفيتنامي فقد ولد سنة ١٩٣٠ ، ونظم عند انطلاقه عصيانات فلاحية في الأرياف ، قمعت بسرعة ، وحدد خطة بعد ذلك بسنتين ، بإشراف هوشي منه ، في برنامجه الأول للعمل : « إن الطريق الوحيد للتحرير هو الكفاح المسلح الجماهيري » .

كتب جياب : لقد ولد حزبنا عندما كانت الحركة الثورية الفيتنامية في اوج انطلاقها ، فقاد الفلاحين منذ البداية ، وجعلهم مصممين على النهوض

وإنشاء سلطة السوفيات ، وهكذا وعى باكراً مسائل السلطة الثورية والكفاح المسلح » . لقد تحول هذان الحزبان – باختصار – وبعد بضعة سنوات من تأسيسهما إلى حزبي طليعة ، لهما خط سياسي خاص ، تمّ تكوينه بمعزل عن القوى الاشتراكية الدولية ، ويرتبط بعمق بشعبيهما .

٢ – في أثناء تطورهما اللاحق ، وضعت التناقضات الدولية هذين الحزبين – كالحزب البولشفي قبل ذلك بقليل – على رأس مقاومة شعبية ضد الامبريالية الاجنبية : في الصين ، وضد الغزو الياباني ابتداء من عام ١٩٣٧ : في فيتنام ، وضد اليابانيين أيضاً بعد عام ١٩٣٩ ، وضد المستعمرين الفرنسيين ابتداء من عام ١٩٤٥ ، فتحولت الثورة ضد الاقطاعية ، إلى ثورة ضد الامبريالية ، وضغطت الثورة الثانية على سرعة الثورة الأولى . فاتخذ صراع الطبقات شكل الحرب الوطنية ، وأصبح بناء الاشتراكية مطابقاً لبناء الاستقلال الوطني : وارتبط الاثنان . وتكرس الحزبان ، على رأس حرب الشعب ضد الاجنبي ، كحملة اعلام الوطن ، والتحما بالوطن .

٣ – لقد فرضت ظروف حرب التحرير هذه على الحزبين المشكلين اصلاً من الطلاب ومن خيرة النخبة العمالية ، الإنكفاء على الريف وخوض حرب عصابات ضد المحتل ، فتلاحما عندئذ مع العمال الزراعيين وصغار الملاك ، وتحول الجيش الاحمر وقوات التحرير – فبيت منه – إلى جيش فلاحي ، تحت قيادة حزب الطبقة العاملة ، محققاً في التطبيق العملي تحالف طبقة الأغلبية مع طبقة الطليعة : التحالف العمالي – الفلاحي. كان الحزب الشيوعي في هذه الحالة نتيجة هذا التحالف ومحركه . وهكذا كان القياديون ، لم يتم اختبارهم صورياً من قبل مؤتمر ، ولم يكونوا معنيين بالتقاليد ، ولكن منتخبين ، مصنّفين ومغموسين في ذلك الكفاح الفظيع الذي جعلوه ينتصر. إن المهمة تصنع حامل المهمة ، ولكن على العكس من ذلك فإن الشخصيات التاريخية هي التي « تصنع التاريخ » .

ومن غير الدخول في التفاصيل ، فإن الظروف التاريخية لم تسمح للأحزاب

الشيوعية في اميركا اللاتينية ، في غالبيتها ، بالترسخ ذاته وبالنمو ذاته. فظروف تأسيسها ونموها ، وعلاقتها بالطبقات المستغَـلة (بفتح الغين) كانت بالطبع مختلفة . كان لكل حزب منها تاريخه الخاص ، ولكنها كانت تتشابه على الأقل في أنها لم تعش منذ نشأتها مسألة الاستيلاء على السلطة ، وفي أنهـا لم يتـح لها أن تكون على رأس حرب تحرير شعبية ، في البلاد التي تملك استقلالاً سياسياً شكلياً ، وفي أنها لم تستطع بالتالي أن تحقق التحالف العمالي ، الفلاحي : مجموعة متماسكة من التحديدات التي يعود سببها إلى ظروف تاريخية مشتركة .

كانت النتيجة الطبيعية لهـذا التاريخ ، بنسبة معينة للمنظمات القيادية والأحزاب نفسها ، متأقلمة بظروف الأمكنة التي ولدت فيهـا ونمت . ولكن الظروف التاريخية – حسب التعريف – ليست جامدة ، فالثورة الكوبيـة والآلية التي اطلقتها في كل اميركا اللاتينية قد قلبا المشاهد القديمة ، والكفاح المسلح الثوري ، سواء حيث يوجد أو حيث يهيأ له ، يتطـلب تغييراً عميقاً في عادات زمن السلم .

الحرب ، كما نعلم ، هي امتداد للسياسة ، ولكن تحت اشكال وبوسائـل خاصة . كل شيء يجري الآن كما لو أن القيادة الفعليـة للكفاح المسلح الثوري أصبحت تتطلب أسلوباً جديداً في القيادة، نوعاً جديداً من التنظيم، واستجابات جسدية وايديولوجية جديدة عند المسؤولين وعند المناضلين .

أسلوب جديد في القيادة : لقد ثبت على نطـاق واسع أن حرب العصابات لا تدار من الخارج ، ولكن بتحمل قسط من الاخطار . من الضروري إذن أن يقوم أكثر التنظيمات القيادية وضوحاً ، في البلاد التي تتطور فيها حرب من هذا النوع ، بهجر المدينة والانخراط في جيش الثـوار : إنه اولاً احـد اعتبارات السلامة ، الذي يؤمن حياة القادة السياسيين . لقد اتخـذ احد احزاب اميركا اللاتينية هذا القرار . هذا الحزب نفسه ، أجرى تغييراً في لجنتـه المركزية ، مبدلاً معظم القادة الشيوخ ، بشبان مرتبطين مبـاشرة بالحرب أو بالكفاح السري في المدن . إن إعادة بناء الحزب إذن تسير جنباً إلى جنب مـع عمليـة

تجديد شبابه . وفي اميركا اللاتينية صلة عميقة بين الايديولوجية وعلم الاحياء ، في كل مكان يجري فيه كفاح مسلح . ومهما بدت هذه الصلة غير مفهومة ، فإنها ليست أقل تحديداً . فالرجل المسن ، المتعود على جو المدينة ، يجد صعوبة في الالتحاق بالجبل ، أو بمقياس أقل ، بعمل سري نشيط في المدن . وبين مختلف أنواع التربية التي تتطلبها حرب العصابات ، تظل التربية البدنية هي الأساسية ، مع التربية الخلقية : الاثنتان تسيران جنباً إلى جنب ، وليست التربية الماركسية — اللينينية الكاملة ، في البداية ، شرطاً حتمياً .

ولا يكفي لمواجهة حرب العصابات — للأسف — أن يملك الرجل المسن اخلاقية تصمد لكل التجارب ، اخلاقية ثورية ، وخاصة في البداية .

إن اللياقة البدنية هي شرط ممارسة جميع اللياقات الأخرى : ابتذال بعيد عن النظرية ، ولكن يبدو أن للكفاح المسلح ، شروطاً لا تعرف النظرية جميعها .

تنظيم جديد : ان اعادة بناء الحزب ليصبح جهازاً قيادياً فعالاً ، في مستوى اللحظة التاريخية ، تفرض عليه ان يقطع عهده بفيض اللجان والسكرتاريات ، والمؤتمرات ، والمحاضرات ، والاجتماعات والمجالس على جميع المستويات : الوطنية ، والاقليمية ، أو المحلية ، إذا اكتفينا بذكر أهم المستويات . وفي مواجهة حالة مستعجلة ، وعدو منظم عسكرياً تتكشف هذه الآلية عن أنها معطلة في أحسن حالاتها، ومجرمة في اسوئها. انها في اساس هذا العيب التشاوري الذي يتحدث عنه فيديل نقيض للأساليب التنفيذية ، المركزية والعامودية ، ومتوافقة مع استقلال تكنيكي كبير للأجهزة الفرعية ، تتطلبه مسلكية العمليات العسكرية . وإعادة البناء هذه تتطلب إذن ان توضع قواعد المركزية الديمقراطية . وتصبح انضباطية الحزب انضباطية عسكرية ، مع بقائها طوعية وواعية ، بل مع كونها كذلك أكثر من أي وقت مضى. وتفيد المركزية الديمقراطية في تثبيت خط ، بعد تحليل الظرف ، وفي انتخاب هيئة

أركان القيادة ، ثم عليها بعد ذلك أن تنسحب،حتى يوضع الخط موضع التنفيذ . وتنعزل الاجهزة الفرعية الواحد عن الآخر ، وتخفف إلى الحد الأدنى احتكاكها بالقيادة ، حسب القواعد السرية للعمل السري ، وتستعمل الحد الأكبر من المبادرة التي تترك لها لوضع الخط العام موضع التنفيذ .

استجابات ايديولوجية جديدة : إن بعض التصرفات المستجيبة لم تعد تتناسب مع حالة حرب موضوعية . من ذلك اسناد كل الخط السياسي على التناقضات القائمة بين الطبقات المتعادية ، أو الجماعات ذات المصالح المتضاربة في قلب طبقة اجتماعية واحدة بورجوازية ؛ والمتابعة الشديدة ، التي تنبع من ذلك ، للتحالف مع هذا الجزء أو ذلك من البورجوازية ، والمساندات المتفاوض عليها ، والمناورات الانتخابية التي استفادت منها حتى الآن الطبقات المسيطرة؛ والمحافظة على الوحدة بأي ثمن ، تجاوزاً للمبادىء والمصالح الثورية ، التي تحول الحزب شيئاً فشيئاً ، واستمراره تحت شكل معين ، غاية بحد ذاتها ، أقدس من الثورة نفسها ، وحتى المحاصرة ، ارث الماضي الملغى ، وموكبه المشكل من عدم الثقة والعظمة ، والتوتر والتشنج .

في توجه اخوي الى الرفاق الحزبيين في أثناء الكفاح ضد باتيستا ، قذف شي غيفارا بهذه الفكاهة : « إن باستطاعتكم أن تخلقوا ملاكات تتمزق في ظلام السجون ، دون البوح بكلمة ، ولكن ليس باستطاعتكم أن تشكلوا ملاكات تستولي على مخبأ للمدفعية الرشاشة » . ليست هذه الملاحظة ابداً حكماً قيمياً ، ولكنها تقييم سياسي . ليس الأمر متعلقاً باستبدال جبن بشجاعة ، ولا استبدال ايديولوجية بأخرى ، بل استبدال شجاعة بشكل آخر من الشجاعة ، واستبدال اسلوب من العمل (والتطابق النفسي) بأسلوب آخر ، أي بتحمل نتائج المبادىء حتى النهاية ، حتى النقطة التي تتطلب من المناضل اشكالاً أخرى من العمل ، وتتطلب من جهازه العصبي أجوبة أخرى [1] .

---

١ – فلنتفاهم جيداً:لقد مضى الوقت الذي كان يعتقد فيه انه يكفي أن يكون المرء «في=

نستطيع الآن طرح السؤال الثاني .

كيف تتجاوز هذه الثغرات؟بأي شروط تستطيع‌هذه الأحزاب أن تستعيد دورها كطليعة حتى في حرب العصابات ؟ هل يتم هذا بعمل سياسي يقوم به الحزب نفسه ، أم ان المطلوب تاريخياً تشكيل آخر ؟ للاجابة على اسئلة المستقبل هذه ، يجب عدم النظر إلى الماضي بل إلى الحاضر .

في النهاية يطرح السؤال على هذا الشكل:

٢ - كيف يتم تشكيل حزب الطليعة ؟ هل يستطيع الحزب ، في الظروف القائمة في اميركا اللاتينية ، ان يخلف الجيش الشعبي ، أم ان على الجيش الشعبي أن يخلف حزب الطليعة ؟ أيهما نواة الآخر ؟

كثير من الاحزاب الشيوعية اتخذ اذن في اميركا اللاتينية منطلقاً خاطئاً ، منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، لأسباب لا يمكن ضبطها ، خالقاً بذلك وضعاً معقداً . ولكن الاحزاب ليست أبداً إلا أدوات صراع الطبقات. فاذا أصبحت الأداة غير مفيدة [1] في مكان ما ، هل على صراع الطبقات أن يتوقف ام يخلف لنفسه أداة أخرى ؟ سؤال غبي : هذا القرار ليس ملكاً لأحد . فصراع الطبقات في اميركا اللاتينية اليوم يمكن ان يغربل أو يقلم أو يحرق ، ولكن لا يمكن ايقافه ، وعندئذ تخترع الطبقات الشعبية طلائعها ، فتدبر نفسها بما بين يديها ، وواجب الثوري أن يعجل هذا التشكيل . ولكن تشكيل ماذا بالضبط ؟

= الحزب » حتى يكون ثائراً ، ولكن الوقت قد حان أيضاً لوضع حد للاستجابات التي تحز في الفؤاد ، والعقيمة التي‌يقوم بها أولئك الذين يظنون أنه يكفي أن يكون المرء « لا حزبياً » حتى يكون ثائراً . هذه الاستجابات ليست إلا عكساً للاستجابات الأولى ، ولكنها متطابقة في جوهرها : هرطقة الحزب (لا ثورة خارج الحزب) تجد انعكاساً في الهرطقة اللاحزبية (لا ثورة مع الحزب) : الاثنتان متصوفتان . ففي اميركا اللاتينية اليوم لا يحدد الثائر بعلاقته الشكلية من الحزب : معه أو ضده . ان قيمة الثوري ، كقيمة الحزب . هي قيمة عمله .

١ - لنذكر بأن وصفنا لا يشمل البلاد التي أدى غياب الصراع الجدي فيها للاستيلاء على السلطة إلى السماح للمنظمات السياسية بالتخلص حتى الآن من مثل هذه الضغوط .

اننا نشهد اليوم ، هنا وهناك ، انقلابات غريبة . كتب شي غيفارا في مقال إن حرب العصابات لم تكن غاية في حد ذاتها ولا مقامرة جميلة ، ولكنها ليست إلا أسلوباً للوصول إلى غاية : الاستيلاء على السلطة السياسية . ولكن ها هي حرب العصابات تتحول إلى خدمة غايات أخرى : اسلوب للضغط على حكومة بورجوازية ، عنصر للمقايضة السياسية ، كتلة احتياطي للأيام السوداء ، هذه هي الغايات التي أرادت القيادة السياسية ان تجبرها لادارتها العسكرية ، فأصبح الأسلوب الثوري يخدم غايات اصلاحية . عندئذ ، وبعد فترة من الجمود ، ينقلب اسلوب حرب العصابات ضد الغاية المفروضة من الخارج والتي تناقضه ، ويحدد لنفسه اتجاهه السياسي الخاص . وحتى تنسجم مع نفسها ، تفرض العصابات الثائرة نفسها قيادة سياسية ، كأسلوب وحيد لحل التناقض والتطور عسكرياً . لنلاحظ ان العصابات الثائرة لم تطمح في أي مكان إلى تشكيل حزب جديد ، ولكنها تهدف على العكس من ذلك إلى ان تلقي في داخلها التمييز الحزبي أو العقائدي بين المقاتلين . إن الحرب وأهدافها السياسية المباشرة، هي التي توحّد. تبدأ حركة العصابات الثائرة بتحقيق الوحدة في داخلها، حول المهام العسكرية الأكثر استعجالاً ، والتي هي مهام سياسية : وحدة اللاحزبيين وجميع الاحزاب الممثلة في العصابات الثائرة . إن أشد التعريفات السياسية حسماً ، هي الانتماء إلى العصابات الثائرة ، إلى قوات التحرير المسلحة . وهكذا يحقق هذا الجيش الصغير ، شيئاً فشيئاً ، من القاعدة وحدة جميع الأحزاب ، كلما أمنت وكلما أحرزت أولى انتصاراتها . وفي النهاية يقرر جيش الشعب مستقبل الحزب الذي كان من المفروض نظرياً أن يكون أداته : وفي الأساس ، فان الحزب هو الجيش .

ألم تعرف الثورة الكوبية هذا التناقض ؟ لقد لوحظ أحياناً ، من أجل الاستنكار ، ان الأداة المعتادة للاستيلاء على السلطة ، الحزب ، قد تمّ تشكيله بعد الاستيلاء على السلطة . أبداً : لقد كان موجوداً قبل ذلك ، كبذرة ، لقد كان الحزب هو الجيش الثائر . ففيديل كاسترو الذي كان مجرد قائد أعلى لجيش

الثوار ، في الاشهر الأولى من سنة ١٩٥٩ ، كان في ذلك الوقت قد أصبح قائداً للحزب ، حتى ولو لم يكن كذلك رسمياً . وقد سجل صحفي اجنبي دهشته يوماً من رؤية هذا العدد من القادة الشيوعيين في لباس الميدان ؛ فقد كان يعتقد ان لباس الحرب والمسدس هما من مظاهر الفولكلور الثوري ؛ أو بشكل عام نوع من التصنع الحربي . مسكين ! لم يكن ما يراه تصنعاً ، بل تاريخ الثورة نفسها ، وحتماً تاريخ مستقبل اميركا. وكما أن اسم الاشتراكية قد جاء إلى الثورة بعد سنة كاملة من التطبيق الاشتراكي ، كذلك فان اسم الحزب قد جاء بعد ثلاث سنوات من وجود حزب البروليتاريا في اللباس العسكري . في كوبا ، لم يكن الحزب هو النواة القائدة للجيش الشعبي ، كما يقول جياب عن الفيتنام ، بل ان الجيش الشعبي هو الذي كان النواة القائدة للحزب ، نواته البناءة . لقد رأى أوائل قادة الحزب النور في ٢٦ يوليو ١٩٥٣ في المونكادا : عمر الحزب هو عمر الثورة نفسه ، وسيصبح عمره اربعة عشر عاماً ، المونكادا نواة جيش الثوار ، وجيش الثوار نواة الحزب ؛ وحول النواة ، وفقط بسبب وجود هذه النواة سلفاً مع قيادتها السياسية – العسكرية الخاصة ، استطاعت أن تتجمع وتتوحد قوى سياسية أخرى ، لتشكل ما أصبح اليوم الحزب الشيوعي الكوبي ، الذي ما زالت قاعدته ورأسه تتشكلان من الرفاق النابعين من جيش العصابات .

وهكذا حققت ثورة اميركا اللاتينية ، وطليعتها الثورة الكوبية ، اضافة حاسمة إلى التجربة الثورية العالمية وإلى الماركسية – اللينينية :

في بعض الظروف ، لا ينفصل المستوى السياسي عن المستوى العسكري ، فيكونان وحدة عضوية . وهذا التنظيم ، هو الجيش الشعبي الذي يشكل جيش العصابات نواته . وحزب الطليعة يمكن أن يوجد تحت الشكل الخاص بمركز العصابات الثائرة . والعصابات الثائرة هي الحزب في فترة الحمل .

ذلك هو الجديد الانقلابي الذي دشنته الثورة الكوبية .

إن الأمر يتعلق تماماً بمسألة جديدة . وكان يمكن الحكم على هذه الحالة

الاستثنائية ، كثمرة لظروف فريدة ومن غير أثر . على العكس من ذلك فإن التطور الأخير في البلاد التي توجد في طليعة الكفاح المسلح في القارة يؤكدها ويدعمها ؛ يدعمها لأنه إذا لم تكن عقيدة الجيش الكوبي الثائر ماركسية ، فإن عقيدة أعضاء هيئة الأركان الجديدة هي ماركسية واضحة ، كما ان الثورة في حدودها كهدف لها هي اشتراكية بروليتارية واضحة . ولأن خططهم كان بهذا الوضوح ، وتصميمهم غير قابل للرد ، فقد اضطروا في نقطة معينة من تطورهم إلى الانفصال عن أحزاب الطليعة الموجودة ، بعد أن اقترحوا عليها (غواتيمالا) أو فرضوا عليها (فنزويلا) مناهجهم الخاصة السياسية والعقائدية والتنظيمية كأساس لأي اتفاق ممكن، فإما يرفضون الكل أو يوافقون على الكل. وباختصار فقد اضطروا في الحالتين إلى إنهاء كل تبعية عضوية للأحزاب السياسية ، وحلوا محل الطلائع السياسية الحائرة القوى ، أي وصلوا إلى النقطة التي انطلقت منها الثورة الكوبية .

وهكذا انتهى الطلاق الذي استمر عدة عشرات من السنين بين النظرية الماركسية والتطبيق الثوري . ومهما بدا توافقها طارئاً ورخصاً ، فإنه يتجسد في هذه العصابات الثائرة صاحبة قيادتها السياسية ؛ يتجسد في هذه القبضة من الرجال « من غير خيار سوى الموت أو النصر ، في لحظات ترد فيها فكرة الموت ألف مرة ، بينما النصر اسطورة لا يمكن ان يحلم بها إلا الثوري » (شي غيفارا) [1] قد يموت هؤء الرجال ، ولكن غيرهم سيأتون بعدهم ، من غير تخلف . يجب خوض هذه المغامرة، فوحدة النظرية والتطبيق ليست قدراً، بل معركة ، وليس هنالك معارك تربح سلفاً ، وإذا لم تربح المعركة هنا ، فانها لن تربح في أي مكان آخر .

إذا كانت العصابات الثائرة تهدف إلى حرب شعبية شاملة ، فانها لا يمكن ان تتحمل في المدى الطويل أي تصارع اساسي في المهام أو السلطات . ويدفع

---

١ ـ كتاب « حرب العصابات ، اسلوب » .

شي غيفارا الوحدة إلى حد يتمنى فيه ان يكون الزعماء العسكريون والسياسيون الذين يقودون النضالات المسلحة في اميركا ، « مجتمعين إذا أمكن في شخص واحد »[1] . وسواء كانت هذه القيادة فردية ، كما عند فيديل ، أو جماعية ، فالمهم أن تكون القيادة متناسقة ، سياسياً وعسكرياً . فحتى العسكريون المحترفون يستطيعون بممارسة الحرب الشعبية أن يصبحوا قادة سياسيين (لويس نور سيوس ، مثلاً ، لو قدر أن يعيش) ؛ كذلك فإن باستطاعة مناضلين سياسيين أن يصبحوا قادة عسكريين يتعلمون فن القتال من خلال ممارستهم (دوغلاس برافو) ، مثلاً .

ولا بد من ان يستطيعوا ممارسته . فالعصابات الثائرة لا يمكنها ان تتطور عسكرياً ، إلا بشرط أن تتحول إلى طليعة سياسية . وكلما كانت عاجزة عن احكام خطها السياسي بنفسها كلما بقيت « عصابات للضغط » ، أو للالهاء السياسي ، وتتجمد ، مهما كانت نجاحات أعمالها الجزئية . وكيف تأخذ زمام المبادرة ؟ من أين تأتي إليها معنوياتها ؟ هل تعتقد انها ستُترك لتقطع شوطاً بعيداً ، إذا لم يرد لها أن تجمع حولها طاقات الشعب وأمله ، مما يحولها بطبيعة الأمور ، إلى قوة قيادية ؟ إن العصابات الثائرة بحاجة ، لكي تنتصر عسكرياً ، إلى أن تجمع سياسياً من حولها أغلبية الطبقات المستغَلة (بفتح الغين) لأنها كفاح جماهيري . وفي النهاية ، لن تستطيع الانتصار من غير مشاركتها الايجابية المنظمة لأن الاضراب العام ، أو العصيان العامُ في المدن ، هو الذي سيطلق رصاصة الرحمة على النظام ، ويقصم ظهر مناوراته الكبرى - انقلاب في الدقائق الاخيرة زمرة حكم بديلة ، أو انتخابات - وذلك بمد الكفاح لجميع أرجاء البلاد . ولكن ألا يلزم للوصول إلى ذلك مجهود طويل وصبور لتنسيق كل أشكال الكفاح ابتداء من الجبل ، واحتمال توحيد نشاط الميليشيا مع نشاط القوات النظامية ، وعمليات التخريب التي تقوم بها مؤخرة العصابات في المدن ، مع عمليات العصابات

---

١ ـ المصدر السابق .

المركزية ، ثم التدخل اكثر فأكثر في حياة البلاد المدنية ، خارج إطار الكفاح المسلح ؟ من هنا تبرز أهمية وجود جهاز ارسال عمومي تحت تصرف قوات العصابات ، فالراديو يسمح لهيئة الأركان بإقامة اتصال يومي مع السكان المقيمين خارج مناطق العمليات ، الذين يتلقون بهذه الطريقة تعليمات وتوجيهات سياسية تجد صداها أكثر فأكثر كلما اتسع نطاق الانتصارات العسكرية . ففي كوبا كرس انشاء راديو الثوار ، في مارس ١٩٥٨ ، وكثرة استعماله من قبل فيديل ، كرس هيئة أركان جيش الثوار كقوة قيادية للحركة الثورية . وأصبح الناس في كوبا ، الكاثوليك والشيوعيون والارثوذكس ، يتجهون أكثر فأكثر نحو السيرا ويديرون جهاز الراديو ليعرفوا « ما يجب فعله » ، « أين هم » ، وكذلك لاستقاء الأخبار الدقيقة . وأصبحت السرية علنية ، وأصبحت الأساليب والأهداف الثورية تتغلغل بين أفراد الشعب بقدر ما تصبح جذرية . وبعد هرب باتيستا ، كان الراديو هو وسيلة كاسترو لكشف النقاب عن مناورة الانقلاب في العاصمة حارماً بذلك الطبقة المسيطرة من آخر أوراقها ، بدقائق معدودات ، ومكملا إنجاز النصر النهائي . وحتى قبل ذلك حطم الراديو جدار الرقابة الذي أقامته الحكومة حول العمليات العسكرية ، تلك الرقابة المعمول بها الآن في جميع البلاد التي ينشب فيها كفاح مسلح . إن باستطاعة العصابات الثائرة بواسطة الراديو اقتحام أبواب الحقيقة وفتحها واسعة أمام الشعب بأسره ، خاصة إذا كانت القاعدة الخلقية التي اتبعها في كوبا راديو الثوار ، في عدم ارسال اي خبر غير صحيح على متن الاثير ، وعدم السكوت عن أية هزيمة وعدم المبالغة في أي نصر . يقوم الراديو ، باختصار ، بإجراء تغيير نوعي في حركة العصابات الثائرة ، وهذا يفسر المقاومة الخرساء أو الصريحة التي يعارض فيها قواد أحد الاحزاب امتلاك حركة العصابات الثائرة لهذه الوسيلة الدعائية .

وهكذا ، حتى يتمكن المحرك الصغير من أن يصير بالفعل محرك الجماهير الكبير ، الشيء الذي يبقى عمله من غيره محدوداً ، لا بد أولاً من أن تعترف به الجماهير ناطقاً وحيداً باسمها ودليلا أوحد لها ، تحت طائلة تقسيم واضعاف

قوى الشعب . وحتى يتحقق هذا الاعتراف ، يجب على العصابات أن تتولى كل مهام القيادة ، السياسية والعسكرية . كل حركة عصابات ثائرة تريد أن تدفع حتى النهاية حرب الشعب ، وأن تصبح إذا لزم الأمر جيشاً نظامياً ، وأن تبدأ حرب حركة ومواقع . عليها في اميركا اللاتينية أن تتحول إلى طليعة سياسية لا نقاش حولها ، مع وجود نخبة قيادتها مجسدة في قيادتها العسكرية .

كيف تبرر هذه « الهرطقة » نفسها ؟ وبأي حق تستطيع حركة العصابات الثائرة أن تطالب لنفسها ، ولنفسها فقط ، بهذه المسؤولية السياسية ؟

باسم التحالف الطبقي الذي تستطيع وحدها أن تحققه ،التحالف نفسه الذي سيتسلم الحكم ويديره ، والتحالف نفسه الذي مصالحه هي مصالح الاشتراكية نفسها : التحالف العمالي – الفلاحي – جيش العصابات الثائرة ، إن هذا التحالف ممكن بالفعل ، بل انه هو جيش العصابات نفسه . وعندما يدعى جيش الثوار لنفسه امتيازات القائد السياسي ، فهو لا يفعل سوى الانسجام مع محتواه الطبقي ، والرؤيا المسبقة لأخطار الغد. هذا الجيش وحده ، يستطيع بعد النصر أن يؤمن عدم تزييف السلطة الشعبية . وإذا لم يتولّ هذا الجيش ، في اثناء عملية التحرير ، مهام القيادة السياسية ، فليس باستطاعته توليها غداة الحرب ؛ وستعرف البرجوازية ، بكل تأكيد ، وبكل الدعم الامبريالي اللازم، كيف تستفيد من الوضع . ولنتأمل فقط في مصاعب الانقسام بين المناضلين في الداخل وحكومتهم السياسية في الخارج ، التي عانت منها جزائر اليوم ، وليس هذا هو أحسن الأمثلة على المخاطر التي يشكلها ، في حال عدم وجود حزب ماركسي – لينيني طليعي ، فصل المهام السياسية عن المهام العسكرية . وهكذا فإن الحرب الأهلية الثورية هي التي تدعم العناصر التاريخية للمجتمع الجديد . يقول لينين في ملاحظاته الأخيرة : « لقد أدت الحرب الأهلية إلى التحام الطبقة مع الفلاحين ، وهذا ضمان لقوة لا تقهر »[1] .

---

١ ـ مخطط لم يلق ، للمؤتمر العاشر لمجالس السوفيات في روسيا ، ديسمبر ١٩٢٢ . ←

في الجبل إذن ، التقى لأول مرة ، العمال والفلاحون والمثقفون . ليس الدمج سهلاً في البداية ، ففي قلب المعسكر يمكن الانقسام إلى جماعات كما في الطبقات الاجتماعية سابقاً . فالفلاحون ، خاصة إذا كانوا من أصل هندي ، ينعزلون ويتكلمون لغتهم الخاصة ، الكويشوا أو الكا كتشيكل . أما الباقون الذين يعرفون الكتابة ويجيدون الكلام ، فإنهم يجتمعون عفوياً في حلقة منفصلة. عدم الثقة ، الخجل ، العادات ، يجب قهرها شيئاً فشيئاً ، بعمل سياسي لا يتعب ، يعطي فيه الرؤساء المثل . فلدى هؤلاء الرجال ما يعلمونه فيما بينهم ، ابتداء بالفروقات التي بينهم . وبما أنهم مضطرون للتأقلم بظروف الحياة في مؤسسة واحدة ، فإنهم يتعودون على بعضهم . وببطء تمكن الحياة المشتركة والمعارك ، والمتاعب ، والمعاناة من قبل الجميع ، التحالف الذي يملك قوة الصداقة . أول قوانين حرب العصابات ، أن لا يعيش المقاتل وحده .. إن مصلحة الجماعة هي مصلحة الفرد ، والعكس بالعكس . العيش والانتصار هما العيش والانتصار للجميع معاً . فاذا تخلف محارب وبقي في مؤخرة مسيرة المجموعة ، فان المجموعة كلها تصبح مهددة في سرعتها وفي سلامتها . ففي الخلف يوجد العدو ، ولا يمكن ترك الرفيق في الطريق ، أو طرده . على الجميع إذن تقاسم حمله ، تخفيف الجراب الذي يحمله ، وأمشاط خرطوشه والإحاطة به حين وصول الهدف . في هذه الظروف يصبح حبل الانانية قصيراً ، وتذوب نفسية البورجوازي الصغير كالثلج في الشمس ، مقوضة قواعد ايديولوجية البورجوازية الصغيرة نفسها . في أي مكان آخر يمكن أن يحدث هذا اللقاء ، وهذا التحالف ؟ من هنا بالذات ، فإن الخط الممكن لحرب العصابات هو خط الجماهير ؛ فهي لا تستطيع العيش إلا بمساندتها ، وهي تعيش كل يوم بالاحتكاك بها . والميول البيروقراطية غير واردة لدرجة انها غير ممكنة . أليس هذا أحسن مكان لتربية قائد أو ملاك اشتراكي ؟ وهكذا ،

← ولينين نفسه هو الذي وضع خطوطاً تحت هذه الاسطر .

فإن الحرب الأهلية الثورية تصنع الثوار ، اكثر مما يصنعها هؤلاء .

يقول لينين في الملاحظات نفسها : « لقد ربّت الحرب الأهليـة وصلّبت : إن (دنكين) [1] والآخرين هم اساتذة جيدون ، لقـد درسوا بكل جدية ؛ كل مناضلينا الممتازين كانوا في الجيش » .

إن أحسن أساتذة الماركسية – اللينينية ، هم الاعداء ، في مواجهة الحرب الشعبية وجهاً لوجه . وان الدرس والتعلم لازمان ، ولكنهما غـير حاسمين . ليس هناك ملاكات اكاديميـة ، ولا يمكن ادعاء تكـوين ملاكات ثورية في مدارس التربية النظرية من غير صلة بالعمل العصياني وتجارب القتال مشتركين : سذاجة لها ما يبررها في أوروبا الغربية ، وبلاهة لا تغتفر في الامكنة الأخرى.
وتنكشف مهمة العصابات الثائرة في القيـادة السياسية ، أو رسالتها في تكوين قيادة سياسية ، أكثر فأكثر عندما تنتظم أول منطقة محررة . وعندها تجرّب وتتدرب على المقاييس الثورية التي ستطبـق غداً (كما في الجبهـة الثانية في اورينتي) : اصلاح زراعي ، مجـالس ريفيـة ، إزالة الضرائب ، محاكم ثورية ، انضباط حياة جماعية . وتصبح المنطقة المحررة نموذجاً أعلى ومثـالاً للدولة المستقبلة ، مدراؤها نماذج لمادة الدولة في المستقبل . من يقدر ، غير قوة مسلحة شعبية ، أن يقوم بـ « بروفات » اشتراكية مماثلة ؟

كثيراً ما يجد التحالف العمالي – الفلاحي صلة وصـل في مجموعة من الثوار من أصل بورجوازي ، منهم يختار قسم كبير من قيـادة العصابات الثائرة . وحتى لو تضاءلت هذه الامكانية اليـوم بسبب الاستقطاب الشديد للطبقات الموجودة ، فانها بعيدة عن أن تكون قد ألغيت .

هذا هو قانون « المعادلات – الاستبدالية » في البلاد شبه المستعمرة : فإن

---

١ ـ جنرال روسي حاول القضاء على الثورة البولشفية بجيش اوكراني وبدعم من انجلترا ، وقد لجأ بعد فشله إلى انجلترا ، ثم هجرها إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٥ . (المترجم)

طبقة عمالية ضئيلة العدد، أو واقعة تحت سيطرة ارستقراطيتها النقابية الاصلاحية، وطبقة فلاحية معزولة ومحقرة، يقبلان هذه المجموعة من أصل بورجوازي صغير، كقيادة سياسية. وفي خلال الكفاح الذي يوقظهما ويحركهما، يحصل نوع من الانتداب المؤقت للسلطات. وبالمقابل، وحتى تقوم بهذه المهمة هذه الرسالة التاريخية، ولا تغتصب دوراً متفقاً عليه، فإن على هذه البورجوازية الصغيرة – على حد تعبير كابرال – «ان تنتحر كطبقة لتبعث كشغيل ثوري، منسجم تماماً مع أعمق تطلعات الشعب». إن المكان والزمان الأكثر ملاءمة لهذا الانتحار هما عمل العصابات الثائرة. فهناك يمارس أفراد مجموعة المحركين الصغيرة القادمين من المدينة، التجربة اليومية للحقيقة الزراعية التي يواجهونها لأول مرة، ويتداخلون شيئاً فشيئاً مع احتياجاتها، ويفهمون من الداخل تطلعاتها، ويتخلصون من الكلامية السياسية، ويجعلون من هذه التطلعات برنامج عملهم. أين يمكن ان تتم عملية التجدد والبعث هذه أحسن مما تتم في جيش ثوري تحت التكوين؟

هنا يتحول الكلام السياسي فجأة إلى لحم، تبرز المثالية الثورية من خلال الشعارات التي لا لون لها، لتتخذ جسداً لها في وضح النهار، هذا التجسد مفاجأة، وعندما يحاول الذين عاشوه وصفه – في الصين، في فيتنام، في كوبا وفي سائر البلدان – فإنهم يصرخونه أكثر مما يقولونه.

«الروح الجدد والرغبة الجماعية في التخطي، والاحساس بقدر عال: كل ذلك يبدو في ملء انطلاقه، ويستطيع أن يذهب كثيراً إلى ابعد من ذلك. لطالما سمعنا كلاماً عن هذه الاشياء التي كان لها طعم الكلمات المجردة وكنا نشك في معانيها الجميلة، ولكننا الآن نعيشها، ونحسها بجميع الأساليب، وهذا فعلاً شيء فريد: لقد رأيناها تتطور بطريقة لا تصدق في هذه السييرا التي تشكل عالمنا الصغير. كلمة الشعب التي كثيراً ما تلفظ بمعنى عام وغامض، تصبح هنا حقيقة حية، رائعة، باهرة. الآن نعم، اعرف ما هو الشعب؛ أراه في هذه

القوة التي لا تقهر والتي تحيط بنا في كل مكان ، اراه في هذه القوافل من ٣٠ إلى ٤٠ رجلاً ، التي لا تملك من وسائل الانارة غير المشاعل ، والتي تهبط المنحدرات الموحلة في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً ، بثلاثين كيلو غراماً على الظهر ليحضروا لنا المؤن . من نظّمهم بهذا الشكل المدهش ؟ من أين اكتسبوا كل هذه المهارة ، وهذا الدهاء ، وهذه الشجاعة ، ونكران الذات ؟ لا احد يعرف ! إنه شبه معجزة ! إنهم يتنظمون وحدهم ، عفوياً ! عندما تتعب الحيوانات وتستلقي أرضاً « عاجزة من القيام برحلات جديدة ، تبرز الرجال في كل الجوانب ، وتحضر البضاعة . القوة لا تستطيع عمل أي شيء ضدهم . يجب قتلهم كلهم ، حتى آخر فلاح ، وهذا مستحيل ؛ لا يستطيع الطغيان أن يصل إلى هذا الحد ، فإن الشعب يتنبه إلى ذلك ، ويعي أكثر ، يوماً بعد يوم ، قوته الهائلة [1] » .

كل هذه العوامل ، عندما تتفاعل معاً ، تطابق شيئاً فشيئاً فرقة غريبة ، جعلتها بعض الصور تبدو جميلة جداً ، ولم يعرف غباؤنا إلا أن يندهش فيها بالملابس الغريبة واللحى الطويلة – إنهم مناضلو عصرنا : ليسوا شهداء ، ولا موظفين ، بل هم مقاتلون ، ليسوا من صنع صنائع آلة ، ولا ملوكاً مطلقي الصلاحية : فهم الآلة ، في تلك الفترة ، رجال مهاجمون ، خاصة عند الانسحاب ، صلاب ومسؤولون ، يحمل كل منهم معنى وهدف ذلك الصراع الطبقي المسلح ، عن طريق رؤسائهم ، الذين يحاربون مثلهم ، والذين يرونهم كل يوم يحملون الاحمال نفسها على ظهورهم ، يعانون من الدمامل نفسها

---

١ ـ مقطع من آخر رسائل فيديل كاسترو إلى فرانك بايس ، سييرا مايسترا ، ٢١ يوليو ١٩٥٧ . الانبهار نفسه ينعكس اليوم في رسائل تورسيوس ، ودوغلاس ، وكاميليو توريس وغيرهم ، وبالطبع ، فان هذا لا يعني أنه من السهل الحصول فوراً على مساندة الفلاحين ، ولكنه يعني أنه إذا تم الحصول على هذه المساندة ، فمن الممكن أن نصنع بها العجائب .

وعندما كتب فيديل هذه الرسالة ، كان موجوداً في السييرا منذ ثمانية أشهر ، ونجا من خيانات عدد من الفلاحين .

في اقدامهم ، يقاسون من العطش كالجميع في أثناء المسيرة .

الذين لا يعجبهم العجب ، سيبتسمون من هذا الحلم على طريقة روسو – يجب التذكير بأن ليس الشغف بعلم النبات ولا السعي وراء السعادة هما اللذان دفعا الثوار إلى الغابة ، ولكن الوعي بضرورة تاريخية : تؤخذ ويحافظ عليها في العاصمة ، ولكن الطريق الذي يوصل المستغَلين (بفتح الغين) إليها يمر حتماً بالريف .

ويجب التذكير بأن الحرب والانضباط العسكري ، هما في حرب العصابات أقوى بكثير مما هما عليه في جيش نظامي ، ولهما صرامة ليست لـ « العقد الاجتماعي [1] » . بعض هذه الجماعات اختفى اليوم ، قبل أن يصبح طليعة ، اما انطواء او تصفية . وفي كفاح حاسم كهذا ، المخاطرة فيه خطيرة ، وما زال عليه أن يبحث عن نفسه في التلجلج ، تعتبر هذه الهزائم طبيعية .

أما الجماعات الأخرى ، الأكثر اهمية ، الموجودة في بلاد ثبت التاريخ اهميتها بالنسبة لأميركا اللاتينية – فنزويلا ، غواتيمالا ، كولومبيا – فقد أكدت نفسها وأخذت تتطور . من هناك ، من هذه البلاد ، يتقدم تاريخ اليوم .

وغداً ، ستنضم بلاد اخرى لها ، وتأخذ الطليعة من هذه الطليعة .

هل لاحظنا أن حركات العصابات الثائرة هذه ، في غالبيتها ، ليس لها مفوضون سياسيون ، ولا هي تطالب بهم ؟ إن معظم المقاتلين قدموا من صفوف شيوعية ، إنها العصابات الثائرة الاشتراكية الأولى التي لم تعتمد نظام المفوضين السياسيين .

ويبدو أن هذا النظام لا يوافق حقيقة اميركا اللاتينية .

وإذا كان ما نقوله لا يفتقر إلى المعنى ، فإن عدم وجود خبراء الشؤون السياسية

---

١ – كتاب جان جاك روسو الذي يحتوي على نظرياته الاجتماعية (المترجم) .

يجيء لعدم الوجود المقابل لخبراء الشؤون العسكرية : عصابات الثـــوار هي هؤلاء وأولئك ، من غير فكاك ، الجيش الشعبي هو نفسه سلطته السياسية ، قوادهم هم الموجهون السياسيون للمقاتلين ، وموجهوه السياسيــون هم قواده . فلنوجز ما قلنا. إن عدم الفهم الكامل لهذه الجدة النظرية والتاريخية لهذا الوضع يمكن أن يؤدي إلى اخطاء خطيرة في قلب الحركة المسلحة نفسها . واعتبار الحزب النائم مختلفاً عن الحزب ذي النوع الجديد الذي ينمو مـــع العصابات الثائرة ، وأرفع منه ، يقود منطقياً إلى موقفين :

الأول : اخضاع العصابات الثائرة للحزب . ونظام المفوضين السياسيين هو من آثار هذا الاخضاع . وهو يفترض أن جيش العصابات الثائرة غـير قادر على قيادة نفسه وأنه يجب توجيهه من الخارج ؛ أي أنه يفترض وجود القائد والموجه السياسي في طليعة سابقة للعصابات الثائرة . هذه الفرضية ، للأسف ، لا تنطبق مع الواقع .

الثانية : الصاق الحزب بالعصابات الثائرة . هـــذه الفرضية ، للأسف ، لا تنطبق مع الواقع .

الثانية : الصاق الحزب بالعصابات الثائرة ، وبكلمة أخرى بنـــاء الجيش الشعبي على الشكل التقليدي للحزب .

لقد رأينا مفعول هذا النظام في التفضيل الممنوح إلى مسائل التنظيم على مهام العمليات ، اعتقاداً بأن التنظيم يمكن ان يخلق المهمة . مفعول آخر يتمثـل في مجالس المقاتلين ، المنسوخة عن مجالس الخلايا . هـذا الأسلوب الديمقراطي هو بالنسبة للديمقراطية في قلب العصابات الثائرة كما البرلمـــان بالنسبة للديمقراطية الاشتراكية (أو كالفن المتقرب من الشعب بالنسبة للفن الشعبي) : إن هذه العملية أكثر من اقتلاع شكل غريب في جوهره من جذوره وإعادة زراعته ، إنه تطعيم خطير للموضوع . من الطبيعي أنه يجب تشجيع وتطـوير اجتماعات المناقشة السياسية والعقائدية بين المقاتلين ، ولكن القرارات هي من شأن قيادة يُفترض أن يكون لديها تقدير واضح وصحيح في المجالين العسكري والانضباطي.

اما اقتراح اجتماعات للمقاتلين ، في كل مناسبة ، فإن ذلك يدفعهم لفقدان الثقة بالقيادة ، وفي النهاية بأنفسهم ، فهذه الاجتماعات تفكك الانضباط الواعي ، وتحرك الخلافات والانقسامات في قلب الفرقة ، وتضحي بقدر كبير من فعاليتها العسكرية . وفي كتابات عن الحرب الاسبانية اشارات إلى الكيفية التي كان المقاتلون يناقشون فيها احياناً أوامر الضباط في وسط المعركة ، فيرفضون مهاجمة هذا الموقع أو ذاك ، أو الانكفاء في وقت معين ، ويعقدون الاجتماعات لاختيار التكتيك الذي يجب اتباعه ، بينما العدو يطلق النار . اما النتائج فمعروفة .

وفي كوبا ، ادى الاستعمال العابر لهذا الأسلوب في بداية الحرب إلى زرع التشويش والانشقاق في قلب العصابات الثائرة ، بمناسبة محاكمة علنية ، مما اودى بحياة نقيب ثمين ، كانت بندقيته قد انطلقت خطأً وقتلت رفيقاً .

ومن الممكن سرد كثير من التجارب الحالية للوضع الجديد : لا بدّ من اساليب جديدة ، أي انه يجب الحذر من أن نتبنى ، اما بالخطأ أو بالتقليد ، اشكال عمل لا تكون ملائمة لهذا المحتوى الجديد .

ونستطيع الآن الرد على الصراع الأساسي .

في بعض مناطق اميركا لن يكون هناك ، جدلياً ، وفي المدى الطويل ، اختيار حزب طليعة وجيش شعبي .

ولكن في اللحظة الراهنة ، هناك ترتيب للمهات ذو تنسّق تاريخي : إن الجيش الشعبي يكون نواة الحزب وليس العكس — العصابات الثائرة هي الطليعة السياسية ، ومن تطورها وحده يمكن أن يولد الحزب الحقيقي .

ولذلك يجب تطوير العصابات الثائرة ، من أجل تطوير الطليعة السياسية .

لذلك وجب في الظرف الحالي أن يكون التشديد الأساسي على تطوير حرب العصابات وليس على تقوية الأحزاب القائمة أو خلق احزاب جديدة .

ولذلك فإن العمل العصياني هو اليوم العمل السياسي رقم واحد .

- ٣ -

نتـائج
الدرس للمستقبل

من هنا ينبعث خط عمل .

من هنا تنبعث مسؤولية تاريخية : تلك التي لم تتردد الثورة الكوبية أبداً في تحملها .

عندما واصل الرفيق شي غيفارا العمل العصياني ، فقد تولى ، على الصعيد الاممي ، نتائج خط العمل هذا المجسد في قائد الثورة الكوبية فيديل كاسترو .

وعندما يعاود شي غيفارا الظهور [1] ، فليس من قبيل المصادفة التأكيد بأنه سيكون على رأس حركة عصابات ثائرة ، كقائد سياسي وعسكري لا يناقش .

بإستطاعة أي كان تلخيص النتائج العامة لهذه الاضافة الكوبية إلى اميركا اللاتينية .

١ – الأمر الحاسم بالنسبة للمستقبل هو افتتاح مراكز عسكرية ، وليس « مراكز » سياسية .

هذا التمييز ، الرئيسي في مردوداته التطبيقية ، هو اكثر من الاختلاف بكثير . بين المراكز العسكرية و « المراكز » السياسية ، ليس هناك فقط اختلاف كالذي بين الأهم والمهم ، أو الذي بين الأكثر حسماً والأقل حسماً ، اختلاف يقتنع به الجميع ، ابتداء بأولئك الذين عندما افتتحوا اولاً جبهة سياسية ، ظنوا أنهم إنما يهيئون لفتح جبهة عصيان ، مع أن جبهتهم السياسية كانت « ماركسية – لينينية » ووطنية ، حسب القواعد التقليدية . ابداً ، فالأمر يتعلق بجدلية جديدة للمهمات ، وحتى نعبر عنه برسم تصوري ، فلنقل إنه من المركز العسكري يتمّ التطور نحو الحركة السياسية – . امتداد طبيعي لكفاح مسلح ذي جوهر سياسي – ولكن لا يمكن التطور ، إلا في

---

١ ـ حين ظهر هذا الكتاب ، لم يكن تشي غيفارا قد قتل في بوليفيا . (المترجم)

حالات استثنائية ، من الحركة السياسية « الصرف » إلى المركز العسكري . لا يمكن خوض قتال منتصر على البورجوازية على الأرض التي تختارها . في معظم البلاد التي توجه فيها ظروف القتال المسلح ، يمكن الوصول إلى « المركز » السياسي إذا بديء بالمركز العسكري ، بينما إذا بديء بـ « المركز » السياسي ، فإنه من شبه المستحيل الوصول إلى المركز العسكري .

من هنا الارتباك التقليدي ، الذي كثيراً ما يتكرر : تظهر منظمة ثورية جديدة على المسرح . إنها تطمح للحياة الشرعية ، ثم إلى المشاركة في الحياة السياسية « الطبيعية » لوقت معين ، لكي تتماسك ، وتبني اسمها ، وتهيء بذلك شروط الكفاح المسلح . ولكن ها هي شيئاً فشيئاً منهمكة وملتصقة بكل طاريء من طواريء هذه الحياة السياسية العامة ، التي تصبح الافق المعتاد لنشاطها . انها تستقطب بعض الملاكات ، بعض المناضلين ، وتعقد مؤتمرها الأول ، وتصدر صحيفة بالرونيوتيب ، ونشرات . ثم تأتي المجالس السنوية المئة ، والاجتماعات الالف ، و « الاحتكاكات الدولية الأولى » ، وإرسال المندوبين إلى الخارج ، لأنه من الواجب حضور عدة مؤتمرات ، والبقاء في حالة تمثيل دائم في عدة منظمات أخرى ، واقامة العلاقات العامة . والميزان يبقى إيجابياً ، بإستمرار : العاملون يعملون ، والمطبعة تطبع ، والمندوبون يسافرون ، والصداقات الدولية تنمو « والقادة يغرقون في العمل ، بإختصار الآلة تدور . لقد أنفق على هذه الآلة كثيراً ، فيجب الاهتمام بها . « إنّ المنظمة تقوى » .

وإذن ، فإن نظرية الكفاح المسلح تتراجع لعدة اشهر ، ثم لعدة سنوات . إن الوقت يمر ، بحلوه ومره ، اما فتح العداوات فيعتبر كلما مر الوقت تجربة فيها شيء من التجديف ، مغامرة ، تظل للأبد « سابقة لاوانها » . طبعاً ، يجب تهدئة المناضلين الذين يمكن أن يقلقوا ويطالبوا بالمحاسبة ، ولهذا يتم كل سنة تشكيل فرقة من « الملاكات العسكرية » — امر متعلق فقط بالقيادة العليا — ولكن معروف لكل المناضلين في المنظمة الذين يهمسون

بآمالهم حيثما ذهبوا . للأسف لم يحن الوقت بعـــد . ولا يمكن أبداً حصر المفاجآت ، وعلى المناضلين أن يفهموا أن الانتقال الفوري إلى الكفاح المسلح ، فيه كسر لوحدة المنظمة المقدسة ، وتخريب على شرعيتها ، واستفزاز يؤدي إلى التنكيل بقادتها . باختصار ، تصبح المنظمة السياسية هي هدفها بالذات .

وهي لا تنتقل إلى الكفاح المسلح ، لأن عليها اولاً أن تنتظر حتى تتشكل في حزب طليعي متين ، بيما هي لا تستطيع أن تنتظر نظامها الأساسي كطليعة معترف بها إلا بالكفاح المسلح . وهذه الدائرة المفرغة تفسد الكفاح الثوري منذ سنوات .

وهي لا تنتقل إلى الكفاح المسلح ، لأن عليها اولاً أن تنتظر حتى تتشكل في حزب طليعي متين ، بينما هي لا تستطيع أن تنتظر نظامهـــا الأساسي كطليعة معترف بها إلا بالكفاح المسلح . وهذه الدائرة المفرغة تفسد الكفاح الثوري منذ سنوات .

إذن لا جدوى من خلق اجسام مضادة في قلب المنظمات السياسية القائمة : فالعدوى الانتهازية ، البعيدة عن التوقف ، ستتضخم وتتهيج . ولقـــد ثبت اليوم أن بعض الصراعات السياسية أو الايديولوجية ، وبعض النزاعات العلنية لم تؤد الا إلى تأخير البدء بالكفاح الجماهيري الحاسم . إن خلق مركز سياسي جديد لا يعبىء الا المعبئين : فيجري نقل بعض المناضلين وقبضة من القـــادة الشيوخ من حزب لآخر ، وتتم بعض الاصلاحات الداخلية الطفيفة في داخل المهنة ، ولكن مستوى الصراع الطبقي لا يرتفع بهذا القـــدر ، بل بالعكس يتجه نحو الانخفاض ، لأن الكفاح لا يبدأ بنظريات — لا علاقة لها من جهـــة أو من أخرى بالواقع الوطني — بل بتبادل احاديث شخصية ، باحقاد وتوافه . وفي القاعدة « لا يثير تحول الدور هـــذا لا العمال ولا الفلاحين ، الذين لا يعلمون به . واما فوق ، فان هذه النشاطات التعاونية لا تؤثر بشيء في الطبقة الحاكمة ، بل إن ذلك على العكس ، يثبت الدمّل . إن المؤتمرات ، والندوات العامة ، والنشرات ، والملصقات ، تتكاثر في وسط المدينـــة بكل شرعية ،

بينما يحدث في البـــلاد نفسها أن تقوم الحكومات نفسها بمطاردة « العناصر الناشطة » الاكثر صمتاً ولكن الاشد خطراً بالنسبة لها .

يجب إذن خلق اجسام مضادة في القاعدة ، على مستوى الجماهير . وتقديم اختبار حقيقي لها في متناول يدها . وعندئذ فقط تتبدل الاتجاهات السياسية القائمة . وفي معظم بلاد اميركا اللاتينية ، الكفاح المسلح وحده بدأ او كاد يبدأ باخراج الثورة من الغيتو [1] ، ومن الثرثرات الجامعية ، ومن الطبقة المتـــازة لـ « الجوالة العالم » الدائمين .

وللتعبير عن ذلك بلغة الفلسفة ، فان إشكالاً معيناً قد مات بعد الثورة الكوبية ، أي طريقة معينة لطرح الاسئلة ، تتحكم في مجرى جميع الاجوبـة الممكنة ، وليست الاجوبة هي التي تحتاج إلى تغيير ، بل الاسئلة نفسها : هـذه التجمعات او الاحزاب الماركسية – اللينينية تتحرك في داخل وضع سياسي مريب تسيطر عليه البورجوازية ، وبدلاً من ان يغيّروا هذا الوضع ، ساعدوا على ترسيخه . لقد حشروا أنفسهم في أسئلة خاطئة واصبحوا اليوم ضحايا الوضع المريب الانتهازي : صراع على التصدر والتنصيب بـــين المنظمات اليسارية ، جبهات انتخابية ، مناورات نقابية ، تشويش على اعضائهم بالذات . هـــذا الوضع المريب هو ما يسمى بكل بساطة « التسيُّس » . وللخلاص من كل هذا ، لا بد من تبديل أرض المعركة ، بكل ما في العبارة من معان . لذلك فإن جميع المنظمات السياسية الجديدة التي ولدت بعد كوبا ، وجميع الاحزاب او الجماعات الماركسية – اللينينية التي تأسست ، إذا صدقنـــا تصريحاتها ، من أجل التعجيل في الكفاح المسلح الذي خربه « التحريفيون » ، لم يصلوا إلى اهدافهم . اكثر من ذلك ، فحتى تدافع هذه المنظمات عن ادعائهـــا أن لها وحدها حق الاحتفاظ بمركز الطليعة السياسية للبروليتاريا ، فقد وصلت إلى حد تخريب الكفاح المسلح في كل مكان ما زالت تعمل فيه . ووجدت نفسها في بعض الامكنة إلى جانب القيادات او الاحزاب التي انفصلت عنها ، لتدين أولئك الذين يضعون دعايتهم موضع التنفيذ. إنهم اعداء بالقول، وشركاء بالفعل

١ – حي اليهود ، أو الاقليات ، في أية مدينة (المترجم) .

في اللعبة نفسها . لو كان هناك علم حساب خاص باميركا اللاتينية ، لقلنا بأن الجزء يصلح لعملية الضرب . هذا الاختبار الخاطيء يضاعف في الواقع العيب الذي كان يدعي الوقوف بوجهه . إنه لمن الممل جداً دراسة فشل المنظمات أو الاحزاب التي تتكون « صينية » قبل أي شيء آخر . فهي تستطيع أن تجذب في لحظة تكوينها مجموعات من المناضلين الشرفاء والمصممين ، بفضل برنامجها ووعودها . وسرعان ما تؤدي اساليبها في العمل ، والانتهازية الفاضحة لخطها السياسي ، والتخريب الخبيث الذي يقوم به خطها الرسمي على عملية الكفاح المسلح ، إلى دفع الطبقات الثورية (الشبيبة بشكل اساسي) في هذه المنظمات إلى التخلي عنها [1] . وتجد هذه المنظمات نفسها في عراك مع كراهية اضافية لمنظمة سياسية اضافية (الجزء يضرب ولكنه لا يقسم) . ومن المحزن الاعتراف بهذه الظاهرة : ففي بعض البلاد ، تجد الجماعات الثورية التي تنطلق لتحضير جدي للكفاح المسلح ، تجد نفسها مراقبة ومطاردة من قبل هذه الاحزاب « الماركسية – اللينينية » ، التي تخلى الكثيرون عنها ، اكثر مما هي مراقبة ومطاردة من قبل منظمات القمع النامية للدولة . لقد فهموا على كل حال ، أن انقسام الاحزاب الشيوعية ، نتيجة للصراع الكلامي الدولي ، قد تمّ على اساس تقسيم خاطيء ، وأن الانقسام التاريخي الحقيقي بين الماركسيين الثوريين وغيرهم له طبيعة أخرى ، ويجري على أرض أخرى .

ليس التنديد بـ«الانقسامية» إذن تبليغاً لاتجاه سياسي معين ، أو موقف ايديولوجي ضد موقف آخر ، إنما هو تنديد بأسلوب ، وبشكل كفاح مسلح ثوري لأنه باطل وغير فعال ، مطاط ومتناقض مع اهدافه وادعاءاته . إنه إشارة بالأصبع إلى طريق مسدود ، وإشارة إلى طريق مختصر .

---

١ – هكذا استقالت في عام ١٩٥٨ من الحزب الشيوعي « الصيني » في البيرو (بنديرا روجا) الشبيبة الشيوعية ، لتشكل « الجبهة المسلحة للتحرير الوطني » في بيرو . وعندما فقد الحزب هيكله، انهار الى تيارات عديدةغير منتظمة، والعملية نفسها تتكرر في أماكن أخرى..

في كل مكان في اميركا اللاتينية يوجد فيه طليعة سياسية مسلحة ، لم يعد هناك مكان في الثورة للعلاقة الكلامية ، الايديولوجية ، ولا لنوع معين من الصراع الكلامي : لقد غيروا أرض المعركة ، والاسئلة تغيرت . وفي كل مكان فيه نزاع حقيقي مع الامبريالية ، تتجمع المجموعات الصغيرة ويتوحّد الثوار حول اهداف واساليب مرتبطة بجرب الشعب [١] .

فلنتحدث قليلاً في علم الاجتماع . إن هذا النوع من المنظمات السياسية ، « الطليعية » أو غيرها ، لا وجود له في أي مكان فيه حركة عصابات ثائرة ناشطة ، فنزويلا ، غواتيمالا ، كولومبيا ، وهي البلاد التي تجد حركات عصاباتها الثائرة في الثورة الكوبية حاميها ومثلها الاعلى الخلقي والسياسي ، بينما نراها توجد اكثر في البلاد التي تكتمل فيها تاريخياً شروط الكفاح المسلح : بيرو ، بوليفيا ، برازيل الخ.. ولا يمكنّها أن تصبح شيئاً إلا في بلاد بعيدة عن الكفاح المسلح ، حيث لا يتم انفصال كامل عنها لطليعة ثورية عاملة . بكلمة أخرى ، فإن لهذه المجموعات الماركسية-اللينينية اهمية معكوسة بالنسبة للوضع الثوري في البلاد التي توجد فيها ، فهم لا يدينون بنجاحهم النسبي جداً إلى كونهم أكثر تناسباً ثورياً ، بل لأن الوضع ليس متناسقاً ثورياً .

لذلك يجب تجنب هدر الجهود والموارد على جبهات سياسية « صرفة » أو

---

١ - فلنتصور بمجهود خيالي خارق ان مجموعة « صينية » قد توصلت في غواتيمالا أو فنزويلا إلى جمع خمسين طائشاً أو خائناً . فانهم لن يستمروا أكثر من خمسة عشر يوماً . ليس هناك لغة مشتركة بين ثائر كولومبي أو غواتيمالي وبين « صيني » من سانتياغو أو مونتيفيديو : عندما يحدث لهم أن يتلاقوا في الخارج ، فانهم - حرفياً - لا يستطيعون التفاهم .

الظاهرة نفسها - بقليل من التعديلات - تتكرر في افريقيا . نصل من هنا إلى تناقض مفاده أن هذه الاشكال من المنظمات « اللاتحريفية » تلاقي أرضاً اخصب في أوروبا ، في سياق نظري ، حيث يجمعون اكثر من ماركسي - لينيني شريف ومثابر .

أما « مناطق العواصف » وطلائعها الثورية فيبدو انها تبتعد شيئاً فشيئاً عن اشكال المنظمات والحركات المستوحاة من الرفاق الصينيين ، التي تستطيع ان تكسب ارضاً عند المناضلين الاوروبيين وفي المناطق الهادئة .

ايديولوجية « صرفة » ، وتجنب تعقيم الطاقات الثورية ، الأمـــر التقليدي في اميركا اللاتينية ، في منافسات أو انشقاقات الطوائف .

لذلك ، ونظراً لاستحالة تحريك الحركة الثورية الا بنظرية العصيان ، فإن الكثيرين يعتقدون ، في معظم بلاد اميركا اللاتينية ، أنه يجب تركيز جهودها على المنظمة السياسية ـ العسكرية ، وحتى لا تجمد السياسة الثورية ، يجب ابعادها عن السياسة المجردة . وحتى يتم وضعها في مسيرتها ، يجب توظيفها في منظمة سياسية وعسكرية في الوقت نفسه ، تجاوزاً لكل الصراعات الكلامية القائمة .

٢ ـ ليس هناك طليعة محددة ، من غير كفاح مسلح . ففي كل مكان لا كفاح مسلحاً فيه ، مع وجود شروط الكفاح المسلح ، فإن ذلك يعني أن لا طليعة سياسية . (ليس هذا حال الاورغواي مثلاً ، حيث لا توجـــد شروط ثورية للكفاح المسلح ، وحيث توجد حركة جماهيرية قوية ومقاتلة)

وإذا لم تنشأ بعد في هذه البلاد طليعة ، فذلك لأن كل المنظمات اليسارية لها حق متساو في المطالبة بدور الطليعة .

وإذا كانت هذه المنظمات تستطيع أن تقوم بدور الطليعة ، فليس في اقامة علاقات مع احداهن فقط لتشكيل هذه الطليعة .

في هذه الظروف ، يصبح التحجر ، الأكثر من سخيف ، بدء ضجيج .

إن ما يجب منعه ، هو أن تقوم احزاب ماركسية ـ لينينية لا تؤدي واجبها الثوري باقامة نقابة مصالح مهددة ، ومضايقة البروز الحتمي لأشكال التنظيمات الجديدة والعمل الثوري . إن هذه الأحزاب ، بالاسم الذي تحمله والعقيدة التي تنادي بها ، تحتل بالحق مركز الطليعة الشعبية ، فاذا كانت لا تحتل هذا المركز بالفعل أيضاً ، فانها لا تستطيع أن تتصرف بطريقة تجعل هذا المركز شاغراً ، فالثورة ليست ملكية احتكارية .

لقد كرر فيديل كاسترو مؤخراً : « إن لنا سياسة علاقات واسعة مع جميع

منظمات اليسار والجبهة العريضة ، وفق اعلان هافانا » .

ومن الصعب على هذه الجبهة أن تتجسد قبل الكفاح المسلح ، على الأقل إذا كان الأمر يتعلق بجبهة ثورية ، وليس بتحالف يعمر لفترة الانتخابات أو بحلف مع البورجوازية لامتلاك سلطة ضائعة لطبقة ذات امتيازات . إن تشكيل هذه الجبهة الواسعة ضد الامبريالية ، يمر إذن بالكفاح المسلح .

إن الشرط الوحيد الذي تتطلبه كوبا لقاء منح تأييدها هو ، بعكس بلاد أخرى ، التالي : « لا يمكن السعي لوظيفة « طليعة » قبل مواجهة الامبريالية بالأفعال وليس بالأقوال ، وهو الشرط الذي طلبه لينين من جميع المنظمات الماركسية التي أرادت الانضمام إلى الاممية الثالثة . يستحق « الماركسيون — اللينينيون » كذلك ملاحظة لينين : حتى تعرفوا بمَ يفكر الاشتراكيون — الديمقراطيون ، أنظروا إلى أيديهم ، وليس إلى افواههم .

٣ — لا يغرب عن بال احد أن الكفاح ضد الامبريالية في اميركا اللاتينية اليوم ، هو كفاح حاسم ، لأن ما عداه ثانوي .

وبما أن الكفاح الجماهيري المسلح ضد الامبريالية هو وحده القادر ، في المدى الطويل ، على خلق طليعة قادرة بدورها على قيادة الشعوب نحو الاشتراكية ، لا يمكن اليوم اتخاذ موقف من « الاصلاحية » ، أو من هذه أو تلك من المنظمات القائمة ، بل من الامبريالية بشكل أساسي . إن ضبط النشاط على « عدم نشاط » الاصلاحيين ، ليس فيه مضيعة للوقت فحسب بل شلل لما هو حاسم باسم ما هو ثانوي .

أحسن من ذلك ، إن خير أسلوب للتخلص نهائياً من المساومات ، هو الانتقال الى مهاجمة الامبريالية وخفرائها المحليين ، حيث توجد الظروف الملائمة . بهذه الطريقة تنقلب المسألة : إن على المصالحين أن يحددوا موقفهم من الثوار ، وليس العكس . وعليهم هم أن يعطوا تعريفاً لأنفسهم في الحقيقة ، وبالنسبة لأمر واقع ، فإما أن يدخلوا في كفاح ضد الامبراطورية ، وفي هذا خير

الجميع ، أو أن لا يدخلوا ، وفي هذا شر لهم . وسيتولى التاريخ عملية تركهم على جانب الطريق . إن كميناً ينجح ، أو جلاداً يعدم ، أو حفنة من السلاح تجمع ، هي في الوقت الحاضر خير اجوبة على ثرثرات الاصلاحيين الذين قد يبرزون في هذا البلد أو ذاك في اميركا .

بعد الثورة الكوبية ، وبعد غزو سان – دومينغو ، أصبحت تقوم في اميركا اللاتينية حالة طوارىء ، إن رجال البحرية الأميركية يطلقون النار على كل ما يتحرك ، من غير تمييز . وإن أسباباً مستعجلة وأسباباً مبدئية تفرض الجبهة الثورية المسلحة ، وحيثما اتخذ القتال خطاً تصاعدياً ، وحيثما قبضت القوى الشعبية على شعار الطوارىء ، دخلت في الحقل المغناطيسي للوحدة . أما في جميع الأمكنة الأخرى، فإنها تتشتت وتضعف . كل شيء إذن يحدث وكأنه يجب التركيز على المنظمة التطبيقية للكفاح المسلح من أجل المساهمة في الوحدة على أساس المبادىء الماركسية – اللينينية .

حول خط العمل هذا ، يتجمع اليوم في اميركا اللاتينية اولئك الذين يحملون اسلحتهم في أيديهم . ونحوه لنجذب كل التشكيلات كلما اقتربت من الكفاح المسلح . هذا اللقاء ليس من الصدفة في شيء ، وليس – بنسبة اقل – من المؤامرة في شيء . لم يجر الاتفاق على ذلك ، كما تتظاهر القلة الحاكمة بالاعتقاد . إن هذا اللقاء هو – بكل بساطة – عقلاني . وفي وضع تاريخي معين ، يمكن أن توجد ألف طريقة للتحدث عن الثورة ، ولكن هناك توافقاً ضرورياً بين كل اولئك الذين صمّموا على صنعها .

ـ ٢ ـ

قضايا الاستراتيجية الثورية
في اميركا اللاتينية

تهدف هذه الملاحظات[1] إلى الإجابة على السؤال التالي : كيف عدلت الثورة الكوبية من الصراع الطبقي الدموي الذي تخوضه الجماهير الشعبية في اميركا اللاتينية ضد الاستعمار والاوليغارقيات الحاكمة ؟ ما هو تفسير تباطؤ وتيرة نمو العملية الثورية وتفسير المصاعب التي تواجهها في تلك الحلقة الحاسمة من حلقات السلسلة الاستعمارية ؟ كانت الثورة الكوبية ، منذ أيامها الاولى ، وحتى الآن ، تعتبر نفسها الفصيلة الطليعية لثورة اميركا اللاتينية ، وبعد ستة أعوام من النضال لم يتخل الشعب الكوبي ولا قادته عن ذرة واحدة من امميتهم البروليتارية . من هنا ، فالسؤال هو من الأسئلة الأكثر حيوية التي تطرحها الثورة الكوبية علينا وعلى نفسها في حوار متواصل ومحموم احياناً . لأول مرة في تاريخ طرح السؤال سوف نعمد على طرحه مثلما هو مطروح على الذين يعيشونه في زحمة الأحداث ، أي بوصفه علاقة متبادلة شاملة بين القوى بحيث ان اي اختلال في توازن أحد الاقطار العشرين التي تتكون منها القارة الاميركية اللاتينية لا بد من أن يؤدي الى اختلال في توازن الأقطار التسعة عشر الاخرى . اخلاصاً منا لهذه المحاولة ، لنشدد ، بادىء بدء ، على الطابع الجزئي والاستعراضي لهذه الملاحظات التي تطرح هذه العلاقة المتبادلة على أسس سياسية بالدرجة الاولى ، ثم على أسس عسكرية .

اننا نفتقر ، من اجابتنا على السؤال ، الى دراسة تاريخية لظاهرة معقدة هي ظاهرة الردة التي تعقب انتصار الثورة الاشتراكية في بلد ما . لقد حدثت ثلاث

---

١ - ترجم هذا القسم من الكتاب فواز طرابلسي .

ثورات بالغة الأهمية خلال الخمسين سنة الاخيرة – في روسيا والصين و كوبا – الامر الذي يجعل من وضع هذه الدراسة مهمة مستعجلة . والدراسة المحددة (المتكيفة –طبعاً– مع الاوضاع التاريخية المختلفة) لمحاولات التقليد التكتيكية والستراتيجية التي تؤثر في الاحزاب الثورية في البلدان المجاورة ، للحصار الاستعماري الذي يعقب الثورة ، هي التي تسمح لنا بأن نعد الادوات الضرورية لمناقشة مسألتنا . فالفاشية في اوروبا ، وحرب التدخل الاستعماري في جنوب شرقي آسيا ، وتزايد السيطرة العسكرية على الأنظمة السياسية في اميركا – كل هذه لا يمكن اعتبارها تراجعات آلية ، او ارتدادات الى أشكال سابقة من الهيمنة الطبقية . ولا يمكن ، بالتأكيد ، تحليلها بواسطة مقولة وحيدة الجانب كمقولة «نفي النفي» . ذلك أنه بالرغم من جميع الفوارق المحددة في الزمان والمكان بين كوبا المعاصرة وبين الجمهورية السوفياتية الفتية ، فان ذلك لا يلغي أوجه الشبه الواضحة بينهما . فبعض تصريحات القادة الكوبيين – خلال عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ – التي أعلنوا فيها حتمية قيام الثورات الجديدة في القارة الاميركية ، تذكر ، بالضرورة ، بخطابات لينين – خلال عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ – التي عبر فيها عن يقينه بقرب قيام انتفاضات بروليتارية في اوروبا الغربية . وهذا وهم ما لبث لينين أن تخلى عنه (على عكس تروتسكي) ، كما تخلى عنه القادة الكوبيون حالياً ، على ما يبدو . والتقليد العفوي للنموذج الكوبي في حرب الغوار (ولسنا نتحدث هنا عن حرب الغوار في فنزويلا او كولومبيا ، بل عن تجارب أخرى سوف نتعرض لها لاحقاً) ، يذكر هو ايضاً بتقليد النموذج البلشفي من قبل ثوار سبارتاكوس في المانيا ومن قبل العامية المجرية التي أعلنها بيلاكون ، وقد سحقت كلا الانتفاضتين في مطلع عام ١٩١٩ . ألم يمر الاستعمار في علاقته بكوبا بالاطوار ذاتها التي مر بها في علاقته بالاتحاد السوفياتي ؟ أولاً : لعبة التربص ، ثم حرب التدخل – الهجوم على خليج الخنازير في كوبا ، ثم الحرب الاقتصادية ، فالحصار الشامل ، يليه فتح الثغرات في الحصار عن طريق عقد اتفاقات جزئية لعبت بريطانيا فيها الدور الأول في كلا المناسبتين ،

وأخيراً ، انتهاج سياسة اصلاحية مشوشة في الاقطار المتاخمة لـ «بؤرة الشعب». فقد سلكت الاجراءات الزراعية ، عقب الثورة المجرية ، في الاقطار الأوروبية المحيطة بالدانوب الطريق ذاته الذي سلكته الاصلاحات الزراعية التي دعا اليها «التحالف من أجل التقدم». ولاقت المصير ذاته أيضاً. يبقى أن نقول ان هذا التشبيه ليس مقارنة ، لكنه درجة الصفر من تقويم محدد للوضع الراهن ، لما هو جديد جذرياً في العلاقة بين كوبا والاستعمار.

كانت التجارب الثورية في القارة والاخفاقات التي منيت بها متزامنة على نحو مذهل. ففي سنوات ١٩٥٩ و ١٩٦٠ و ١٩٦١ – سنوات الطغيان البطولي برزت البؤر الانتفاضية ، عفوياً ، في سآنتو دو مينغو ، وباراغواي ، وكولومبيا واميركا الوسطى ، بينما كان خولياو يلهب حماس جماهير شرقي البرازيل ، وبريزولا يصد انقلاباً عسكرياً بواسطة انتفاضة مسلحة في ريو غراندي دي سول ، كذلك شهد البيرو المحاولات الاولى لمصادرة اراضي الاقطاعيين ونشوء العصب الفلاحية الاولى في كوزكو. وفي سنتّي ١٩٦٢ و ١٩٦٤ ، الهزيمة والانقسام. أخفقت تجارب النضال المسلح في كولومبيا ، والاكوادور ، وبيرو وبارغواي ، اما في البرازيل فتشرذمت العصب «الفلاحية» التي دعا اليها خولياو بسبب النزاعات الداخلية ، وعجزت عن التحول إلى تنظيم سياسي – حركة « الثيرادانتيس » – كما كان مخططاً لها وتمكن العسكريون في الارجنتين من إفشال انتصار ١٨ آذار الانتخابي الجبار الذي رفع فراميني (أحد أتباع بيرون) الى حاكمية بيونس ايرس بأغلبية ساحقة ، كما نجحوا في قمع ردة الفعل الشعبية ضد انقلابهم. وتسنى لبيتانكور أن يظل ممسكاً بزمام الحكم في فنزويلا ، فأضحت الحرب الثورية اصعب وأطول مما كان مقدراً لها أن تكون. في التشيلي ، انتصر فراي في انتخابات رئاسة الجمهورية بالاعتماد على أصوات النساء ، وقامت في البرازيل دكتاتورية فاشية سافرة. فإذا بموجة رجعية عارمة تجتاح القارة بأسرها.

نعلم الآن أن هذه الهزائم لم تكن نهائية ، بل هي ، على العكس من ذلك ،

قد فرضت على الحركة الثورية الانتقال إلى مستوى أرفع من إعادة تنظيم قواها. ابتداء بعام ١٩٦٤ ، راح النضال المسلح يمد جذوره ويعزز مواقعه اعتماداً على قاعدة شعبية واسعة وراسخة في كل من فنزويلا و كولومبيا . فمصانع المتفجرات التي أنشأها الاستغلال الاستعماري في أميركا اللاتينية ، عن غير قصد منه ، تستطيع من الآن فصاعداً الاستغناء عن براءات الاختراع الاجنبية ، وعن النماذج الثورية المستوردة ، وهي آخذة باكتشاف وسائل الانتاج الخاصة بها والمتلائمة مع تاريخها وتكوينها الاجتماعي وطابعها المميز . وفي لغتنا المتخلفة أبداً من حيث استعاراتها ، يسعنا القول ان أميركا الجنوبية عاشت ، عقب قيام الثورة الكوبية ، نسختها الخاصة عن ثورة ١٩٠٥ الروسية ، وانها قد خرجت من هذا الطور حالياً . لهذا يمكن لهذه التجربة أن تكون موضوع تأمل منهجي الآن . على ان هذه المهمة ترتطم بعقبة عويصة : ثمة وحدة مصير ضامرة تربط بين أمم أميركا اللاتينية ، كما تبين من التزامن التاريخي الآنف الذكر . وهذا ما عبرت عنه بوضوح تام تظاهرات التضامن مع كوبا التي اختبرت الجماهير خلالها عفوياً ، وافترضت وحدة قارية تمتد من مكسيكو الى الارغواي . إن الحديث المتحذلق عن « عشرين أميركا لاتينية » هو موضوع الساعة الآن . فكل من بوينس ايرس ، يشعر بأنه ينتقل من عالم لآخر ، ومن قرن لآخر . لكن ذلك لا يعدو كونه انطباعاً جغرافياً سطحياً . أليس التخلف والتشويه الاستعماري تفاوتاً في التطور الاقتصادي والاجتماعي داخل البلد الواحد ، وبين المدينة والريف ؟ أو بالأحرى ، أليس هذا التخلف والتشويه تركيباً لمستويات متفاوتة من التطور تتلخص في وجود منطقة للنفوذ الرأسمالي والتجاري يحيط بها ريف اقطاعي يسوده اقتصاد المنتوج الأوحد؟ أليس هذا البؤس شرطاً لتلك الثروات، والعكس بالعكس ؟ واذا لم يكن التخلف نتاجاً طبيعياً ، بل حصيلة تاريخية ، يمكننا القول ان أميركا الجنوبية تستمد وحدتها من تاريخها . واذا كانت قد اضطرت إلى أن « تتواجد » لكي يتسنى لها التحرر من النير الاسباني ، فهي مضطرة الآن أيضاً إلى أن « تتواجد » لكي يتسنى ان تحرر من الاستعمار الاميركي. وإذا

كان بوليفار قد رفض اعتبار « غران كولمبيا » حرة إلا بعد أن يتحرر البيرو (بشطريه الأعلى والأسفل) ، فإن فيديل كاسترو ينم عن واقعية مماثلة لواقعية بوليفار ، لا بل متفوقة عليها ، في اعتقاده بأن تحرر كوبا الناجز لا يكون ما دامت فنزويلا و كولمبيا مستعبدتين . واذا كان يحق للمرء أن يتحدث عن الثورة الاميركية اللاتينية فليس ذلك بسبب اميركا اللاتينية نفسها ولكن – جدلياً – بسبب الولايات المتحدة : عدوها المشترك . لهذا السبب بالذات تكتسب أفكار بوليفار أهمية متجددة بالنسبة لستراتيجية الطلائع الثورية في أميركا اللاتينية منذ قيام الثورة الكوبية .

لكن أميركا الجنوبية لم تصبح قادرة بعد ، على الرغم من كل ذلك . فهي مجزأة على كافة المستويات – التنظيمات الثورية ، الأنباء ، الاتصالات الشخصية بفضل جهود الذين حوّلوا القارة إلى ميدان موحد لمناوراتهم بالاعتماد على نزعة قومية أميركية مفتعلة تدعو لها « منظمة الدول الاميركية » وتعضدها برامج المساعدات الاقتصادية . فمنذ نسف مؤتمر باناما – الذي دعا بوليفار إلى عقده عام ١٨٢٦ للتداول في موضوع إنشاء اتحاد فيدرالي يضم جمهوريات أميركا اللاتينية – والعمليات الاميركية الشمالية تحرز الانتصار تلو الانتصار على صعيد القارة بأسرها ، على الرغم من الضربة القاصمة التي أسدتها اليها الثورة الكوبية . ويتكرر المشهد ذاته في كل من المناطق الأربع التي تنقسم اليها القارة – البحر الكريبي ، كولمبيا ، فنزويلا ، الاكوادور ، بيرو ، بوليفيا ، بارغواي ، تشيلي الارجنتين ، ارغواي ، والبرازيل (التي تشكل منطقة بمفردها) – : فوضى المنظمات الثورية ، الجهل المتبادل ، وتشتت القوى . فالقائد الشيوعي الاكوادوري المختبيء مثلاً قد لا يعلم في مطلع عام ١٩٦٤ ، أن حزبه يعاني من انشقاق هو عين الانشقاق الذي يعاني منه الحزب الشيوعي البيروفي بين جناح «سوفياتي» وجناح «صيني» علماً بأنه قد لا يكون في وضع يسمح له بأن يفيد من تجربة رفاقه البيروفيين لتفادي الاخطاء التي ارتكبوها ، وتحاشي السجال

العقيم بين « الجناحين » . إن قطيعة كهذه مسرحية فعلاً . والتغلب عليها مهمة ملحة ، ليس فقط لأنها تحول دون قيام استراتيجية موحدة ، بل وأيضاً لأن الوقت المهدور والأرواح المزهوقة بسبب انعدام الاتصال الداخلي خسارة لا تعوض. قال أحد المناضلين الذين نجوا من حطام البؤرة الانتفاضية الارجنتينية : « لو كنا نعلم ، في الوقت المناسب وبشيء من التفصيل ، عن تجربة حرب الغوار الفنزويلية ، لما كنا ارتكبنا الأخطاء المادية والسياسية التي كانت السبب الرئيسي في هزيمتنا ، وفي مقتل معظم مقاتلينا » .

إن التباعد في البرازيل (حيث يفصل ٤٥٠٠ كيلو متر بين بورتو أليغري وريسيف) هو سلاح فعال بيد الدولة الاتحادية – المسيطرة على الحكم في البلد بأسره – لتحطيم الوحدة القومية . واليوم الذي ينسق فيه العمل الثوري بين ريو غراندي دي سول وبيرنامبوكو (وهما المقاطعتان الأكثر نضجاً للنضال الثوري) لهو يوم سوف يعلن بزوغ عهد سياسي جديد في البرازيل . لكن مثل هذا التنسيق لم يكن ممكناً حتى الآن ، طالما أن التجزئة التي يفرضها التباعد تزداد تعقيداً بفضل تجزئة تاريخية على مستوى المنظمات السياسية نفسها . فحركة بريزولا مثلاً – المتمركزة في جنوب البرازيل – كانت تتسع وتقوى خلال عام ١٩٦١ بشكل خاص ، وهو العام الذي شهد الانهيار السياسي للعصب الفلاحية بقيادة خولياو ، والمتمركزة أساساً في شمال شرقيه . وهناك مثلاً عن التجزئة داخل إحدى أمم أميركا اللاتينية : سئل نقابي عمالي وطالب من ساوباولو عن المقاطعة الشمالية الشرقية . فأجابا ان كل ما لديهما من معلومات عنها لا تتعدى معرفة أن القمع بالغ الشراسة فيها بعد الانقلاب العسكري في نيسان ١٩٦٤ ، وان « نوعاً من الارهاب الأبيض » قد سادها . أما فيما عدا ذلك ، فلم يتقدم أي منهم بمعلومات تتفق مع ما تقدم به الآخر . فالصحافة متكتمة أو كذوبة باستمرار . وقد أعرب الطالب عن انزعاجه . فالشمال الشرقي بالنسبة له هو العالم الثالث : خليط من اسطورة ومن ندم . أما العامل ، فعنده أن الشمال الشرقي هو للبرازيل ما كانته الجزائر لفرنسا : بلد يستقدم منه أرباب العمل ،

عندما يتسنى لهم ذلك ، اليـــد العاملة الرخيصة لتخفيض مستوى الاجور . باختصار : ان سكان المقاطعة الشمالية الشرقية هم في نظر سكان ساو باولو أناس ينتمون عملياً إلى قومية أخرى .

بالرغم من الانقسامات الداخلية في أميركا اللاتينية ، الوطنية منها والدولية ، فالاستعمار الاميركي الشمالي يعتبر أميركا الجنوبية منطقة واحدة لانتاج المواد الاولية ، وحقلاً للمناورات السياسية التي وإن لم تكن دائماً موحدة ، فهـــي متناسقة على أقل تقدير . فعن طريق « التحالف من أجل التقدم » و « مصرف الانماء الاميركي المشترك » والهيئـات المتخصصة الأخرى ، يخطط الاستعمار لاستغلال القارة بوصفه سيداً عليها ، ويؤمن « حمايتها سياسياً وعسكرياً » عن طريق « مجلس الدفـــاع الاميركي المشترك » و « منظمة الدول الاميركية » . فلنحاول إذا استعادة الشكل الذي تتخذه العلاقات الاقتصادية التي تربط أميركا الجنوبية بأميركا الشمالية .

إن « الميثاق الاستعماري » لا يزال ، قائماً كما كان عليه في السابق دون تميز يذكر : مبادلة المواد الأولية لقاء السلع المصنوعة ، النفط لقاء البنزين ، والكوكا لقاء الشوكولا ، والحديد لقاء السيارات ، إلى آخره . وقد ورد في أحد تقادير « لجنة الأمم المتحدة لشؤون أميركا اللاتينية » أن تدني شروط التجـــارة قد أدى إلى خسارة مباشرة مبلغ ٢٦٦٠ مليـــون دولار تكبدتها أميركا اللاتينية بأسرها عام ١٩٦١ . وإذا أضفنا إلى هذا المبلغ الأرباح التي استرجعتها الشركات الاميركية إلى الولايات المتحدة – وتبلغ هذه ١٧٣٥ مليون دولار – والأموال التي تغادر القارة لتسديد الديون ١٤٥٠ مليون دولار – نصل إلى مجموع قـدره ثلاثة أضعاف ما يدخل القارة ، نظرياً ، من أموال المساعدة والاستثمارات التي تقدمها منظمة « التحالف من أجل التقدم » للقارة والتي تبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار .

ما هي الخطة الستراتيجية الكامنة وراء الوعود البراقة التي كان الاستعمار

ينوي تنفيذها عندما أنشأ منظمة « التحالف من أجل التقدم » في بونتاديل استي عام ١٩٦١ ؟ إنها خطة تهدف إلى إخفاء « الميثاق التجاري » والدكتاتورية العسكرية المألوفة التي يفترضها (وخير مثال عنها هو نظام حكم بيريز خيمينيز في فنزويلا الذي قلده ايزنهاور وساماً رفيعـــاً خلال مدة رئاسته) وراء براقع عملية تصنيـــع وطنية حققت بها أميركا اللاتينية بين ليـــلة وضحاها عن طريق تصدير مكثف للرساميل الأميركية الشمالية . ومعظم هـــذه الرساميل ذات مصادر فردية تجذبها ، بداهة ، اليد العـــاملة الرخيصة ، والجيش الاحتياطي الضخم من الأيدي العاملة ، والتبـــادل الحر الذي يسمح باسترجاع الأرباح ، وانعدام القيود الضريبية ، ومعدل من الأرباح أعلى بكثير مما هو عليه في الولايات المتحدة نفسها . وهكذا فإن أصل هذه الرساميل حدد توجه الاستثمارات نحو الفروع الأكثر إدراراً للربح بالنسبة للاحتكارات ، أي نمو الصناعات الاستخراجية مخضعاً اياها ، على كل حال ، للخطط الستراتيجية التي وضعتها الولايات المتحدة لاستغلال المواد الأولية على الصعيد العالمي فقـــد أهملت مثـــلاً مناجم التانغستن والانتيموني البوليفية – وهي مناجم غنية جداً – لأن الولايات المتحدة لم تكن بحاجة اليها ، ولأن تشغيلها يؤدي إلى تخفيض الأسعار في السوق العالمية . كان بالإمكان تقديم هذا المشروع في « زي وطني » عن طريق شركات مختلطة وهمية تملأ مجالس إدارتها « بالبرجوازيين الوطنيين » وتعطي أسماء باللغة الاسبانية . فتولد طبقة جديدة من المساهمين الوطنيين ، شركاء المساهمين الأميركيين الشماليين يختفي وراءها الاستغلال الأجنبي . وكان بمقدور هذه الفئة أن تصفي علاقات الانتاج الاقطاعية ، سبب الوضع السياسي « المتفجر » في أوساط غالبية الأمة الفلاحية (حيث يسود الايجار الطبيعي ، والقنـــانة ، والملكيات الكبيرة ، والأراضي المهملة ، وانخفـــاض انتاجية الأرض) ، وان تبـــاشر بعملية تنمية خجولة . لكن هذه الأشكال المتقدمة من التغلغل الاستعماري قد تهدد بوضع حد « للميثاق الاستعماري » . فسماحها بنمو صناعات تتولى تحويل المواد الأولية ، قـــد تشجع « البرجوازيات الوطنية » على إقـــامة علاقات تجارية مع جميـــع

الدول ، فتقضي بذلك على الاحتكار التجاري الذي تملكه الولايات المتحدة .

وعياً منها لهذه الأخطار ، عملت منظمة « التحالف من أجل التقدم » على توظيف معظم مساعداتها في استثمارات غير منتجة : الطرق ، المستشفيات ، المدارس ، وما شابه ، بحيث تتفادى بروز صناعات تملك القدرة على المزاحمة . وقد اعتمدت على هذه الاستثمارات لكي تداوي عوارض « التخلف » الخطيرة وإخفاء أسبابها . فكانت في الواقع مناورة سياسية ذات ذريعة اقتصادية . الآن يعترف القائمون على هذا المشروع بأنه مني بفشل ذريع ، وسوف نتعرض عن قريب للنتائج السياسية لهذا الفشل . لقد اخفق المشروع لأن تصفية الاقطاع الزراعي تستلزم تحويل الانتاج ككل ، مادام الاقطاع الزراعي ليس مرحلة كاملة من مراحل تطور البرجوازية التجارية والبرجوازية الزراعية — التصديرية وحسب ، بل وأيضاً من مراحل تطور البرجوازية الصناعية نفسها في بعض الأحوال كما في كولمبيا وفينزويلا . وقد توجد تناقضات بين هذين الجناحين من أجنحة الطبقة المسيطرة ، إلا أنها تناقضات ثانوية يسهل تجاوزها عاجلاً أم آجلاً في الصراع ضد العدو الرئيسي : الثورة . ان عملية التضخم قد أدت إلى تفاقم البطالة ، وانخفاض الأجور ، وإلى انقباض اقتصادي مفاجيء . ولم يكن بالامكان التعويض عن هذا التضخم بزيادة الانتاج لأن ذلك لن يؤدي إلا إلى إنتاج غير قابل للتصريف بسبب الافتقار إلى سوق داخلية واسعة ، ولا يمكن قيام هذه الا بإجراء تحويل جذري في علاقات الانتاج شبه الاقطاعية ينجح في تحويل الفلاحين إلى مستهلكين . من هنا ، لا يمكن التصدي للتضخم إلا بقروض أجنبية جديدة ، تسدد على المدى القريب ، وبهذا يحكم إغلاق حلقة « التخلف » المفرغة : مراكمة ديون جديدة لتسديد الديون القديمة . ويجدر الانتباه . فضلاً عن ذلك ، إلى ان برامج المساعدة الاقتصادية لم تقدم أكثر من نصف المبالغ التي وعدت بتقديمها عندما نشأت .

لنوجه اهتمامنا الآن شطر طبيعة برامج المساعدة الشهيرة التي تعمل بها منظمة « التحالف من أجل التقدم » . ان هذه البرامج هي الشكل الخاص

المفضوح لتصدير الرساميل . فقد صرح السيد فاولر هاملتون ، مدير المساعدة الأجنبية الأميركي ، أمام مجموعة من رجال الأعمال في الولايات المتحدة بما يلي : « إن كل دولار يغادر جيوبنا يجب أن يعود إلى الولايات المتحدة بعد أن يكون قد استخدم لاستيراد سلع بقيمة دولار » .

١ – ان « التحالف من أجل التقدم » يلعب ، في الواقع ، دور غزو أسواق جديدة أو تدعيم الأسواق القديمة. ويشترط استخدام الأموال المقروضة . في معظم الأحوال ، في شراء سلع اميركية شمالية مصنوعة بأسعار تزيد عن مستوى السوق العالمية بنسبة تتراوح بين ٥٠ و ٢٠٠ بالمئة . والهبات المقدمة لكولمبيا وأقطار جبال الأنديس على شكل سلع (كالحليب المجفف والزبدة المعلبة مثلاً) على يد « فيالق السلام » – تضم شباناً من أميركا الشمالية يتطوعون لتأدية دور هو خليط من العمل التجسسي والنشاط الكشفي في جنوب اميركا – ما هي إلا أدوات للتغلغل والابتزاز في أوساط الفلاحين .

٢ – ان تصدير الفائض من المنتجات الزراعية الاميركية الشمالية (بمقتضى المرسوم رقم ٤٨٠) يحقق غايتين اثنتين : أولاً : يخفف من غلواء أزمة تزايد فائض الانتاج الوطني في الولايات المتحدة . ثانياً : يدر الأرباح على شركات الشحن الاميركية الشمالية التي تفرض رسوم شحن خيالية . ذلك انه بالرغم من ان الدول التي « تتسلم » هذه المساعدات تدفع أثمانها بالعملات المحلية ، إلا أن أكلاف نقل وتوزيع وتعليب المنتجات تقع على عاتقها .

٣ – على كل دولة « تتسلم المساعدة » من منظمة « التحالف من أجل التقدم » أن تؤمن من جهتها ما يلي : إعالة جهاز ضخم من الموظفين والفنيين الاميركيين الشماليين يعيشون على مستوى معيشي مرتفع جداً (مأكولات مستوردة ، عضوية في أندية الغولف والقمار ، خدم ، وما شابه) ، وتنفيذ مشاريع الأشغال العامة (كشق الطرق ، وإزالة الغابات ، وإنشاء قنوات المياه ، والإنارة) في المناطق التي تعمل فيها الشركات الاميركية الشمالية

وحيث توظف الاستثمارات . طبعاً ، يجري تلزيم هذه المشاريع لشركات هندسية اميركية شمالية التي ترسم الخرائط الخاصة بها وتعين مواقعها بواسطة تجهيزاتها وفنييها . وهذه طريقة بارعة لتخفيض أكلاف الانتـــاج عن طريق إلقائها على عاتق الطرف المستغل» .

تلخيصاً ، نقول ان « التحالف من أجل التقـــدم » ينظم ويستر ويدعم العملية التي تقوم بمقتضاها أقطار أميركا الجنوبية المتخلفة بتغذية تراكم رأس المال في الولايات المتحدة الاميركية وزيادة حجمه .

هكذا تلبي التجزئة ، المـيراث الموضوعي للحروب التي سادت القـــارة في القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين، حاجات الستراتيجية الاميركية الشمالية حتى ولو اقتصرت تلبية هذه الحاجات على الحد من المبادلات التجارية بين دول اميركا الجنوبية أو الإشراف عليها بغية الاحتفاظ بالاحتكار التجاري ، أو على تنظيم « أحلاف مقدسة » قليلة الأكلاف ، أو إنشاء الأحزمة السياسية الواقية . قبل شهرين من موعد الانتخابات التشيلية في أيلول ١٩٦٤ ، شهدت بوليفيا انبعاثاً مفاجئاً للقومية البوليفية ولمشاعر العداء التشيلي — وهذا ترسب من ترسبات حرب المحيط الهادئ عام ١٨٧٩ التي فقـــدت بوليفيا من جرائها منفذها إلى البحر . وفي الوقت ذاته — وهنا المفـــاجأة الغامضة الأخرى — أخذت الارجنتين تطالب تشيلي بأراض زعمت انها لها في باتاغونيا ، واستدعى البلدان قوات الاحتياط .. إلا أن الحملات الدعائية همدت فجأة بعدما أحرز فراي ، مرشح الحزب الديمقراطي المسيحي ، انتصاره الانتخابي .

الاكوادور ضد بيرو ، بيرو ضد بوليفيا وتشيلي ، بوليفيا ضد باراغواي ، تشيلي ضد الارجنتين : لا حـــد لمبررات رفع المطالب القومية (وهي مطالب مشروعة أحياناً ، كما هو الحال بالنسبة للاكوادور وبوليفيا) وللنزاعات حول الحـــدود . وهكذا تسمح التجزئة باستعمار الأمم الصغيرة بأحقر شكل ممكن . وبوليفيا أفضل مثال على ذلك . ففي ٢٢ آب ١٩٦٣ ، عقدت حكومة

باز استنسوروا اتفاقاً تجارياً مع الولايات المتحدة ، تعهدت بموجبه قطع علاقاتها التجارية بأوروبا وبالبلدان المجاورة ، والاكتفاء بالاستيراد من الولايات المتحدة لقاء مبالغ من المال تقدم إليها بمقتضى برامج المساعدة لمنظمة « التحالف من أجل التقدم » .

من أجل المزيد من الوضوح نقول : ان وجود أمم اميركية منفصلة ، وحتى متبادلة العداء ، هو واقع يتعذر إلغاؤه ، فلا يمكن للنضال الثوري الراهن إلا أن يكون نضالاً من أجل التحرر الوطني . ومطالبة العمليات الثورية الوطنية في اميركا الجنوبية بالوحدة القارية كشرط مسبق ، تعني تأجيل هذه العمليات إلى ما لا نهاية . خلال الانتفاضات الأخيرة في باناما ، التي أثارها الاميركيون في منطقة القناة ، أراد بعض التروتسكيين رفع شعار : « أعيدوا باناما إلى كولمبيا » . وهذه العناصر ذاتها غالباً ما تردد شعار تروتسكي الكهل : « الولايات الاشتراكية المتحدة في أميركا » . ولكن لا العودة الصفائية إلى حرفية الماضي التاريخي ، ولا الدعوة المستقبلية الاسطورية) كشعار الولايات الاشتراكية المتحدة في أميركا) قادرة على تذويب واقع التجزئة الراهن ، والا خانت النضالات الحالية لكل أمة عن طريق احالتها باستمرار إلى وحدة وهمية هي وحدة جميع الأمم الأميركية . ان ثوريي البحر الكريبي ، الذين لم ينسوا حلمهم القديم في إنشاء اتحاد فيدرالي لجزر الانتيل ، يدركون ان هذه الرؤيا العظيمة لا تعبر عن نفسها عملياً إلا بمهات تافهة ومبعثرة ومحدودة الأفق . كما في أيام بوليفار ، كذلك في أيامنا ، الشعلة تنبثق في فينزويلا و كولمبيا ، وتتأجج متجهة نحو الجنوب ، ولكن من عدم الجدية بمكان أن نتوقع بأنها سوف تجتاح ، بين ليلة وضحاها ، كل هذه الامبراطورية المتداعية الممتدة بين رمال كارتاغينا وهضاب بوليفيا .

ولكن إذا كان الوعي القاري ، في بعض المناطق ، متخلفاً عن اللحاق بهذا التضامن الموضوعي ، فعلى أي صعيد تبلغ أميركا الجنوبية رؤية اميركية شاملة لنفسها في الوقت الحاضر ؟ ان القادة السياسيين الذين غالباً ما يضطرهم

الارهاب إلى السفر للخارج يعتقدون أن أوروبا ، رأس الجسر إلى افريقيا وآسيا ، هي الجواب على هذا السؤال . وباتوا يعتقدون مؤخراً انه كوبا أيضاً . ويصعب بلوغ هذه الرؤية انطلاقاً من أوروبا الغربية أكثر من أي مكان آخر ، وذلك لأسباب بدهية . أما في كوبا ، فلا يجوز أن ننسى أن للوعي القاري هناك أفضلية عليه في القارة نفسها . فملى البر الرئيسي ، اختبرت فئات اجتماعية هامة ، والبرجوازية الصغيرة المدينية منها بخاصة ، حملة تخدير مكثفة عن طريق الراديو والسينما والصحافة التي يسيطر عليها الاستعمار . فبعد أن قطعت جميع الحكومات (باستثناء مكسيكو) علاقاتها الدبلوماسية بكوبا ، وأغلقت جميع مكاتب وكالة الأنباء المستقلة « برينسا لاتينا » ، وبعد الرقابة المستمرة على الأنباء ، والتهديدات الشديدة اللهجة لكل من تسول له نفسه السفر إلى كوبا – بعد هذا كله ، لا يمكننا أن ننكر ان الاستعمار قد نجح ، إلى حد ما ، في تحقيق هدفه في عزل كوبا . ولكن ذلك لم يفعل فعله إلا على مستوى القمة ، أي بين الفئات الاجتماعية التي تصل إليها الدعاية الاستعمارية ، وليس بين الفلاحين . وفي عام ١٩٦٥ ، لا يزال من الأيسر على مواطن باريسي لا مبال أن يتابع أحداث الثورة الكوبية من مناضل ثوري في ليما أو بوغوتا حيث توزيع الصحافة واليسارية المستقلة محدود جداً أو سري.

هكذا ، تبرز على نحو أوضح صعوبة العمل النظري والعملي المتصل بحركة التحرر التي يعاني منها الاميركيون اللاتينيون . فجنوب شرقي آسيا تملك الآن قاعدة ضخمة للنفوذ والتنمية النظرية متمثلة بالصين الشعبية وبجمهوريتي فيتنام وكوريا الديمقراطيتين . أما افريقيا ، فتستلهم الجزائر والكونغو – برازافيل ، وغانا ، وزنجبار . وقد توثقت بين طلائع هاتين القارتين وشائج أخوة مكينة . وبعض أشكال العمل المشترك ومنها مؤتمرات التضامن الآسيوي – الافريقي . أما أميركا ، في المقابل ، فمفككة ومعزولة عن هذه الحركة العالمية . وعلى الرغم من وجود كوبا ، فإن بعض المنظمات الثورية في اميركا اللاتينية لا تزال واقعة تحت النفوذ العقائدي للحركة العمالية الاوروبية – التي غالباً ما تكون

غريبة عن قضاياها الحقيقية .

هكذا يتضح ان تأخر الأحزاب الثورية في اميركا اللاتينية وانشقاقها ظاهرة خطرة فعلاً . ذلك انها ، شاءت ذلك أم أبته ، موحدة من الخارج في أوضاعها واستراتيجيتها . والثورة الكوبية قد كرست هذه الوحدة بالرغم من ذاتها ومن هذه الأحزاب . على أن التاريخ لن يكون جدلياً حقاً لو لم يكن الدرس البليغ الذي توفره ثورة ما للشعب الذي قام بها صالحاً بالقدر ذاته كدرس تتعلم منه الردة القارية المضادة للثورة . ان الثورة الكوبية قد عملت إلى حد كبير على تحويل شروط تحويل اميركا اللاتينية ، من نهر الريوغراندي إلى جزر الفالكلاند . ذلك ان الثورة الاشتراكية تثوِّر أيضاً الردة المضادة لها . لهذا السبب ، فمنذ ولادة الثورة الكوبية ، وبمجرد وجودها كثورة بالنسبة للاستعمار (ايضاً) ، حكمت كوبا بالإخفاق على كل محاولة ميكانيكية لتكرار تجربة السييرا مايسترا اعتماداً على وتيرة عملها ذاتها وعين التحالفات والتكتيكات . باختصار : ان الباب – باب الثورة الاشتراكية – الذي فتحته كوبا على حين غرة ، على مرأى من الاستعمار قد أُحكم اغلاقه من قبل الأوليغارقيات الحاكمة من الداخل ، والاستعمار المتأهب للتدخل عند أدنى بادرة، من الخارج . فكيف يكون بمكنة الشعوب الشقيقة أن تعيد اقتحام هذا الباب ؟ إما بممارسة ضغط أزود وأطول ، وإما بأن تعمد إلى فتح باب جديد يختلف موضعه بالنسبة لكل أمة من الأمم ، في أضعف مكان من الجدار.

ما هي التحولات التي أحدثتها كوبا ؟

١ – ان كوبا قد دفعت بغتة بالصراع الطبقي في اميركا اللاتينية إلى مستوى أرفع ، لم تكن الطبقات المستغلة ولا طلائعها مستعدة له .

كلنا يعلم أن كوبا عمدت على الصعيد العالمي إلى نسف القدرية الجغرافية التي مارست ، بالاشتراك مع الاتجاه البراودري [١] ، تأثيراً كبيراً على الأحزاب

(١) كان ايرل براودر الأمين العام للحزب الشيوعي في اميركا الشمالية بعد الحرب العالمية =

الشيوعية في اميركا اللاتينية بعد الحرب العالمية الثانية . الآن أضحى بالامكان الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها . وهذه العبارة ، عندما تؤخذ على محمل الجد ، لا تزال تصدم العديدين في اميركا اللاتينية بسبب ما تناقض من العادات الذهنية . فلم تستوعب رأساً . فحتى في أعنف أطوار الحرب الأهلية الكولمبية (١٩٤٩ — ١٩٥٧) ، ظلت الفكرة غريبة عن الحزب الشيوعي الكولمبي وعن يسار الحزب الليبرالي عندما كانا يسيطران معاً على جيش فلاحي فعلي (علماً بأن النزاعات الداخلية كانت تنهك قواه) . وكان الحزب الشيوعي البرازيلي الحزب الوحيد الذي قرر على أثر اخفاق انتفاضة عام ١٩٣٥ ، السعي إلى الاستيلاء على السلطة في بيان أصدره عام ١٩٥٠ . على أن ذلك تعبير عن اتجاهات « صبيانية يسارية » متزمتة أكثر مما هو استراتيجية بالمعنى الصحيح (وقد حاول هذا الحزب إنشاء جيش ثوري من فلاحي بارانا الشمالية وغوياس ، ولا تزال بعض آثار هذه المحاولة تطبع مقاطعة فرموزا في اقليم غوياس) . على أثر قيام الثورة الكوبية ، حدد الحزب الشيوعي التشيلي لنفسه هدف الاستيلاء على الحكم بالوسائل الشرعية من خلال صندوق الاقتراع (المؤتمر الثاني عشر ، آذار ١٩٦٢) . وتبنى الحزب الشيوعي الارجنتيني الشعار الذي أطلقه أمينه العام كودوفيا في آذار ١٩٦٣ (المؤتمر الثاني عشر للحزب) : « نحو الاستيلاء على السلطة من خلال نضال الجماهير » . وفي مؤتمره الثالث ، كان الحزب الشيوعي الفينزويلي أول من عالج بجدية موضوع إنشاء سلطة ديمقراطية شعبية ، وقد ترك لمسيرة الممارسة الثورية نفسها أمر التقرير في أصلح طريق تسلكه . وبسبب الارهاب الذي سلطه بيتانكور على الجماهير ، لم يكن من طريق غير النضال المسلح . ان التطور ذاته — الذي

= الثانية . وكان يمثل الانحراف اليميني في الأممية الشيوعية عندما حلها ستالين عام ١٩٤٣ ، اذ دعا إلى تحويل الأحزاب الشيوعية في الغرب إلى نواد للنقاش مفتوحة أمام الجميع ، وقد أدان جاك ديكلو (أحد زعماء الحزب الشيوعي الفرنسي) هذا الانحراف في رسالة لا زالت واسعة الانتشار في أوساط مناضلي أميركا اللاتينية .

يستغرق ما معدله ثلاث سنوات – تشهده كولمبيا حالياً ، حيث راح الحزب الشيوعي ، بعد مباشرة النضال المسلح في منطقة ماركيتاليا ، يتخلى عن الخط السلمي رداً على الارهاب الذي يتعرض له . وهكذا ، فإن دفاع الجماهير عن نفسها يؤدي بها إلى اعتماد تكتيكات حرب الغوار الهجومية – وهذا ما تكهن به الرفاق الكولمبيون منذ أمد بعيد .

ولكن في الوقت ذاته الذي كانت كوبا تبرهن فيه على انه لا يمكن الحكم على لاواقعية الاستيلاء على الحكم ، على نحو قبلي ، نجد أن النتائج الوحيدة الجانب للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي والخط العام الذي تبنته آنذاك حركة الطبقة العاملة العالمية ، حدت بالأحزاب الشيوعية إلى انتهاج خط « الديمقراطيات الوطنية » و « الجبهات المشتركة مع البرجوازية » – وهو غير الطريق السلمي الذي دافع عنه الحزب الشيوعي الكولمبي (في مؤتمره التاسع ، عام ١٩٦٢) ، والحزب المكسيكي (في مؤتمره الثالث عشر) ، والحزب البوليفي قبل انشقاقه (في مؤتمره الثاني ، عام ١٩٦٤ ، حيث اعتبر الطريق السلمي « الأكبر رجوحاً ») ، والحزب التشيلي (في مؤتمره الثالث عشر) والحزبان الارجنتيني والبرازيلي . وتجربة هذا الأخير مهمة بسبب ما تكشفه من قضايا . ففي عام ١٩٥٨ ، وتحت نفوذ « تصفية الستالينية » المباشرة ، حقق هذا الحزب انعطافاً كاملاً ، وليس ذلك بغريب عنه ، فوجّه ، في آذار من العام نفسه ، نداء إلى الشيوعيين لتشكيل « جبهة وطنية وديمقراطية موحدة » آلت قيادتها ، منطقياً ، إلى البرجوازية الوطنية . بعد سنة من ذلك ، انتصرت الثورية الكوبية . ومنذ ذلك الحين ، ومهما بذل مناضلو الحزب الشيوعي من جهود لتحويل أنفسهم إلى « خراف طيعة » وإلى حليف احتياطي للبرجوازية « المتقدمة » وإلى سند انتخابي للمشير لوت ، يزداد اقتناع البرجوازية بخطورتهم مع ازدياد طواعيتهم لها . فأنشأ حزب البرازيل الشيوعي (الموالي للصين) ، واستجلب إلى صفوفه بعض الكوادر

الجيدة من حزب بريزتيس [1] ، وخاصة في جنوب البلد . ان قطاعات واسعة من الطبقات الوسطى انضمت إلى لاسيردا والعسكريين ، خوفاً من الثورة الكوبية . أما البرجوازية الوطنية الشهيرة ، فقد تخلت عن غولار في منتصف الطريق ، وعقب ذلك الانقلاب العسكري في الأول من نيسان عام ١٩٦٤ . وكان الحزب الشيوعي آنذاك مشتتاً ، أنهكه القمع والنزاعات الداخلية ، فعجز بالتالي عن قيادة التذمر الشعبي العنيف : وهذا مثال من الأمثلة العديدة عن الانتكاسات التاريخية التي أدت إليها النزعة المركزية الدولية ،بوصفها عملية نقل ميكانيكي لشعارات وخطط تكتيكية وضعت في بيئة تاريخية مغايرة للبيئة التي تطبق فيها .

إزاء هذا المأزق ، تمخضت كوبا – بدون علمها – عن حوالي خمسين منظمة ثورية على هامش الأحزاب الشيوعية ، كلها مصممة على العمل المباشر . على ان عدة سنوات من العمل الثوري قد أوضحت الآن أن البطولة ليست كافية بمفردها ، وان هذه المنظمات كانت تفتقر إلى النضج العقائدي ، وإلى الحس السياسي بالدرجة الأولى فضلاً عن الانعتاق من التزمت ، والجدية في التهيئة للنضال المسلح . فسرعان ما تلاشت هذه المنظمات المسماة كاستروية ، على الأقل بأشكالها الأصلية ، بسبب حداثتها وعفوية تكوينها تحت تأثير كوبا ، وانحباسها ضمن جدر النموذج الكوبي . « الحركة العمالية الطلابية الفلاحية » في كولمبيا ، « الاتحاد الثوري للشباب الأكوادوري » في الاكوادور ، « حركة اليسار الثوري » و « جبهة اليسار الثوري » في البيرو ، « اشتراكية الطليعة » في الارجنتين (مع آلاف الأجنحة التابعة لها) ، و « حركة تعاضد الفلاحين » ويسار الحزب الاشتراكي في الارغواي ، حيث أعلنت نقابة عمال السكر نضالاً مسلحاً في الدولة المسماة « سويسرا أميركا اللاتينية » . تلخيصاً : ان الجبهة الثورية لا زالت حتى الآن عاجزة ، في داخل الأحزاب

(١) بريزتيس هو الأمين العام للحزب الشيوعي البرازيلي (المترجم) .

الشيوعية (باستثناء فنزويلا وكولمبيا ، المؤهلتين لأن تصبحا القاعدة) أو في هذه المنظمات الجديدة التي لا ماضي لها ، عن الاستجابة للارتفاع الموضوعي في مستوى النضال الثوري . فظلت كوبا معزولة .

أما على الصعيد النظري، فإن الثورة الكوبية قد أعادت الاعتبار للماركسية في أميركا اللاتينية عن طريق انتصارها عملياً . ذلك أن الماركسية كانت تائهة بين شكلين من التشويه: الاتجاه الآبري (نسبة إلى A P RA : التحالف الشعبي الثوري الأميركي) والماركسية الميكانيكية ، وكلاهما معزول عن الواقع القومي . ويجدر التذكير بأن التحالف الشعبي الثوري الاميركي — الذي ولد عام ١٩٢٤ كجبهة موحدة تضم ، على صعيد القارة بأسرها ، المجموعات والأحزاب المناهضة للاستعمار والذي تحول إلى حزب ذي منظمات فرعية في كل قطر من أقطار أميركا اللاتينية ١٩٢٩ كان مشتلاً لجيل بأسره من الحركات البرجوازية الصغيرة المعادية للاستعمار ، لبيتانكورو حزب العمل الديمقراطي ، لبيرون ومذهب « الجستيسياليسمو » إلى حد ما ، وللحركة القومية الثورية في بوليفيا (علماً بأن هاتين المنظمتين قد تأثرتا بالفاشستية) . ان النزعة « الاندو - اميركية » لمؤسس « آبرا » وزعيمها — هايادي لا توري — نفذت ، متسترة باسم الماركسية ، أعظم خيانة تاريخية عرفتها أميركا اللاتينية خلال الثلاثين سنة الأخيرة . فخلال عشرين سنة على الأقل — من ١٩٣٠ إلى ١٩٥٠ — كان هاي دي لا توري مرشد النضال ضد الاستعمار لجيل بأكمله من البرجوازيين المتنوّرين وحتى من العمال (في بيرو على الأقل) ، الأمر الذي سمح لأحد تلامذة المعلم بأن يكتب « هيغل — ماركس — اينشتاين — هايا دي لا توري » . كتب هايا في « آبرا والنضال المعادي للاستعمار » (١٩٣٦) : « ان العقيدة الآبرية هي مواجهة جديدة ومنهجية ، ضمن إطار الماركسية ، بين الواقع الاندو — الاميركي وبين الموضوعات التي صاغها ماركس لأوروبا » . وقد أدت به هذه المواجهة إلى التوصل إلى فكرته الشهيرة عن « الزمن التاريخي المكاني » . ويقول فيها انه بما ان الاشتراكية ستولد في أوروبا من التناقضات

الداخلية للرأسمالية ، وبما أن الرأسمالية تتخــذ في أميركا شكل الاستعمار ، فمن الضروري الحث على السيطرة الاستعمارية ...بغية الاسراع في عملية التحرر الوطني.وقد سعت هذه الدعوة السفسطائية إلى تبرير نظري لها في أخبث نزعة مادية ميكانيكية يمكن لعقل أن يتصورها : بما انه يبدو استحالة قفز المراحل فثمة فائدة كبيرة تجنى من الاستعمار الاميركي . وهذه فكرة أدت بهايا إلى أن يتحول ، بعد عام ١٩٤٥ ، إلى واحـــد من أهم ، وبالتأكيد أشهر ، عمـلاء الاستعمار الاميركي الشمالي في القارة الاميركية اللاتينية .. عندما تبين أن الماركسية ، بوصفها نظرية تاريخ شاملة ، تملك موطىء قدم فعلي في اميركا اللاتينية ، عمدت كوبا في آن واحد الى تصفية كل الانحرافات اللاحقة بالماركسية وجميع الناطقين باسمها : هايا ، بيتانكور ، باز استانسيروا وغيرهم .

ولكن بخلقها فراغاً حيث كانت تسود هذه الترهات ، خلقت كوبا أيضاً حاجة جديدة : حاجة إلى ماركسية أصيلة ، قادرة على إدراك التجارب الوطنية في أميركا اللاتينية . وليس استقلال كوبا إزاء النزاع الصيني – السوفياتي وحسب ، بل بمجمل الممارسة اليومية لقادتها أيضاً ، في السيرا مايسترا وفي الحـكم ، تشير إلى أن اميركا اللاتينية آخذة بالتحول إلى مركز جديد للفكر الثوري المتكيف مع ظروفها الخاصة . وقد بينت كوبا كذلك ، ولكن دون علمها ، ان هذه النظرية لا زالت بحاجة لأن تبـــلور في أقطار عديدة من القارة . فمنذ وفاة خوسي كارلوس ماريا تيفي – مؤسس الحزب الشيوعي البيروني ومؤلف « سبــع دراسات في تفسير الواقع البيروني » وهو أهم أثر ماركسي أنتجته أميركا اللاتينية قبل الثورة الكوبية – يستورد معظم القادة والمنظرين الماركسيين استراتيجيات ومفاهيم جاهزة من أوروبا . فقبـــل فيديل كاسترو ، وقبل الثورتين الفينزويلية والكولمبية ، لم تعرف الماركسية تفاعلها الصحيح مع الواقع الاجتماعي لأميركا اللاتينية الشاذ فعلاً إذا ما قيس بمقاييس أوروبية .

ولعل الذين داخل الثورة نفسها هم الأكثر تحسساً بالوزن الحقيقي للثورة

الكوبية . فقد قضت على النماذج الثورية ، أكانت سوفييتية أم صينية أو حتى كوبية ، وعلى الراحة العيمة للمناهج والصيغ ، والعزلة عن الجماهير ، وتقديس التنظيم من أجل التنظيم . بهذا المعنى، أثبتت كوبا عملياً أن الماركسية القديمة لم تعد صالحة ، وانه من الضروري استعادة المثال الثوري للماركسية – اللينينية وإخضاع الماركسية مجدداً لواقع النضال الطبقي . هذه حاجة معترف بها في كل مكان ، لكنها غير مشبعة في أي مكان . وهكذا فإن أميركا اللاتينية ، الباحثة حالياً عن طريقها الثورية ، قد تعلمت من النموذج الكوبي انها مضطرة إلى ابتكار هذه الطريق اعتماداً على تجربتها الخاصة . ان « بيان هافانا الثاني » لم تتفتق عنه أذهان القادة الكوبيين في إحدى أمسيات الالهام ، ولم يذع اعتباطاً على جماهير أميركا اللاتينية باسم صوفية من الصوفيات : كان نتاجاً لالتقاء جميع الأماني الضامرة والتجارب التي عرفتها الجماهير المستغلة في القارة بأسرها . والمقاومة التي قد تبدو لمناقشته على نحو فعال وتعميمه ليست متأتية من نزوع المنظمات الثورية نحو الاستقلال ، بل من بلادة بعض القيادات الذيلية ، ولسوء الحظ ، فإن ملاحظات فيديل القارسة التي تضمنها خطابه أمام « المؤتمر النسائي » عام ١٩٦٢ لم تفقد شيئاً من معناها : ويذكر أن فيديل قارن بين « توفر الظروف الموضوعية » في جميع دول أميركا اللاتينية تقريباً وبين إنعدام الظروف الذاتية التي تسمح للطلائع الثورية بأن تستغل الفرصة السانحة التي يقدمها الوضع التاريخي .

٢ – ان كوبا قد رفعت من المستوى المادي والعقائدي للردة الاستعمارية بأسرع مما رفعته عند الطلائع الثورية .

إذا كان الاستعمار ، على المدى القصير ، قد جنى من الثورة الكوبية من الفوائد أكثر مما جنته القوى الثورية فليس مرد ذلك ، طبعاً ، ذكاؤه المتفوق . ان الاستعمار في وضع أفضل يسمح له بأن يضع الدروس التي تعلمها من الثورة الكوبية موضع التنفيذ العملي الفوري ، لأنه يسيطر على جميع الوسائل المادية للعنف المنظم ، فضلاً عن شراسته العصبية التي تحفزها باستمرار

غريزة الدفاع عن النفس عنده .

أما على الصعيد المادي ، فلا يسعنا إلا أن نشدد على التعزيزات المذهلة لأجهزة القمع ابتداء بعام ١٩٦٠ . فالجانب الآخر من « التحالف من أجل التقدم » هو المساعدات العسكرية المقدمة للحكومات الاميركية اللاتينية التي اكتسبت غزارة وطبيعة جديدتين . فقبل شهر واحد من إعلان ديلون لمشاريعه المتفائلة في بونتا ديل ايستي الرامية إلى تحويل اميركا اللاتينية إلى « جنة من المراحيض الذهبية » –وهي مشاريع بيّن تشي غيفارا حتمية اخفاقها فيحينه– تقدم كينيدي إلى الكونغرس الاميركي في تموز من عام ١٩٦١ بـ « مشروع عسكري جديد يرمي إلى ضمان الأمن الداخلي لأميركا اللاتينية ضد أعمال الشغب » . وتقول صحيفة « النيويورك تايمز » في عددها الصادر في الرابع من تموز : « يشكل المشروع تحولاً جذرياً بالنسبة للمشاريع العسكرية السابقة في نصف الكرة الغربي . كان الهدف الرئيسي حتى الآن هو تزويد الحكومات الموالية ببعض الوحدات الجوية والبحرية من أجل الدفاع المشترك عن الغرب ضد هجوم خارجي . أما الآن ، فإن الدفاع ضد أعمال الشغب يولى أهمية متزايدة » . خلال عام ١٩٦١ وحده ، انفق ٢١ مليون دولار على « قوات مقاومة أعمال الشغب » . وآلاف من الضباط الشباب من شرطة أميركا اللاتينية يتخرجون سنوياً من كلية التدريب ضد العمل الانتفاضي في باناما ، أما عددهم المضبوط فسرّ عسكري . ان الافواج من القوات المضادة لحرب الثوار في كولومبيا ، ومن المظليين في الاكوادور ، والفدائيين البيرونيين ، والشرطيين الارجنتينيين (المجهزين بأسلحة ثقيلة) وغيرها من الوحدات العسكرية تنظم وتدرب من قبل البعثات العسكرية الاميركية . وكانت هذه في حالة بدائية قبل انتصار الثورة الكوبية . أما اليوم ، فيحق لكل واحدة منها أن تدعي انها هزمت بؤرة ثورية في بلدها . لكن مساعدات الولايات المتحدة أقوى ما تكون في حقل الاعلام والتسلل . ففي البرازيل مثلاً ، لم يجرؤ أحد–باستثناء بريزولا الذي أمر بإحراق ملفات الشرطة في ريو غراندي

دي سول عندما كان حـــاكماً عليها – ادانة سيطرة الـ F. B. I والـ G. I. A (« مكتب الابحاث الجنائية الاتحـادي » ، « وكالة الاستخبارات المركزية » على التوالي) على الملفـــات السرية للشرطة السياسية البرازيلية ، حتى في أوج حكومة تمثل «البرجوازية الوطنية». أما الارجنتين (وتعداد سكانها لا يتعدى العشرين مليوناً) فهي تتمتع بسبع تشكيلات مختلفة ومتنافسة للشرطة السياسية. وفي فنزويلا ، تتنافس أجهزة السوتوبول والديجيبول PTJ و SIFA فيما بينها ، ناهيك عن العملاء المباشرين لوكالة الاستخبارات المركزية الاميركية. قال أحـــد ضباط الاستخبارات العسكرية في الاكوادور : « كنا لا نزال سذجاً منذ عشرين عاماً . نطلق الرصاص على الطلاب عندما يتظاهرون في الشوارع ، الأمر الذي يؤدي إلى نتائج مفجعة . أما اليوم ، فإننا نتقن مئات الطرق لخنق الثورات ، ولا نلجأ إلى اطلاق الرصاص إلا بعد استنفادها جميعاً»

حقاً قال : فان ستاً أو سبعاً من البؤر الانتفاضية التي ظهرت في اميركا اللاتينية منذ عام ١٩٩ قـــد سلحت أو قضي عليها في المهد بفضل الوشايات أو نتيجة تسلل عملاء الشرطة السرية إلى داخل المنظمات الثورية .

من هنا ، فالتـــأكيد النظري على أن « القضية الاجتماعية ليست من شأن الشرطة » تأكيد لا طائل تحته . فالذين يصنعون التاريخ يومياً بناء علي شروط مسبقة لا يجوز أن يثقوا بتأكيدات كهـــذه التي ، وان تكن صحيحة بالنسبة للمؤرخ بعد مئة سنة ، فليست صحيحة بالنسبة لهم . ان النضال السري يتعاظم لأن العمل السياسي الثوري ، في ظل الأنظمة السياسية القمعية ، غالباً مـــا لا يجد أمامه إلا طريقاً واحدة هي طريق النضال المسلح او السري .

بعبارة أخرى ، لا توجد حاليـاً خبرات عسكرية أو سياسية تنفع طرفاً دون الآخر ، ورفع مستوى الحرب الثورية يتقدم بكلا الاتجـاهين . نشرت وزارة الحرب في فنزويلا كتاب « حرب العصابات » لتشي غيفارا عام ١٩٦١ مع هوامش وتعليقات مطبوعة على صفحاته اليمنى . وها ان هذه الوثيقة قد

وقعت بين أيدي الثوار الفنزويليين في الفالكون . فقد حملها إليهم أحد ضباط الجيش النظامي الذي انضم إليهم حديثاً بعد أن أمضى فترة تدريب في « كلية مكافحة النشاط الانتفاضي » في باناما . وعلق بدوره على الهوامش والتعليقات التي يتضمنها الكتاب بناء على مـــا تعلمه من فن مكافحة النشاط الانتفاضي . هذا مثال من عدة أمثـــلة عن اللولب المزدوج للتدريب ومؤداه خطر زوال التفوق الطبيعي الذي تملكه الحرب الشعبية ضد الجيش النظامي – المباغتة .

أما على الصعيد السياسي ، فإن انتصار الثورة الكوبية يتجه نحو دفع مختلف تيارات البرجوازية إلى التطرف وإلى تعبئة قواها وتوحيدها في جبهـة موحدة ضد الثورة بوتيرة أسرع من الوتيرة التي يدفع فيها المنظمات الثورية ومدهـــا نحو التطرف والاتحاد . فالدعاية الاستعمارية قد استغلت تحـول كوبا السريـع نحو بناء دولة اشتراكية من أجـــل نشر الذعر في أوساط البرجوازية الوطنية المزعومة والقطاعات المثقفة من الطبقات الوسطى . من هنـــا تزايد الصعوبة التي يواجهها بعض القادة السياسيين في التمسك بالاسطورة القديمة عن التحالف مع البرجوازية الوطنية من أجـــل توجيه « الضغط الشعبي » نحو « الجناح التقدمي » من الحكومات البرجوازية (لنذكر أن الاصلاحيين قـد أيدوا كلاً من غولار في البرازيل ، وبيلوندي تيري في بيرو ، وإلى حد مـــا اليا في الارجنتين) . والمفـــارقة التي تنطوي عليها الثورة الكوبية (التي انطلقت أصـــلاً كثورة برجوازية ديمقراطية) هي انهـا وحدت وشحـذت الوعي الطبقي المتذبذب لدى البرجوازيات الوطنيـــة المجاورة (بصيغة ملتبسة هي خليط من الوحي والتدبير معاً) خاصة حيث هذه البرجوازيات موجودة كطبقات كما في تشيلي والأرجنتين والاروغواي والبرازيل وكولومبيا . إلا أن هذه الدلالة تحتوي ، بشكل طبيعي ، على دلالة إيجابية مناقضة لها ، وهي بروز فئـــة من البرجوازيين الديمقراطيين والثوريين تمكنوا ، كأفراد ، من الالتحاق بدرجات متفـــاوتة بمعسكر الثورة : بريزولا في البرازيل ، وربما ميشلسين في كولمبيا ، وليشين في بوليفيا وغيرهم .

إن التثوير العكسي للقوى الحالية (دفع الطبقة المسيطرة إلى أقصى اليمين، والطبقات المستغلة إلى أقصى اليسار) يفيد الاستعمار في المرحلة الراهنة بسبب التغييرات التي عرفتها التيارات التاريخية الثلاثة منذ قيام الثورة الكوبية :

أولاً : ان القادة البرجوازيين للأحزاب الجماهيرية السابقة (كالتحالف الشعبي الثوري الأميري – آبرا – في بيرو ، وحزب العمل الديمقراطي في فينزويلا ، والحركة الوطنية الثورية في بوليفيا وغيرها) قد التحقت عدة وعتاداً بالمعسكر الاستعماري (حاملة معها إليه قطاعات واسعة من الفلاحين ومن العمال أحياناً) .

ثانياً : ان القادة الشيوعيين لفترة « ما قبل الثورة الكوبية » الذين عجزوا، في أوج تطور الأحزاب البرجوازية الصغيرة الجماهيرية ، عن منافستها على السيطرة على الحركة الشعبية لافتقارهم إلى الوسائل النظرية والعملية لذلك ، لا زالوا حتى الآن عاجزين عن ذلك لأسباب شتى .

ثالثاً : إن الحركة الكاسترية الفتية التي انبثقت بسرعة ، وحاولت بشكل عفوي ، عقب الثورة الكوبية مباشرة ، ملء الفراغ الذي أحدثه غياب القيادات الثورية ، نادراً ما تمكنت من الوقوف على رجليها . فالعفوية ، واستصغار التهيئة والدراسة النظرية ، والمشكلات التنظيمية ، والثرثرة هي أسباب الفشل الذريع الذي منيت به « آبرا ريبلدي » في بيرو ، و « الحركة الطلابية الفلاحية العمالية » في كولومبيا ، والعصب الفلاحية في البرازيل ، و «اشتراكية الطليعة» في الأرجنتين. لكن العديد من هذه المنظمات الكاسترية بعد أن تعلمت من أخفاقها الأول وبسبب احتفاظها بالاندفاع الثوري ، تعمل الآن لبلوغ مستويات جديدة من العمل .

إن هذه التغيرات المضطربة لا زالت تترك فراغاً أساسياً في عدة مناطق ، مكاناً فارغاً ينتظر طليعته الثورية ، على الرغم من أن هذه التغيرات عينها قد غيرت من دور الطليعة . على أن الأدعى للدهشة في هذا الفراغ هو أن اميركا

اللاتينية منجم للكوادر الثورية الصلبة، المصممة والمستعدة للتضحية والتي تعذّر عليها حتى الآن التجمع في طليعة تنتظمها . ويرى العديد من المناضلين الشباب أن هذه الطليعة ليست متوافرة وأنه ينبغي بناؤها ، وهذا عمل مضن . « آه ، لو كان يوجد رجل أو حزب نتبعه » . تتردد هذه العبارة مراراً وتكراراً في أوساط الآلاف من المناضلين الشباب من باناما إلى باتاغونيا. ومن بين كل مشاهد البؤس والاهمال التي تعج بها أميركا اللاتينية ، لعله لا يوجد مشهد أسخف وأكثر إيلاماً من مشهد هؤلاء الرجال المهملين ، سجناء خمسين سنة من التحليلات الهزيلة والصيغ العمياء التي كانت رائجة بين أسلافهم المكرسين .

بين ليلة وضحاها ، غيرت كوبا العمل الثوري وأسلوبه ومضمونه بحيوية شابة . ويأتي الضغط السكاني ليجسم من أهمية هذا التجديد . فنصف سكان فنزويلا ، مثلاً ، هم دون العشرين من عمرهم . وهذه الشبيبة ، المنعتقة من عبء الذكريات ، لن تتبع إلا الذين تراهم يقاتلون إلى جانبها . ثمة طلاق عنيف بين الأجيال في اميركا اللاتينية بأسرها ، وخاصة على صعيد التصرف السياسي . ويبيّن هرم فئات الأعمار في بلدان جنوب اميركا شبه المستعمرة بوضوح كاف أن هذا الطلاق إنما يعكس ظرفاً موضوعياً سيزداد بروزاً مع الأيام .

أما بالنسبة لما يسمى « جيل العشرينات » ، فإن هذه الطائفة من القادة الاشتراكيين الديمقراطيين الذين ترعرعوا في المنفى ، بمنأى عن التضحيات الثورية التي تبذلها شعوبهم ، قد صفت نفسها بنفسها – لحسن الحظ – دون أن تنتظر موتها الطبيعي . فالثورة الكوبية ، التي خانها هؤلاء ، فضحتهم علناً. لقد صعد هايادي لاتوري ، وفيغويرسي ، وبيتانكور ، وفرونديزي ، وباز استنسورو وغيرهم إلى سدة الحكم بسبب الحرب العالمية الثانية ، ثم سيطروا على الحركة المناوئة للاستعمار في اميركا اللاتينية بأسرها ، ولجموها حتى عام ١٩٦٢ . وقد طردتهم كوبا عن مسرح العمل الثوري حيث كانوا ، إلى أمد قريب ، يخدعون الجماهير . والمشاعر المكبوتة لهؤلاء القادة البرجوازيين الصغار ، الذين تسلموا الحكم بفضل لفظيتهم الثورية ، ليست بخافية على أحد . خلال الخمسينات ،

كان بمكنة بيتانكور مثلاً أن يعتبر نفسه قائداً للمقاومة الشعبية ضد الاستعمار، ولكنه أدرك، بعد زيارة كاسترو الخاطفة لفنزويلا عام ١٩٥٩، ما هو الدور الذي يتعين عليه أن يلعبه. لذا، فالاهانات المسعورة التي وجهها بيتانكور بعد ذلك بقليل ضد «الكاسترويه الشيوعية» (وهو تعبير سرعان ما عمّ القارة بأسرها) وانخباله الذي ينم عن عقدة اضطهاد مستحكمة إنما تعبر خير تعبير عن حالة هذا السياسي الوضيع المنبوذ المحكوم عليه بالعزلة التامة وبالتجول في سيارة مصفحة والذي جرد، ذات يوم من عام ١٩٥٩، من منصبه ورتبته وأوسمته أمام ٥٠٠ متفرج في ساحة «ديل سيلنسيو» في كاراكاس.

ولدت الحركة الكاسترويه - نقطة الانفصال بين جيلين - وسط مرحلتين تاريخيتين: الثورة البرجوازية والثورة الاشتراكية. والخطيئة التي لم تغفر لها بعد هي أنها ولجت هاتين المرحلتين ببساطة متناهية كما لو أن ذلك أمر طبيعي للغاية.

إن الثورة الكوبية - بوصفها خاتمة حقبة تاريخية وفاتحة أخرى - قد حددت، إلى الأبد، اللحظة التي تنقلب فيها عادة من العادات وتتحول إلى نقيضها. ويكمن نصيبها التاريخي - الفوق محدد دون منازع [1] - في أنها تمكنت من أن تحظى بدعم مادي ومعنوي من السياسيين الليبراليين التقليديين الذين سوف يكتسحهم عما قريب شبان بدون ماض ولكنهم يتميزون بالاندفاع والاخلاص أمثال فيديل كاسترو وراوول كاسترو، كاميلو ثينفويغوس، أرنستو غيفارا، والمايدا. وهذا انصهار للتناقضات فريد من نوعه. ففي أشد فترات

---

١ - الفوق تحديد ترجمة (مؤقتة وغير وثيقة على الاطلاق) لكلمة determination - Sur التي يستعيرها لوي التوسير لوصف الجدلية الماركسية (تمييزاً لها عن الجدلية الهيغلية) ويمكن تلخيص ما يعني بها على النحو التالي: لا يمكن فصل التناقض عن البنية المجتمعية بأمرها حيث يفعل فعله، لا عن شروط وجودها كبنية، ولا عن مراتب هذه البنية التي يحكمها التناقض ويخضع لتأثيرها في آن معاً. من هنا يمكن القول ان التناقض يحدد مختلف مستويات ومراتب البنية المجتمعية ويتحدد بها في حركة واحدة. فالتناقض إذن فوق محدد (راجع لوي التوسير «دفاعاً عن ماركس» منشورات ماسبيرو، ١٩٦٥ - (المترجم).

النضال السري شراسة ، استطاعت حركة ٢٦ تموز أن تجمع التبرعات في نيويورك باسم « حقوق الإنسان » وأن تتلقى المعونة المالية من بيبي فيغويريس ، رئيس جمهورية كوستاريكا ، باسم الدفاع عن الديمقراطية ، ومن فينزويلا المتحررة لتوها من دكتاتورية بيريز خيمينيز ، وأن تتسلم طائرة محملة بالأسلحة من لارا زابال ، زعيم الانقلاب الديمقراطي ، وأن تؤمن لنفسها دعاية عالمية إيجابية عن طريق صحف عالمية مثل « لايف » و « بازي ماتش » . وإذا كان كل ذلك لا يجعلنا نهمل الجدارة الفائقة لحركة ٢٦ تموز ، فإننا نترجمها لأجل تحديد ما الذي قد تغير بالنسبة لحركة ٢٦ تموز حالياً .

« هل تعتقد أن صحفياً مثل هيوبرت ماثيوز سيأتي لاجراء تحقيق صحفي معنا ، أو أن أمثال فيغويريس يرسلون لنا المسدسات ؟ » سألني بسخرية قائد جمهورية فلاحية مستقلة في كولومبيا على مسيرة بضع ساعات من بوغوتا . وكان الفلاحون آنذاك يتأهبون لصد هجوم يعده الجيش النظامي منذ سنوات بالتعاون مع البعثة العسكرية الأميركية وهم يفتقرون إلى كل شيء . المراكز العالمية القادرة على مساعدتهم بعيدة جداً ، المال والسلاح ينقصهم ، والحملات المنظمة تشن عليهم من قبل الصحافة المحلية والعالمية لتشويه أهدافهم ومعنى نضالهم ، والعزلة والجوع – تلك هي ملامح الوجه المرير الآخر لنداء الشجاعة المفروض حكماً على الثوريين المعاصرين : « اعتمدوا على قواكم الذاتية » .

بعد الثورة الكوبية ، ازدادت التضحيات بالأرواح ، وطالت آماد الحرب الثورية . وازدادت تعقيداً . كان من الأيسر ، منذ خمس سنوات فتح جبهة تحرير عريضة مما هو الآن حيث يوصم كل عمل مناوىء للاستعمار بتهمة « الكاستروية – الشيوعية » فيضطر إلى اللجوء الى النضال السري . كما أن بناء جيش شعبي قد ازداد صعوبة الآن حيث الجيوش النظامية تتدرب نفسياً وعسكرياً ، منذ خمس سنوات ، على خوض حرب العصابات وتتسلل قوى الشرطة إلى المنظمات السرية مكثفة نشاطها التجسسي والقمعي. لقد آن الاوان لكي نغير لغتنا ومنظارنا ، في أوروبا وفي المناطق الأخرى ، عندما نحاول

فهم المصاعب التي يواجهها رفاقنا في هذه البقعة من العالم .

إن الاخبار (أو انعدامها) في الصحافة الغربية « الموضوعية » حول الثورة الفينزويلية تبين بوضوح كامل النقطة التالية : من يجهل النموذج الكوبي يعجز عن فهم التاريخ المعاصر . ما الذي أقدمت عليـــه « القوات المسلحة للتحرر الوطني » FALN عندما تبنت استراتيجية جديدة تعتمد على « الحرب الطويلة المدى » ؟ أخذت بعين الاعتبار الوضع الجديد الذي خلفتـــه كوبا ، والذي يتجلى في فينزويلا بوضوح أكثر مما يتجلى به في أي بلد آخر . إن أكثر من نصف مجموع استثمارات الولايات المتحـــدة في اميركا اللاتينية موظفة في فينزويلا . وهكذا ، فليس البلد الذي بلغ فيه التغلغل الاميركي أقصى مداه وحسب ، بل هو أيضاً البلد الذي يفرض عليه الاستعمار حراسة مشددة . ومما لا شك فيه أن الفينزويلية قد استعادت أنفاسها واسترجعت توازنهـــا – بعد اخفاق شكل الانتفاضة المدينية الذي اعتمدته بسبب عدم ملاءمته لأوضاعهـــا – واضطلعت بدلاً منه بالمهمة الطويلة المدى التالية : الانتقال من جيش غوار إلى جيش شعبي نظامي في الريف. فتركت بالتالي للمدينة كل أهميتها السياسية ، سعياً منها لصون امكانات العمل الجماهيري العلني وعقد التحالفات الجريئة .

في غضون ذلـــك اندمج النضال الجماهيري المسلح في الريف ، أكثر من اندماجه به في كاراكاس.ويذكر هذا التحول بالثورة الصينيةالتي ظن العديدون مراراً ، أنها أوشكت على الاخفاق بعد الانتكاسات الدموية التي منيت بها في كانتون وشانغهاي عام ١٩٢٧ . ولكن ذلك الظرف وحده هو الذي سمح للقادة الشيوعيين بأن يتجاوزوا النموذج البلشفي للثورة ، وأن يكتشفوا شكلها الصيني الأصيل ، هذا الشكل الذي دافع عنه بنجاح ماوتسي – تونغ ضد لي لي – سان . والانسحاب إلى الريف مع « المسيرة الطويلة » وإنشاء القواعد الفلاحية الثورية هو الذي أدى إلى النصر ، مع العلم بأنه تولد عن هزيمة . وإذا كان بالإمكان أن نحصي آلاف التضحيات المبذولة ، فلا يجوز أن نسجل الدم المهراق في شانغهاي أو كاراكاس في قيد خسائر الثورة ،كما لو أنه نتيجة خطأ في الحساب

ففي كلا المناسبتين ، نجد أن البرهان النظري على صحة القول إن الانتفاضة المدينية المعزولة لا تستطيع احراز النصر في بلد شبه - مستعمر ذي غالبية سكانية فلاحية ، كان يجب أن يتم على صعيد الممارسة نفسها . فلو أن البراهين النظرية ذات طبيعة نظرية وحسب، لكان يكفي وجود بعض المنظرين الأكفاء لتحقيق ثورات « جيدة » بالاعتماد على الاستدلال وحده ، وهذا يغنينا عن تشعبات لا طائل تحتها . من هنا ، فإن استراتيجية الحرب الطويلة المدى ، المنطلقة من الريف لتطويق المدن ، كانت مقبولة ضمناً لدى قادة الجبهات الانتفاضية منذ عام ١٩٦٢ ، ولكن لم يصادق عليها القادة المدينيون إلا بعد أن أثبتتها الأحداث بعد سنتين اثنتين عرف العمل الثوري خلالها انفصالاً بين خطط قادة المدينة وخطط قادة الريف .

إن كل من زار الجبهات الريفية قبل انتخابات عام ١٩٥٤ بإمكانه أن يشهد على استراتيجية دوغلاس برافو في الفالكون ، وأوربينا وغاباالدون في لارا : النضال المسلح المعمق المتخذ أشكالاً سياسية أكثر منها عسكرية . فالعمل الدؤوب لتكوين خلايا مساندة بين فلاحي كل دسكرة وقرية ، وعمل الدعاية والاتصالات اليومي ، وفلاحة الأراضي المستصلحة في الدغل ، والحملة المنظمة لمحو الأمية بين المقاتلين والفلاحين ، وتدعيم التنظيم للاحتفاظ بصلة مع القرى والمدن ، وشبكات التموين والاعلام - تتوج كل هذا العمل التنظيمي السياسي بإنشاء قاعدة ثورية ثابتة بمدرستها ومحاكمها واذاعتها (التي أنشئت حديثاً في منطقة الفالكون) . وهذه مهمات تمركز خفية لا ترى الصحافة منها إلا جوانبها العسكرية ، وهي أقلها أهمية . ففي حين كان النضال المديني المسلح يستنزف قواه في حرب افناء يعمل الزمن ضدها ، بسبب توازن القوى في المدن ، كان النضال الريفي المسلح يعمل بهدوء مستغلاً فترةالوقت ذاتها لإرساء البنية التحتية السياسية لعملياته العسكرية المقبلة . وفي غمرة الانتصارات الشعبية الأخيرة ، ساد الاستخفاف السياسي بحكومة بيتانكور وبالاستعمار الاميركي أوساط مناضلي المدن الذين لم يتسن لهم ، لأسباب بدهية، فرصة اختبار شروط النضال

الجديدة لفترة ما بعد الثورة الكوبية. من هنا استصغارهم لجهاز القمع الحكومي ولقوة الاستعمار الأميركي ، وهذا ما يفسر السرعة التي تم فيها سحق تنظيمات الثورة ، العلنية منها والسرية ، في كاراكاس وفي عواصم الولايات . هكذا كان الفينزويليون ، سكان البلد الأكثر خضوعاً لتسلط الاستعمار الاميركي بسبب نفطه وحديده ، أول من اختبر معنى « الحرب الشعبية » في ظروف ما بعد الثورة الكوبية . وقد دفعوا الثمن غالياً على دورهم الرائد هذا . أما الآن وقد أضحى اخفاق التجربة الاصلاحية ، كما تجلى في بيرو والبرازيل وتشيلي ، أمراً لا ينكره أحد (علماً بأنه لا يكون دائماً موضع تقويم نقدي) ينبغي أن يعود ثوريو البلدان الشقيقة إلى ذلك المستودع الضخم من التجارب الذي تشتمل عليه فينزويلا ، وهي تجارب مفيدة للجميع حتى في اخطائها .

تشيلي : مصير الطريق الانتخابي

قيل الكثير عن تشيلي في الآونة الأخيرة . والواقع أن هذا البلد يتصدر حالياً التيار الاصلاحي ، كما تبين من الانتصارات الانتخابية التي أحرزها الديمقراطيون المسيحيون مؤخراً . ولا غرو ، فالمواقف السياسية المتقدمة التي يطرحها هذا الحزب تثبت ، فعلاً ، ارتفاع مستوى الحركة الجماهيرية هناك خلال السنوات الأخيرة . والسياسات التي تنتهجها حركة الطبقة العاملة هناك (بعد أن استعادت حرياتها عام ١٩٥٨ على عهد أبانيز) قد تفسر الى حد ما ليس انتصار الرجعية بل قدرتها على مباغتة وإرباك جميع اصلاحيي القارة .

ليس من الضروري أن يكون المرء قد قرأ كلاوز وفيتز لكي يدرك أن أساس أية خطة تكنيكية ، أكانت ثورية أم لا ، هو أن يحارب المرء على أرضه ، أو (حيثما يوجد نظام رأسمالي) أن لا يسمح للمعركة بأن تتحول إلى معركة حاسمة ما دامت تخاض على أرض العدو — وأرض العدو هنا هي أرض الديمقراطية التمثيلية ومحتواها الطبقي أشد بروزاً في اميركا اللاتينية مما هو في أوروبا نفسها ...

على الرغم من أن تشيلي تتسم بخاصة مميزة (التقاليد البرلمانية ، غياب دور الجيش ، هامشية الاقطاع الزراعي ، إلى آخره ...) فإن الأهمية الحاسمة للكنيسة الكاثوليكية (تبين من فرز الأصوات على أساس جنس المقترعين أن الاصوات الاربعمائة ألف التي تفوق بها فراي على خصمه الاندي هي أصوات نساء) ، والسيطرة الكاملة على الصحف الواسعة الانتشار وعلى جميع وسائل الاعلام من قبل الطبقة المهيمنة ، وحرية التصرف التي تتمتع بها « المؤسسة الخيرية » كاريتاس في شراء الأصوات في « الكالامباس » (الاحياء العمالية في سانتياغو) عن طريق التوزيع المجاني للمواد الغذائية التي تقدمها منظمة « التحالف من أجل التقدم » ، والحملة المؤثرة التي تشنها الولايات المتحدة ضد كوبا — كل هذه العوامل ضمنت تفوق البرجوازية انتخابياً منذ البدء . وعلى الرغم من أن بعض قطاعات الطبقة العاملة في تشيلي قد أعربت ، قبل ٤ أيلول ١٩٦٤ ، عن شكها في امكان احراز نصر شعبي في هذا الحقل ، فإن « جبهة العمل الشعبي » بذلت قصارى جهدها لاقناعها بالعكس .

١ — في مطلع الحملة الانتخابية ، علقت « جبهة العمل الشعبي » جميع المطالب العمالية حتى لا تثير الذعر في أوساط الطبقات الوسطى ، على الرغم من التضخم وتفاقم البطالة . وراحت الاحزاب الديمقراطية ، وقد تحولت كلياً إلى اجهزة انتخابية وحسب ، تطمئن اعضاءها بانتصار سلفادور الاندي المحتوم ، فحرفت بذلك اهتمام الجماهير عن مسألة الاستيلاء على السلطة لتوجهه نحو طبيعة الأغلبية الانتخابية التي ينبغي احرازها — أهي أغلبية نسبية أم مطلقة . فكان الافتراض السائد عملياً أن الأغلبية الانتخابية تعني الاستيلاء على السلطة . وقبل ثلاثة أشهر من موعد الانتخابات ، أضطرت « جبهة العمل الشعبي » — خوفاً من التعبئة العسكرية في الأرجنتين وبوليفيا وبيرو ، وتحسباً للشائعات السارية حول قيام انقلاب عسكري في حال انتصارها في الانتخابات (وهي شائعات عززها الانقلاب العسكري البرازيلي) إلى اتخاذ اجراءات رسمية سريعة ، من وراء ظهر الجماهير ، لحماية قادتها وتمهيد الطريق للعودة إلى العمل

السري إذا اقتضى الأمر ذلك . وكلها اجراءات لم تتسم بشيء في رفع مستوى الوعي والتعبئة عند الجماهير .

٢ – خاضت الجبهة المذكورة انتخابات رئاسة الجمهورية على أساس تحالفها مع أحزاب « الوسط » أو حتى مع الأحزاب الرجعية المفضوحة ، وعلى أساس اعطاء بعض التنازلات للمنشقين عن الحزب الليبرالي والمحافظ – أي أنها حولتها ، باختصار ، إلى مناورات سياسية يقوم بها وجهاء محليون . وقد ذهبت بهذا الاتجاه إلى أبعد مداه ، فخصصت مجلة « فيتازو » ؛ لسان حال الشبيبة الشيوعية ، صفحاتها الاولى للمأدبة التي أقامها على شرف الأندي « المحفل الأكبر للماسونيين التشيليين » الذي يضم أبرز شخصيات البرجوازية التجارية التشيلية. وأخيراً ، لم يكن من فارق يذكر بين برنامج فراي المسيحي الديمقراطي وبرنامج الأندي سوى مطالبة الأخير بالتأميم التدريجي لمناجم النحاس في حين اكتفى الأول بالدعوة إلى جعلها « ملكية تشيلية » . على أن فراي كان قادراً على استخدام وسائل أكثر مباشرة للوصول إلى الجماهير .

٣ – ما دامت جميع نضالات الطبقة العاملة قد تأجلت«إلى وقت لاحق»، تقاعست الجبهة حتى عن مواجهة اعمال الخصم العدوانية حتى لا تنفر الناخبين . فكانت تشيلي البلد الوحيد بين بلدان اميركا اللاتينية الذي لم تخرج فيه تظاهرات جماهيرية احتجاجاً على قطع العلاقات الدبلوماسية مع كوبا . فعندما حدث ذلك ، قبل فترة وجيزة من موعد الانتخابات ، اكتفت « جبهة العمل الشعبي » بإصدار بيان يعلن فيه الأندي ، مرشحها لرئاسة الجمهورية ، أنه مستعد لرفع القضية إلى المحكمة الدولية في لاهاي إذا ما اقتضى الأمر ذلك . وبدلاً من أن تشدد الجبهة على تضامنها مع كوبا ، امعنت في تنصلها من الثورة الكوبية ومن سائر الحركات الانتفاضية التي كانت موجودة آنذاك . ولم ترد على سيل الشتائم التي كانت الرجعية تكيلها لـ «دكتاتورية فيديل كاسترو الدموية».فظنت فئات شعبية عديدة أنه لا توجد أجوبة على هذه الاتهامات ، وأن كوبا ليست جديرة بأن يدافع عنها .

٤ – إن استخدام سلاح برجوازي (كالانتخابات في نظام ديمقراطي برجوازي تشيلي) شيء ، أما استخدام هذه الانتخابات بطريقة برجوازية ، فشيء آخر . كما وأن الدفاع عن نزاهة انتخابات معينة وعن احترام الدستور في وضع معيَّن شيء ، أما الدفاع بحرارة عن الشرعية البورجوازية والتمسّك بحرفية الدستور ، كأنها مطلق ، معزول عن أي موقع طبقي ، فشيء آخر. خلال الحملة الانتخابية في تشيلي ، راح « اليسار » يزايد على « اليمين » بإصدار البيانات السلامية التي يعلن فيها إدانته للعنف بشكل عام . هكذا نجد في برنامج الحزب الشيوعي التشيلي ، الذي أقر في مؤتمره الثاني عشر في آذار ١٩٦٢ ، ما يلي :

« إن موضوعة الطريق السلمي ليست شكلاً تكتيكياً ، بل هي فرضية نابعة من برنامج الحركة الشيوعية نفسه ... (إن الطريق السلمي) يتلاءم كلياً مع مستلزمات السير نحو الاشتراكية ومع الطابع الإنساني للنظرية الماركسية – اللينينية. إن العلاقة الحالية بين القوى الوطنية والعالمية قد ضاعفت من امكانات القيام بالثورة عن غير طريق النضال المسلح » .

إذا طرحنا جانباً التفاؤل اللاعقلاني الذى تطفح به هذه الموضوعة في أميركا اللاتينية بعد مضي خمس سنوات فقط على قيام الثورة الكوبية ، فلا زلنا نفاجأ عندما نرى « الإنسانية النظرية » للماركسية تستخدم لتبرير التخلي عن الدقة السياسية والنظرية .

بدهي أنه من غير العدل أن نفسر الانتصار الرجعي في انتخابات الرئاسة التشيلية ، وفي الانتخابات النيابية الأخيرة (١٩٦٥) على أنه ناتج فقط عن اخطاء في الممارسة الثورية . ينبغي تفسير هذا الانتصار من خلال الوضع العام لاميركا الجنوبية بعد الثورة الكوبية . أما تفسير الاخطاء الثورية فقد تعرضنا له في مكان آخر . إذا أخذنا بعين الاعتبار التفوق الاستعماري الراهن وجهل القوى الشعبية للميدان الانتخابي حتى في بلد مثل تشيلي ، نرى أن بيت القصيد هو أن نتيجة الانتخابات التي أفضت إلى نصر انتخابي لم تحرزه « حركة ديمقراطية » أخرى في اميركا اللاتينية قد تحول إلى هزيمة ثورية . لقد نجحت

« جبهة العمل الشعبي » في كسب أصوات نصف الناخبين الذكور، الأقل تعرضاً من النساء للضغوط المحافظة والأكليركية ، فأجبرت الرجعية إلى الذهاب إلى أقصى حدود الديماغوجية الاشتراكية الزائفة لكي تحافظ على حكمها . ولو أن العناصر الاصلاحية لم تبث الأوهام بين الجماهير ، ولو أنها لم تكن تريد تحويل الانتخابات التشيلية في نظر مناضلي اميركا اللاتينية إلى «امتحان» حاسم، لكانت اليوم ، دون أدنى ريب ، في وضع يسمح لها باتخاذ مواقع هجومية قائمة على أسس جديدة .

للتجربة التشيلية عبرتان :

أولاً : يستحيل على بلد اميركي لاتيني « متطور » في جنوب القارة (تشيلي، ارجنتين ، اورغواي) أو في أميركا الوسطى (كوستاريكا) أن يفلت من حكم بنية القارة بأسرها المسجونة كلياً في خيوط الشبكة الاستعمارية . إن حركة الطبقة العاملة التشيلية ، التي يسيطر عليها مركّب تفوق حقيقي جعلها تجسّم خصوصيات نظامها الديمقراطي « المتطور » ، حاولت ان تضع بين مزدوجين حركات التحرر الوطني في أميركا اللاتينية فضلاً عن الوضع الموصوف سابقاً الذي خلقته الثورة الكوبية في القارة بأسرها .

ثانياً : للانتهازية في اميركا اللاتينية قاسم مشترك مع نزعة المغامرة الصبيانية اليسارية : كلاهما يستخف بالاستعمار الأميركي الشمالي على الرغم من تعاقب الانقلابات العسكرية في السنوات الأخيرة .

كان العديد من المناضلين في كوبا وفي البلدان الأخرى يدركون أنه نظراً لضعف الاستعداد عند المنظمات الديمقراطية التشيلية ، فإن انتصار الاندي الانتخابي لن يؤدي الى تغيير أساسي في بنية جهاز الدولة ، وأن العمل الشعبي لن يقضي بذلك على الطبقة الحاكمة التشيلية ولا على القوى الامبريالية .

استراتيجية التيار الاصلاحي :

إن هذا الاستخفاف الفادح بقوى الاستعمار قد ظهر على شكل أوضح

عند التيار الإصلاحي في قطاع من الحركة الثورية البرازيلية . فإذا كان ثمة من برهان تاريخي على عبث الجهود الإصلاحية ، فالبرازيل هي هذا البرهان . ونظراً لأن حدود هذا المقال لا تسمح بتحليل يتطلب دراسة مخصصة له ، نكتفي بالقول إن الحزب الشيوعي البرازيلي – كما يتبين من الانتقادات الذاتية التي أصدرها مؤخراً – تخلى عن استقلاله الطبقي لقاء التحالف مع البرجوازية الوطنية المتمثلة بشخص غولار . وقد ولد هذا الخط الانتهازي نقيضه الآلي عند قطاع واسع من القوى الثورية البرازيلية ، غنينا نزعة برجوازية صغيرة تدعى الجذرية وتألف العمل الدؤوب بين الجماهير ، تمثلت في بعض القطاعات بفرانسيسكو خولياو وبالبعض الآخر ببريزولا . واذا كان الانقلاب العسكري الفاشستي لم يواجه بأية مقاومة ، فمن أسباب ذلك أنه فاجأ الحزب الشيوعي وقد كان في أوج حلمه بالعمل العلني الشرعي . فإذا بالقطاعات الوحيدة القادرة على النضال تفضل تأجيله ، رافضة الدفاع آنذاك عن نظام فاسد وعاجز ، غير أنه لم تكن قد تمكنت بعد من توحيد الجماهير على أساس برنامج ثوري لم يكن قد وجد بعد .

لنطرح السؤال التالي : لماذا تمسكت القيادات السياسية في مختلف البلدان بالأوهام الداعية إلى طريق سلمي نحو الاشتراكية بعد مدة من انتصار الثورة الكوبية وعلى الرغم من كل العبر التي حملتها ؟ لعل سر هذا اللغز – وليس بالسر فعلاً – يكمن في المفهوم العام لثورة اميركا اللاتينية عند التيارات الإصلاحية الراهنة ، ولنستشهد هنا بالحجج التي تكرم أحد ممثلي هذه التيارات « البالغ الكفاءة » ووضعها بين أيدينا ، وهو ينتمي إلى إحدى أمم جبال الأند حيث كانت انتفاضة شعبية في طور الاندلاع عندما كتب هذه الكلمات :

« إن الهدف من عملنا في أميركا اللاتينية هو تدعيم دول الديمقراطية الوطنية من أمثال بوليفيا والمكسيك والبرازيل (كان ذلك في عهد غولار) بحيث تلعب في المستقبل دور نقاط استقطاب للدول المجاورة الأقل تقدماً . ولا تستطيع هذه الدول الوطنية أن تعزز مواقعها فعلاً إلا على حساب الاستعمار الأميركي

الذي ينزع نحو القضاء على الأنظمة الاقتصادية القادرة على المزاحمة وعلى الانعتاق من احتكاره التجاري. ان الاستعمار الأميركي الشمالي هو العدو الطبيعي للبرجوازيات الوطنية . وهكذا ، فان الفرصة الوحيدة المفتوحة أمام هذه البرجوازيات الوطنية لكي تنمي اقتصادياتها بمعزل عن الرقابة الأجنبية وتشرع في مراكمة رأس المال ، هو في طلبها المساعدة الاقتصادية المنزهة من المعسكر الاشتراكي التي تمنح بدون أي شروط سياسية . لهذا يكون الواجب الأول على المعسكر الاشتراكي هو أن يواصل بناء قواه الاقتصادية بلا توقف. ولهذا سببان. اولاً ، لأن ذلك يمكنه من أن يمد بلدان أميركا اللاتينية بالقروض الطويلة المدى وبالفنيين – أي أنه يمكنه من اضعاف النفوذ الأميركي الشمالي وتقليص رقعته . ثانياً ، إن تقدم البلدان الاشتراكية مادياً وثقافياً سوف يضاعف من جاذبية الاشتراكية ويزيد من انجذاب دول الديمقراطيات الوطنية نحوها .

« لذا ، ينبغي علينا حالياً ان ننتظر حتى تنضج البورجوازيات الوطنية ، ما دام بدهياً انها لن تظهر بين ليلة وضحاها . ونمو البرجوازية الوطنية هو نمو تناقضين اثنين في آن واحد : التناقض الأول مع الاستعمار الذي يكف عن ممارسة استغلاله السابق ،والثاني مع البروليتاريا الوليدة التي تبدأ هذه البرجوازية باستغلالها . إن البرجوازية القوية تولد بروليتاريا قوية .لذا ينبغي الاعتماد أساساً على هذا التناقض المزدوج . فطالما أن البرجوازيات الوطنية لا تزال ضعيفة ، فالثورة غير ممكنة .غير أن ضعف الطبقة العاملة وأحزابها لا يجوز أن يجرنا إلى السقوط في سياسة انعزالية متزمتةقد تسقط فيها بعض القيادات بسبب افتقارها إلى النجدة.ينبغي أن نكون على استعداد لعقد أوسع التحالفات،دون أن نخشى أن تنتزع الطبقاتالوسطى قيادتها.إن العديد من البرجوازيينالصغار والمتوسطين يتمتعون بمواقف سياسية رائعة . وهم الآن الواقعيون الوحيدون . إن الظروف الدولية تلعب حالياً دوراً متزايد الأهمية في إحراز الانتصارات الثورية . فمن الأفضل أن لا نكون على عجلة من أمرنا ، ما دام كل عام يمر بغير هذه الظروف الدولية لصالح الاشتراكية : فالاقتصاد الكوبي ينمو ، واقتصاد المعسكر

الاشتراكي ينمو ، وتولد بلدان اشتراكية جديدة في أمكنة أخرى من العالم ، وما إلى ذلك .

« إن محاولة القيام بالثورة ، في وضع كهذا ، اعتماداً على النضـــال المسلح ضد ممثلي البرجوازية الوطنية الآخذة في التكوّن كطبقة حاكمة، لن يؤدي إلا إلى تأخير انبثاق الظروف الموضوعية التي تسمح بالتقدم ، أو حتى القضاء عليها. فتندفع أكثر العناصر في الحكومة وبين البرجوازية ، حكماً ، إلى أحضان الاميركيين الشماليين . وتفسح هزيمة الانتفاضة المجال أمام أشد العناصر رجعية لكي تبرز مرة أخرى ، وربما تؤدي إلى إلغاء الإصلاح الزراعي البدائي وإلغاء تأميم المناجم . فتطالب الولايات المتحدة بإغلاق سفارة الاتحاد السوفياتي التي تمكنا من الاحتفاظ بها بصعوبة بالغة ، رغم جميع الاستفزازات ، كما تطالب بترحيل البعثات الاشتراكية . إن أفدح الأخطار التي تتهدد اميركا اللاتينية اليوم هي نفاذ واليعقوبية . فكلاهما يقود إلى تقهقر الظروف الموضوعية والتضحية بالمستقبل المضمون لقاء الأوهام » .

إن أنصار الستراتيجية الاصلاحية يتلاشون سنة بعد سنة في أميركا اللاتينية لسبب بسيط هو أن تحليلهم لا يصمد أمـــام امتحان الواقع . فالستراتيجية الإصلاحية تفترض مسبقاً أن دول « الديمقراطيات الوطنية بقيادة البرجوازية » قادرة على تنمية اميركا اللاتينية ، وانها لن تتحالف مع الولايات المتحدة لا بل هي قادرة على أن تتحرر باطراد من الاستعمار . غير أن تاريخ العشرين سنة الماضية قد بيَّن ان هذه البرجوازيات جميعها معضلة مميتة ليس لها حل .

١ – الفاشستية الديمقراطية البرجوازية

قام حزب « البرجوازية الوطنية » بمصادرة الثورة الشعبية واستولى على الحكم ، كما فعل « الحزب الدستورى الثوري » في المكسيك ، و « حرب العمل الديمقراطي » في فنزويلا ، و « الحركة الوطنية الثورية » في بوليفيا. لكن هذه البرجوازية الصغيرة التقدمية لا تملك قاعدة سلطة اقتصادية قبل تسلمها الحكم .

لذا تحوّل الدولة ليس إلى أداة سيطرة سياسية وحسب ، بل إلى مصدر للسلطة الاقتصادية أيضاً . فتمسي الدولة ، إلى حد ما ، أداة لتكوين علاقات استغلال جماعية ، في حين هي في أوروبا الرأسمالية تتويج لهذه العلاقات . وبواسطة عملية اختصار للطريق مميزة للبلدان شبه المستعمرة ، تتحول الدولة من كونها التعبير القانوني عن علاقات الانتاج القائمة في مجتمع ما ، لتصبح ، إلى حد ما ايضاً ، أداة تكوين علاقات انتاج لم تكن موجودة أصلاً في هـــذا المجتمع . اذاك يضحي تكاثر الوظائف الحكومية– المورد الوحيد لتوظيف آلاف الاتباع العاطلين عن العمل – البديل عن تنمية الجهاز الانتاجي . فهذه البرجوازية لا تساوي شيئاً على الصعيد الاقتصادي اذا لم تكن مسيطرة على جهاز الدولة ، لذا فالسلطة السياسية هي كل شيء بالنسبة لها ، وهي لن تتوانى عن الإقدام على أي عمل من أجل الاحتفاظ بها . من هنا ، فالشكل المميز الذي يتخذه وعيها الطبقي هو اليقظة السياسية . فتمسي بطاقـــة العضوية الحزبية الشرط المسبق للحصول على وظيفة حكومية . ففي فنزويلا مثلاً ، ينبغي على أصغر سكرتير في وزارة من الوزارات أن يدفع رسوم الانتساب إلى حزب العمل الديمقراطي قبل أن يتعلم الطبع على الآلة الكاتبة .وتقتطع الرسوم الحزبية من أجور موظفي الدولة مباشرة ، تمامـــاً مثلما تقتطع الاشتراكات النقابية للاتحادات النقابية الرسمية من أجور العمال . هكذا تولد زمرة مغرورة وقحة من البيروقراطيين الكبار والمتوسطين ، وأمنـــاء السر الخاصين ، والمحامين المحتالين ، ورجال الأعمال ، وعملاء الشرطة ، والضباط الضالعين في عمليات إعادة بيع الأسلحة والدبلوماسيين المدمنين على المخدرات ، والقادة النقابيين الذين يتعيشون على حساب وزارة العمل . جميع هؤلاء طفيليات تعيش على حساب جهاز دولة هو بدوره طفيلية تعيش على حساب المجتمع .

وترى هذه الكائنات أنها في صراع حيـــاة أو موت ضد كل من تسوّل له نفسه مجرد الاقتراب من غنائمهم ، فيسحقون مثل هـــذه المحاولات ويقضون عليها في المهد. تحت تهديد المطالب الشعبية ، تخون هذه البرجوازية المكونة من

الأثرياء الجدد العقيدة الوطنية فوراً ، هذه العقيدة التي كانت تميز قيادتها للجماهير (والجماهير الفلاحين خاصة المعبأة باستمرار بوعد إقامة اصلاح زراعي «أصيل») فتغير ولاءها وتكرس نفسها للتعاون السافر مع الاستعمار ، فتتعهد بإدارة مصالحه المحلية . هكذا تتم الصفقة بينها وبين الاستعمار : امتيازات تنقيب عن النفط والمعادن وامتيازات تجارية لقاء بعض العائدات والمساعدات الاقتصادية التي توظف فوراً في شق طرقات خاصة وبناء أحواض السباحة . من هذا المنظار ، يتشابه النظامان الفنزويلي والبوليفي (سيان أكان بازاستنسورو على رأس هذا الأخير أو لم يكن) بدرجة مذهلة . عين الاصلاحات الزراعية والصفقات العقارية المخجلة في فنزويلا يقابلها توزيع الأراضي غير المزروعة في شرق بوليفيا إلى ملكيات فردية ، عين الديماغوجية « الشعبية » التي تضمن سمعة حسنة للنظام في الخارج من انتخابات دورية مزورة إلى الاحتفاظ بدمية تسمى برلماناً إلى المسرحيات المعدة لإثبات ولاء العمال للنظام — كل هذه الألاعيب بقصد الابقاء على الظاهرة الديمقراطية . وإذ تحيط هذه البرجوازية نفسها بـ « الشعب المسلح » ، أي بمرتزقة ينتمون إلى العمال الباطلين والفئات الرثة (في فنزويلا : نصف دزينة من أجهزة الشرطية والعلنية ، وفي بوليفيا ، تتكون « ميليشيا » الحركة الوطنية الثورية » من الهنود الأميين و « عمال السكك » — وهي النقابة العمالية الوحيدة التي أثمر فيها الإرهاب الحكومي) ، تضطر هذه البرجوازية عينها إلى الدفاع عن سلطتها السياسية ضد الذين حملوها إلى السلطة أصلاً : أي ضد العمال والطلاب الذين ناضلوا ، بقيادة الوطنيين والشيوعيين الشباب ، طوال عشر سنوات ضد بيريز خيمينيز وطوال عشرين سنة ضد غومين ، والذين عانوا من « درب الصليب » الطويل من المجازر في المناجم والانتفاضات التي سحقتها « الروسكا »—اوليغارقية القصدير . وفي نهاية هذه العملية ، تتمخض أنظمة « الديمقراطية الوطنية » عن مسخ يمكن تسميته الفاشستية الديمقراطية البرجوازية — وهو الشواذ الوحيد عن القاعدة القائلة انه لا وجود للمسوخ في التاريخ . انه تحوّل اساسي للتناقضات يدخلها نظام

برجوازي بدون طبقة برجوازية ، ونظام ليبرالي بدون ليبراليين ، ولا أمل له بالخروج منها .

ذلك هو الشطر الأول من المعضلة : الخيانة الصريحة للثورة البرجوازية الديمقراطية من قبل الثورة البورجوازية الديمقراطية نفسها .

٢ – الانقلاب العسكري

عندما يرفض أحد السياسيين البرجوازيين ، أو جناح من « البرجوازية الوطنية » أن يخون رسالته الوطنية ويبيع نفسه للولايات المتحدة، يحاول تحقيق اصلاحات برجوازية ديمقراطية : إصلاح زراعي أصيل معاد للاقطاع ، منح الأميين حق الاقتراع ، إقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مع جميع الدول ، مراقبة أرباح الشركات الاميركية الشمالية الكبرى ، وما شابه . ويضطر « رئيس الجمهورية » – لمقاومة الضغوط المشتركة التي يمارسها السفير الاميركي (يطلق عليه أهل الاكوادور لقب « نائب الملك ») ، والحملات الصحفية ، والعراقيل القانونية التي تضعها في طريقه أغلبية برلمانية هي ثمرة التزوير الانتخابي وانغلاق الطبقة الحاكمة على نفسها – إلى الالتجاء إلى الجماهير الشعبية ودعوة أحزاب ونقابات الطبقة العاملة إلى تأييده ، وحتى السعي لكسب تأييد العصب الفلاحية إذا اقتضى الأمر (كما في البرازيل) . ابتداء من ذلك الحين ، يهدد النظام باستمرار خطر قيام انقلاب عسكري .

محشوراً بين العمال والفلاحين الذين أثار حماسهم ، والذين يضغطون عليه من الخلف ، وبين جيش عبأته الاولنيغارقية المثلومة الكرامة وغمزات وزارة الخارجية الاميركية يصده من الأمام ، يتعثر « الرئيس » ، يسعى إلى مخرج من هذا المأزق ، يحاول المهادنة ، المساومات – ولكن بعد فوات الأوان . لقد أدركت الطبقة الحاكمة بأسرها ، نظراً لمسيرة الأحداث المتسارعة ، أن الآلية الجديدة التي بدأت بالتحرك سوف تؤدي إلى سقوطها . ان انتصار سياسة استقلال وطني تتطلب اجراءات اشتراكية : هذه حقيقة تثير الذعر حالما

يكشف النقاب عنها . فتتخلى البرجوازية فوراً عن هاوي الشعوذة المنبثق من صفوفها . فلا تكترث إذا سحقت القدم العسكرية الشرعيـة الدستورية التي كانت هذه البرجوازية نفسها حاملة لوائها منذ أمد ليس ببعيد ضد « أعمــال الشغب » . فيستغل الجيش أدنى بادرة (وكانت هذه في البرازيل العفو الذي أصدره غولار عن البحارة الذين تمردوا على ضباطهم) ليحتل مراكز المحافظات فترفض حاميات الألوية الإجابة على المكالمات الهاتفية القـادمة من الرئاسة ، وتتحرك الدبابات باتجاه القصر الجمهوري ، وتخلي الشوارع من النـاس : حدث الانقلاب العسكري . فيبقى «الرئيس» وحفنة من مستشاريه معلقين في الهواء. ولأن الرئيس احترم الشرعية الدستورية طوال حكمه ، لا يسعه أن يتصـدى لجيش العسكريين بجيش من نوع آخر ، كما يعجز عن تسليح الشعب . والاجراءات المتأخرة مثل التظاهرات الشعبية الصغيرة التي تندلع هنا وهناك ، ولا تتعدى حدود الاحتجاج الرمزي فيفرقها الجيش سريعاً بقوة السلاح . فيستقل الرئيس الطائرة إلى الاورغواي أو باناما ، بعد عجزه عن التصدي بقوة جدية للممثلين المسلحين لطبقته ولوزارة الخارجية الاميركية .

هكذا كان سقوط آربنز في غواتيمالا عام ١٩٥٤ (عندما أقـدم الجيش الاميركي الشمالي على تدريب وتجهيز وتنظيم قوات المرتزقة بقيـادة كاستيليو أرماس) ، وبوش في سانتو دومنغو عام ١٩٦٣ ، وغولار في البرازيل عـام ١٩٦٤ ، فضلاً عن اورسيمانا في الاكوادور ، وأريـنـالو وفيبدا موراليس في أميركا الوسطى والعدد غيرهم ممن أطاحت بهم انقلابات عسكرية . ولا شواذ لهذه المأساة — المهزلة في تاريخ المنوعات البونابارتية عند البرجوازية الوطنية ، مثل فارغاس في البرازيل (عام ١٩٤٥) وبيرون في الارجنتين «عام ١٩٥٥». فتتابع الفصول والمشاهد هذا لا يتغير جوهرياً . ويتبين من هذا التكرار أن تاريخ أبطال التيار الاصلاحي البرجوازي راسخ كعقيدة دينية . فالاصلاحية ، وما هو إلا ترمت مذهبي معكوس ، تحبس نفسها في حلقة مفرغة لكي لا تسمع دروس التاريخ . « إنها العنقاء الجميلة ، تموت عند العشية لتبعث حيـة في

الصباح » . إن أبطال التقدم البرجوازي السيء الطالع يميلون إلى المغامرات الفروسية إلى درجة أن مأساتهم تنتهي دوماً وأبداً بمهزلة .

ذلك هو الشطر الثاني من المعضلة : إن البرجوازي (أكان فرداً أو مجموعة أفراد) ، حتى ولو كان على قدر من الجرأة تمكنه من أن يأخذ العقيدة الوطنية لطبقته على ما تعنيه حرفياً – ولكن دون أن يملك من الجرأة قدراً يسمح له بالانفصال عن هذه الطبقة – حتى ولو أخذ على عاتقه مهمة إقناع طبقته بأن تكون مخلصة لنفسها ، أي لإصلاح المجتمع الاقطاعي على أساس بورجوازي ، لا يلبث أن يقضي مخنوقاً على يد طبقته نفسها التي تسلط عليه الجيش ، أداة سيطرتها السياسية . ودون أن يكون في ذلك ما يسيء إلى انسجامها مع نفسها ، « فإن البرجوازية الوطنية ، بفعلتها هذه ، إنما تكشف عن البعد الذي يفصل بين طبيعتها الحقيقية – أي كونها خليفاً للاقطاع الريفي ولرأس المال الاجنبي – وبين ما تدعيه عن طبيعتها ، أي كونها وطنية معادية للاستعمار تحب البرجوازية أن ينظر اليها على أنها طبقة حازمة ، ولكن بقدر . فالفضيلة البرجوازية السامية ، في السياسة وغير السياسة ، هي الحل الوسط .

ما تفسير هذه المعضلة ؟ الوضع المتفجر الذي ولد الثورة الكوبية في أميركا اللاتينية – وهو برهان عليها لنفسها وللعالم . وهذا الوضع هو كالآتي : كما قيل عن روسيا عام ١٩١٧ ، كذلك نقول الآن ان أميركا اللاتينية اليوم حبلى بثورتين ، ثورة برجوازية ديمقراطية وثورة اشتراكية ، وهي لا تستطيع أن تطلق الواحدة دون أن تطلق الأخرى : « عند ولادة الأولى ، لا تتمالك نفسها من إطلاق الثانية » [1] من هنا خطر الاتكال على « البرجوازية الوطنية » – حتى في البلدان التي تكون فيها برجوازية كهذه في طور النمو – للقيام بالثورة البرجوازية الديمقراطية ، ذلك انها تدرك تمام الادراك العملية التي ستطلقها اذا هي باشرت بذلك . والقول انه قد وقع على عاتق البروليتاريا والفلاحين أن

---

١ - راجع لوي التوسير ، « التناقض والفوق تحديد » ، دفاعاً من ماركس ، باريس ١٩٦٥ .

ينجزوا المهام التاريخية التي كان المفروض أن تضطلع بها البرجوازية ، يعني أن الخيار اليوم ليس بين ثورة بورجوازية « سلمية » وثورة اشتراكية « عنيفة » ، كما كان يدعي القيمون على منظمة « التحالف من أجل التقدم » بالاتفاق مع الاصلاحيين ، بل يعني الخيار بين الثورة والردة المضادة للثورة وهذا ما يعترفون به الآن . إن المعتدلين من دعاة «الآفاق الجديدة» قد تخلوا مؤخراً عن اعتدالهم « وهذه ميزتهم على العديد من الاصلاحيين » ورحبوا بالردة المضادة للثورة ، كما يتبين من « مبدأ مان » واعترافه بجميع الحكومات العسكرية . فالواقع أن للاستعمار خطتين اثنتين حالياً : إما أن يتحاشى ولادة الثورة البرجوازية الديمقراطية « عن طريق الانقلاب العسكري » ، وإما أن يفرغها من محتواها « عن طريق الفاشستية الديمقراطية البرجوارية » إذا ما ولدت بغتة . إذا كان المخلوق قد ولد ، يسجنونه . وإذا لم يكن قد ولد بعد ، يجهضونه . ولا يوجد الحل الثالث ، مهما كان اعتقاد الشيوعيين الاصلاحيين أو الديمقراطيين المسيحيين في تشيلي . بل ثمة أكثر من ذلك : منذ أن وضعت كوباً حداً لعدم الاحتراس – كانت الثورتان « الديمقراطيتان » في المكسيك « عام ١٩١٠ » وفي بوليفيا « عام ١٩٥٢ » العهد الذهبي للاهمال الاميركي الشمالي قبل قيام الثورة الكوبية – فإن الإجهاض على الطريقة العسكرية هو القاعدة الآن. والدليل على ذلك هو سلسلة الانقلابات العسكرية خلال السنتين الأخيرتين .

حصيلة المعضلة : ان على كل من يصر على لعب لعبة الثورة ، أكان ليبرالياً أم اشتراكياً ، من فوق « أي بدون تنظيم شعبي مسلح » وضمن قواعد الشرعية الدستورية ، أن يلعب لعبة غريبة يجري الخيار فيها بين طريقين كلاهما خاسر . فإما أن يرسل اللاعب إلى السجن أو المنفى أو القبر « عن طريق انقلاب عسكري » ، وإما أن يرقى إلى سدة الحكم كديماغوجي مسلح مكلف بأن يرسل الثوريين إلى السجن أو المنفى أو القبر « كما بالنسبة للفاشستية الديمقراطية البرجوازية » . إما مصير أربيز « غواتيمالا ١٩٥٤ » وإما مصير بيتانكور (فنزويلا ١٩٥٩) إما أن يذهب ضحية خيانة وإما أن يخون . وفي كلا

الحالين ، فالثورة البرجوازية السلمية هي التي تدفع الثمن . وعندما يحين وقت المواجهة الفعلية ، في وقت لاحق ،فكل المطلوب يكون بعض البنادق الاضافية. بفضل سخرية التاريخ العظمى جرى تعميد أضمن طريق نحو مستقبل من الدموع والدم في أميركا اللاتينية باسم « الطريق السلمي إلى الاشتراكية » .

إن التجربة البرازيلية في « الاصلاحات الأساسية » التي أجرتها حكومة غولار ، قد اشتملت على كل الظروف التي تسمح بإحراز النصر : حركة جماهير جبارة تحظى بتأييد الحكومة المركزية ، واحد من أقوى الاحزاب الشيوعية في القارة وقد تغلغل في جهاز الدولة نفسه ، وجيش تمد الحركة الديمقراطية والثورية الجبارة نفوذها فيه من قمته إلى قواعده ، أو هكذا كان يظن . فكان منطقياً أن يكون محط آمال جميع الذين يعتقدون في أميركا اللاتينية أن أوفر عملية هي السيطرة على الدولة البرجوازية من الداخل . إلا أن سقوط غولار ، ذا الصفاء النموذجي ، خيب هذه الآمال في كل مكان تقريباً . ولسوء طالع الحزب الشيوعي فقد جره غولار معه في سقوطه . وهو الحزب الشيوعي نفسه الذي قال أمين سره لاصدقائه المتذمرين قبل بضعة أيام من الانقلاب : « لا تخافوا . اننا حالياً في الحكم » . وهكذا ، فالحزب الذي تغلغل في جهاز الدولة البرجوازية دون أن يفلح في السيطرة عليه نهائياً ، سمح بذلك للرجعية بأن تصيب عصفورين بحجر . أما الآن فإن مناضليه لا يقوون على كبت ضغينتهم . ويبدو الحزب الشيوعي البرازيلي حالياً مشتتاً منشقاً نتيجة اصطراع عنيف بين مختلف الاتجاهات ، والتهم المتبادلة والتحليلات اللاحقة . فاليقظة الإلزامية مؤلمة بقدر ما كانت الأحلام جميلة .

إن مسيرة الصراع الطبقي الحقيقي الذي لا يرحم أحداً لا تلبث أن تؤكد نفسها في نهاية المطاف . والحزب الشيوعي الكولمبي ، بقيادة أمينه العام فييرا، قد توصل إلى أن يتكيف مع أحكام التاريخ الموضوعية ، فأعلن تبنيه العلني لقضية فلاحي ماركويتاليا المحاصرين .

يمكن الافتراض بأن الثوار الكولمبيين — بإقدامهم على تنسيق عملهم مع عمل

الثوار الفنزويليين في منطقتي الاندى ولارا، وفي نقل النضال المسلح إلى السهول غير المحمية التي تصل هذين البلدين – قد أسرعوا ، على نحو فريـــد ، في تحرير البلدين المتجاورين : كولمبيا وفنزويلا معاً . هكذا تحققت الآن وحدة النضالات الوطنية التي بشر بها بوليفار والتي سوف تستنقع أميركا لمدة طويلة بدونها . أما بالنسبة لأولئك ، المتناقصين عدداً يوماً بعـــد يوم ، والذين يصرون على رفض الاضطلاع بنقد جذري لاخفاقهم (في بيرو ، وتشيلي ، والبرازيل) فإن أبلغ ادانة ضدهم هي صمتهم ، الذي يبرز اعتصامهم بالصبر تبريراً . فالصبر ، هذه الفضيلة الثورية الأساسية ، تفقد الاحترام المعقود عليها عندما تتحول إلى ذريعة نظرية ضد جميع الحجج التي يتقدم بها العقل والواقع . وبالمقابل ، فالجميع يدين نفاد صبر الكاستروبين الشباب عندما يعرضون أهداف الثورة ووسائلها على نحو حازم . ولكن من يلاحظ المفارقة التي تستسلم أحزاب « الصبر » بمقتضاهـــا للواقعية العمياء وللتحالفات غير المبدئيـــة لأغراض انتخابية (مثـل أولئك « الثوريين » البيرونيين الذين اقترعوا إلى جانب مرشح الديمقراطيين المسيحيين في انتخابات ليما البلدية عام ١٩٦٣ ، وتخلوا عن مرشح « الجبهة التحررية ») ، أي الذين يستسلمون ، بعبارة أخرى، لسياسة المكاسب القريبة المدى والخسائر البعيدة المدى ؟ ألا يكون الصبر الثوري الحقيقي ، على عكس ذلك ، في عملية بناء القوة الأساسية للثورة بالعمل الطويل المدى ، وفي التمييـز للمرة الأولى والأخيرة بين مختلف الرايات الطبقية المرفوعة (وهذا لا يلغي امكان التحالفات، طبعاً) ، وفي تجميع المستغلين حول نواة ثورية تنمو باطراد مثـــل حركة ٢٦ تموز في كوبا ، وجيش التحرير الشعبي فيفنزويلا وميليشيا الدفاع عن النفس في كولمبيا التي تتحول الى جيش غوار قبل أن تصبح جيشاً نظاميـاً ؟ أما « نافذو البصر » ، فهم ينمون ، من جهتهم ، عن مرونة تكتيكية مذهلة ، ويواجهون بهدوء آفاق الحرب الطويلة المدى. إن نفاد صبر الكاستروبين لا يقول : « لنقفز إلى السلطة غداً » ، بل يقول : مهما تكـــن الطريق شاقة وطويلة ، ولأنها شاقة وطويلة بالذات ، ينبغي ألا نفقد من أمام ناظرينا هدفنا النهائي في تحطيم

الدولة شبه الاستعمارية . هكذا نتفادى الانحرافات التي لا طائل تحتها » .

إن هذا التعلق بالفاعلية وبالضربات الموجهة ضد أسس الدولة ، وجيشها وشرطتها ، لا يسود أوساط الآلاف من المناضلين من غواتيمالا إلى البرازيل دون أن يكون له مصدر مشترك. نكتفي هنا بالاشارة إلى أحد عناصره فقط، دون اللجوء إلى تعدادها جميعاً . لا حاجة لتجميع الاحصائيات لكي نبين أن جماهير أميركا اللاتينية هي الآن ضحية نوع من الإبادة الجماعية السلمية يقوم بها الاستعمار والطبقات الحاكمة . لنذكر من احصاء الذين قتلوا في الحروب التي تجتاح القارة دورياً هذا الرقم فقط : سقط في كولمبيا وحدها ٣٠٠ ألف قتيل في الفترة بين ١٩٤٨ و ١٩٥٨ . وفيما يلي رقمان آخران نختارهما من الإحصائيات الرسمية . في ضواحي ريسيف (في شمال شرق البرازيل) يموت ٥٠٠ طفل قبل بلوغ الثانية من بين كل ١٠٠٠٠ طفل وليد . إن متوسط العمر المتوقع للذين يعملون في مناجم بوليفيا أو في المزارع البرازيلية الكبيرة في شمال شرق البلاد يزيد عن الثلاثين سنة بقليل . هذا مثال عمودي عن اميركا اللاتينية . وتعرف أميركا اللاتينية حالياً زيادة سكانية (٣ بالمئة سنوياً) أسرع من أي زيادة أخرى في العالم الثالث . وتحوّل علاقات الإنتاج الراهنة (وهي شبه اقطاعية بشكل عام) هذه الزيادة إلى وضع متفجر . وإذا ما قارنا هذه الزيادة السكانية بمثيلتها في اوروبا ، نجد ان كلا منها تنتمي إلى وحدة زمنية تاريخية مختلفة عن الأخرى . مثلاً : يحدد برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، الذي تبناه مؤتمره الثاني والعشرون ، فترة جيل واحد لبناء الشيوعية – أي نصف قرن كحد أقصى ، وحتى ذلك يبدو قصيراً في الواقع ، غير أن الثوريين البرازيليين مثلاً عندما يحددون حداً أقصى زمنياً يقررون انه يجب بناء مجتمع جديد بعد بضع سنوات لا أكثر (مهما بدا ذلك لا واقعياً بالنسبة لهم) . خلال عشرين سنة ، سوف يترك النمو السكاني في الاتحاد السوفياتي أفضل الأثر على نمو قواه الانتاجية ومستوى معيشته . أما البرازيل ، فسوف يضاعف

عدد سكانها ، خلال الفترة ذاتها ، من ٦٠ إلى ١٢٠ مليون نسمة : بمعنى آخر ، إذا لم يعرف المجتمع البرازيلي تغيراً جذرياً خلال تلك الفترة ، فإن عدد ضحاياه سوف يضاعف (أي عدد الأطفال الذين يموتون في ضواحي ريسيف) . ولعل من الأسباب التي تفرض على الرفاق في اميركا اللاتينية أن يعيشوا في حالة طوارىء دائمة ، وأن يختبروا ولعاً محموماً ملحاً يجعلهم في حركة دائمة . فلو انهم استكانوا ، لماتوا بسهولة اكبر ، الواحد تلو الآخر . وهذا ولع يغذيه صبر الكاستروين من جهة وشعور غامض بالخلاص القريب ، وهو من شعائر المجاعة التي تعيب الفلاحين في شمال شرق البرازيل ، من جهة أخرى . عندما نعترف بهذا الفارق النوعي بين مختلف الازمان في العالم ، يسهل علينا أن نفهم ان البون الذي يفصل بين الستراتيجية وبين التكتيكات المستجرة منها أضيق في اميركا اللاتينية منه في اوروبا . وقد نفهم أيضاً لماذا الشعارات المنقولة مباشرة عن حركة الطبقة العاملة الاوروبية — كشعار التعايش السلمي مثلاً — تواجه الصعوبات الجمة التي تواجهها في ظروف اميركا اللاتينية . يسهل الاعتراف بأن التفاوت في تطور العالم ، وفي النمو السكاني بخاصة ، يفترض تفاوتاً في أشكال العمل الثوري ووتائره . لكن ، لماذا لا نطرح المسألة بوضوح ؟ فمن الواضح أيضاً ان مختلف فصائل الحركة الثورية العالمية قد تدخل في تناقضات ثانوية فيما بينها إذا هي لم تعترف بالفروقات القائمة بينها .

يمكن أن نعزو العجز عن رؤية هذه الحقيقة إلى تيار اصلاحي يصر على اعتبار المفهوم الثوري الكاستروي ، أيضاً نظرية «البؤرة الانتفاضية» ، مفهوماً مغامراً مشبوهاً باستمرار وخطراً أحياناً . ويرى أن السلوك الصحيح للطليعة هو كسب الوقت ، وتوفير القوى ، وتعزيز شرعية المنظمة بأي ثمن ، وإرسال أفضل المناضلين إلى البلدان الاشتراكية الاوروبية لتوسيع احتياطي الكوادر فيرجع هؤلاء في العدد من الأحيان فاقدي هويتهم الوطنية ، معزولين عن الوضع المحلي ، فيتجاهلهم مناضلو الداخل أو ينبذونهم ، وينظر التيار

الاصلاحي إلى أية بادرة باتجاه النضال المسلح ، أي باتجاه الرد بالأسلحة غير الشرعية على الحرب غير المعلنة (تضم فيا تضم امراض السيليكوس ، والطفيليات التي تصيب الأطفال ، والارهاب ، والموت البطيء) التي يشنها الاستعمار ضد المستغَلين ، على أنها بادرة « غير ناضجة » في أفضل الأحوال ، و « استفزازية » في اسوأها . أما بالنسبة لقادة ومناضلي المنظمات الكاسترويه الجديدة وللكوبيين أنفسهم ، فان ظروف النضال المسلح متوافرة بشكل عام : فهم يرون أن نمو التناقضات الموضوعية عرضة لأن « يسيطر عليه » أو يعرقل أو يؤخر من قبل العدو ، إذا لم يسر ثوريو اميركا اللاتينية قدماً في طريق النضال الطويل للاستيلاء على السلطة ، عبر بادرات « واقعية » واعمال ثورية حاسمة . والذي يضمن هذا هو التفكير الجدي حول الظروف الموضوعية الذي يرفض أن يكون مجرد أنعكاس لها . إن كل من ينظر من الداخل الى التعارض القائم بين هذين الموقفين قد يلجأ إلى مخرج الحياد الزائف . قد يقال ان عيب الماركسية الاوروبية هو في وضعيتها (ذات القاعدة التجريبية) : « تكفي معرفة الظروف الموضوعية جيداً ليكون النضال صحيحاً » . في حين أن عيب الماركسية الكوبية هو في مشائيتها (ذات القاعدة المثالية) «ليس من الضروري دائماً ان ننتظر حتى تتوافر جميع شروط الثورة ، إن البؤرة الانتفاضية كفيلة بتوفيرها » .

إلا أن هذه العلاقة الثنائية ، التي تقارن بين ظاهرتين ليستا متكافئتين ، تتسم باللاواقعية . وهي كأية نظرية زائفة أخرى ، تعجز عن توليد أية ممارسة وليست في الوقت ذاته تفكيراً حول ممارسة معينة . لقد حاولنا في مكان آخر [1] ، أن نبيّن ان المؤثرات المنهجية التي تقع تحت تسمية « الكاسترويه » هي اضمن « دليل للعمل » في الظروف المحددة لغالبية اقطار اميركا اللاتينية . هكذا فالتيار المسمى « الكاسترويه » ليس غير اللينينية ذاتها . وليست

١ ـ راجع مقالة ريجيس دبريه « المسيرة الطويلة لاميركا اللاتينية » .

الـكاسترويـة ، بأي حال من الأحوال ، نموذجاً مغلقاً تستوعبـه جماهـير اميركا اللاتينية وتكرره حرفياً ، بل هي دليـل الخطوة الأولى نحو التحرر على الصعيد القاري . . لننصت بانتباه إلى التقارير الواردة من جبال فينزويلا وكولمبيا المجاورة : إن اميركا اللاتينية على عتبة حقبة من المعارك اللامتناهية ، يمكن ان نتوقع منها انتصارات عسيرة ولكنها أكيدة [1] .

---

١ ـ المرجع السابق .

فهرست

	ص
المقدمة	٥
١ – ثورة في الثورة	
تنبيه	١٧
١ – تحرير الحاضر من الماضي	**٢٥**
الدفاع الذاتي المسلح	٣٥
الدعاية المسلحة	٥٩
قاعدة رجال العصابات	٧٤
الحزب وعصابات الثوار	٨٢
٢ – درس الحاضر الرئيسي	**١١١**
٣ – نتائج الدرس للمستقبل	**١٣٩**
٢ – قضايا الاستراتيجية الثورية في اميركا اللاتينية	**١٥١**

Aram Kerkuky Mouyn

هذا الكتاب

ريجي دوبريه : اسم يعرفه اليوم جميع المثقفين في العالم ، لانه رمز « المثقف المناضل » الـذي يجمع العلم الواسع والفلسفة العميقة الى النضال وروح التضحية . وقد وصف هذا الكاتب الفرنسي الشاب بأنه « فيلسوف الثوار ومهندس العقيدة وحرب العصابات في أميركا اللاتينية » .

وهذا الكتاب : « ثورة في الثورة » هو حصيلة جلسات نقاش طويلة مع فيدبل كاسترو ، ومحاولة لتحديد مبادىء الصراع المسلح والصراع السياسي في اميركا اللاتينية . وقد أثار ولا يزال يثير ضجة كبيرة في الاوساط اليسارية في العالم بالنظر الى شخصية دوبريه الذي اعتقل في بوليفيا ، بعد ان قابل الزعيم الكوبي ارنستو تشي غيفارا الذي قتل اخيرا في حرب التحرير في بوليفيا .

وقد حكم على مؤلف « ثورة في الثورة » بالسجن لمدة ثلاثين عاماً بتهمة انه اشترك في الثورة واعطى دروسا في الثورات لرجال العصابات ، وعمل مع غيفارا قبل مقتله في بوليفيا ، ولكن افرج عنه اخيراً بعـد توسط شخصيات عالميـة ذات نفوذ .